سلسلة كتب « العنقاء »



قصص مختارة

١٩١٩ - ١٩٤٩

الجزء الأول






Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصص مختارة من الادب الصينى المعاصر

١٩١٩ــ١٩٤٩

الجزء الاول

تأليف : لو شيون وآخرون



سلسلة كتب « العنقاء »

الطبعة الاولى . . . . . . عام ١٩٨٧



ترجمة : محمد ابو جراد وآخرون
رسم : دينغ تسونغ

٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين — الصين

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

لو شيون

قصة آه كيو الحقيقية



الفصل الاول

مقدمة

عزمت على كتابة قصة "آه كيو" الحقيقية منذ عدة سنوات ، ولكن ! لما كانت لدى رغبة فى الكتابة كانت فى نفسى شكوك تدل على اننى لست من اولئك الذين يحرزون المجد بالقلم ، لأن القلم الخالد مكلف دائما أن يسجل مآثر الرجل الخالد ، فالرجل يصبح معروفا لدى الاجيال المقبلة عن طريق الكتابة . والكتابة تصبح معروفة لدى هذه الاجيال عن طريق الرجل ، حتى يصبح الامر فى النهاية معقدا ويصعب معه معرفة من منهما أصاب الشهرة عن طريق الآخر . ولكننى كنت كمن تلبسه الجان فعدت فى نهاية الأمر الى التفكير فى كتابة قصة آه كيو .

ومع ذلك فلم يمض على امتشاقى القلم زمن طويل حتى أصبحت أشعر بالمصاعب الجسيمة فى تدوين هذه القصة البعيدة عن الخلود . ففى البدء كانت المشكلة ماذا أسميه . لقد قال كونفوشيوس : " اذا كان الاسم غير صحيح ، فان تبدو الكلمات حقيقية . " فيجب ان تراعى هذه البداهة بدقة متناهية . وهناك صور مختلفة لكتابة السير والتراجم : التراجم الرسمية ، والتراجم الذاتية ، والتراجم غير

المعتمدة ، والاساطير ، والتراجم التكميلية ، والانساب ، والصور التخطيطية . . . ولكن لسوء حظى أنه لا توجد واحدة منها تصلح لغرضى . " الترجمة الرسمية " ؟ ولكن هذه القصة ليست من تراجم الناس البارزين فى بعض التواريخ الرسمية ، و" الترجمة الذاتية " ؟ لا تصلح كذلك ، فمن الجلى الواضح أننى لست آه كيو . ولو سميتها " ترجمة غير معتمدة " فأين اذن " ترجمته المعتمدة " ؟ أما أن أستعمل الشكل " الاسطورى" فذلك شيء مستحيل لأن آه كيو ليس شخصية اسطورية . و" الترجمة التكميلية " ؟ ولكن لم يكلف رئيس الدولة المعهد التاريخى الوطنى بكتابة " قصة حياة " لآه كيو ، وكشيء حقيقى أن التاريخ البريطانى الرسمى رغم عدم احتوائه على " سير المقامرين " فان المؤلف كونان ديول كتب " رودنى ستون " ولكن اذا كان ذلك جائزا لمؤلف مشهور فليس مباحا لكاتب مثلى ثم هناك " الانساب" ولكننى لا أعرف أ أنا أنتمى لنفس العائلة التى ينتمى اليها آه كيو أم لا ، كما لم يعهد الى اطفاله أو احفاده بمثل هذه المهمة . اما اذا استخدمت " الصورة التخطيطية " فلم تكن لآه كيو فى الحقيقة أية قصة كاملة عنه . وبكلمة موجزة : هذه حياة الانسان الأصلية . وما دمت أكتب القصة عن رعاع مستعملا لغة الباعة المتجولين فلا أجرؤ ان أعطيها عنوانا ضخما ، بل سأستعير من عبارة مهملة لروائيين لا يعتبرون من اتباع " العبادات الثلاث والمدارس التسع" * والعبارة تقول : " هنا أغلق باب الثرثرة وأعود

---

* العبادات الثلاث هى الكونفوشية والبوذية والداوية . والمدارس التسع تضم المدرسة الكونفوشية ، والداوية ، والتشريعية ، والمادية ، وغيرها .

بكم الى القصة الحقيقية " ، انى سأستعير منها الكلمتين الأخيرتين لقصتى ، فاذا كان ذلك تذكيرا بكتاب قديم اسمه « القصة الحقيقية لفن الخط » * فلا حول ولا قوة .

والصعوبة الثانية التى واجهتنى هى ان ترجمة على هذا الشكل ينبغى ان تبدأ بالاسلوب التالى " فلان الفلانى ، واسمه الآخر هو كذا وكذا ، من بلدة كذا وكذا " ، ولكننى فى الحقيقة لا أعرف لقب آه كيو . فمرة يبدو أنه كان يسمى " تشاو " ولكن فى اليوم التالى يبدو ان الأمور التبست فلا تظهر الحقيقة . كان ذلك حين اجتاز ابن السيد تشاو امتحان المحافظة ، واعلن نجاحه فى القرية ودقت له النواقيس ، وطفق آه كيو الذى كان قد احتسى قدحين من النبيذ يتوثب طربا ، قائلا ان ذلك يعود عليه ببعض الفخر ايضا ما دام هو الآخر ينتمى الى نفس عائلة السيد تشاو ، وهو ، بعد حساب دقيق ، أقدم من المرشح الناجح بثلاثة أجيال . وآنذاك أخذ بعض الواقفين يشعرون بشيء من الخوف منه . واستدعاه رسول الحاكم فى اليوم التالى الى بيت السيد تشاو . وحين القى السيد العجوز نظرة عليه ، احمر وجهه غيظا ، وزمجر قائلا :

" آه كيو ! ايها البائس التعيس ! هل تقول اننى انتمى لنفس العشيرة التى تنتمى اليها ؟ "

ولم يجب آه كيو بشيء .

---

* كتاب من تأليف فنغ وو من عهد أسرة تشينغ الملكية (١٦٤٤ - ١٩١١ م) .

وكلما امعن السيد تشاو النظر به ، ازداد غضبا ، ثم خطا خطوات الى الامام مهددا وقال : "كيف تجرؤ على ان تتحدث بهذا السخف ! كيف يمكن ان يكون لى قريب مثلك ؟ هل لقبك تشاو ؟"

لم يجب آه كيو . وحاول التراجع الى الوراء ؛ بيد ان السيد تشاو اندفع مسرعا وصفعه .

"كيف يمكن ان تسمى تشاو ! هل تحسب انك أهل لاسم تشاو ؟"

ولم يبذل آه كيو أية محاولة للدفاع عن حقه فى لقب تشاو ، ولكنه فرك خده الأيسر ، وخرج مع رسول الحاكم . وفى الخارج كان عليه ان يستمع الى مزيد من الشتائم من الرسول ثم شكره على مصالحة دفع من أجلها مائتى درهم . وكل من سمع بذلك قال ان آه كيو معتوه مجنون لأنه سعى بنفسه الى صفعة كهذه . وحتى لو كان لقبه تشاو حقا — وهذا غير ممكن — كان عليه ان يعرف انه لا يحق له ان يتباهى على هذا النحو حين يكون فى القرية سيد لقبه تشاو . وبعد هذه الحادثة لم يشر احد الى سلالة آه كيو . لهذا فأنا ما أزال أجهل لقبه الحقيقى .

والصعوبة الثالثة التى واجهتنى فى كتابة هذه القصة هى أننى لا أعرف حتى كيف يكتب اسم آه كيو الشخصى . فعندما كان على قيد الحياة كان جميع الناس يدعونه "آه قوى" ، ولكن بعد وفاته لم يذكر احد آه قوى مرة أخرى ، ذلك لأنه لم يكن من الشخصيات

التى تحفظ اسماؤها "على الواح البامبو والحرير" * . فاذا كانت هناك أية محاولة للابقاء على اسمه ، فلا بد من أن تكون هذه القصة أولى محاولة فى هذا الموضوع ، ولذا فقد اعترضت سبيلى الصعوبة منذ البداية . وفكرت فى المسألة تفكيرا شاملا : آه قوى — ما معنى هذه "قوى" ؟ هل هى قوى التى بمعنى نبات "القرفة" ، أو هى التى بمعنى النبل ؟ اذا كان اسمه الآخر بمعنى ايوان القمر ، أو اذا كان قد احتفل بعيد ميلاده فى شهر مهرجان القمر فستكون قوى ، بكل تأكيد ، بمعنى نبات "القرفة" ** . ولكن بما انه لم يعرف بأى اسم آخر ، او انه يعرف به ، ولا احد يعلم ذلك الاسم ، وبما انه لم يدع الناس لحضور حفلات اعياد ميلاده ليحرز بذلك مدحا بقصائد الشعر ، فمن باب الاعتباط ان اطلق عليه "آه قوى" *** (بمعنى القرفة) . ثم لو أن له أخا أصغر أو أكبر يدعى "آه فو" (بمعنى الرفاهية) فبالتأكيد أنه سيدعى "آه قوى" (بمعنى النبل) ، ولكنه كان وحيدا فريدا ؛ وهكذا فما من حجة لتكتب آه قوى (بمعنى النبل) . اما الحروف الأخرى غير الاعتيادية التى تلفظ

---

* كانت الواح البامبو والحرير تستخدم مادة للكتابة فى الصين القديمة .

** تتفتح براعم القرفة فى شهر مهرجان القمر . وكما يعتقد ، حسب الاسطورة الصينية ، ان الظل الظاهر على وجه القمر هو ايوان القمر .

*** فى اللغة الصينية قد يكون للفظة الواحدة معنيان أو أكثر يختلفان فى الكتابة . وهنا يستغل لو شيون المعنيين المختلفين الموجودين فى لفظة "قوى".

" قوى" فهى أقل ملاءمة . وذات مرة ألقيت هذا السؤال على ابن السيد تشاو المرشح الناجح فى المحافظة ، ولكنه ايضا عجز عن الجواب وهو الرجل المتعلم . فحسب رأيه أن السبب فى تعذر تتبع هذا الاسم هو أن تشن دو شيو * قد أخرج مجلة « الشباب الجديد » داعيا الى استعمال الأبجدية الأوربية ، وهكذا فان الثقافة الوطنية سائرة الى الاندثار . وفى محاولة أخيرة كافت احد سكان منطقتى أن يذهب ويفتش فى الوثائق القانونية التى تسجل قضية آه كيو ، غير أنه أرسل لى رسالة ، بعد انقضاء ثمانية أشهر قائلا انه ليس فى تلك السجلات أى اسم يدعى " آه قوى" . ورغم عدم قناعتى من صحة ما كتب ، وشكى بأنه قام بأى جهد تجاه ذلك الطلب ، فاننى ، بعد فشلى فى تتبع الاسم بهذه الطريقة ، لم يسعفنى تفكيرى فى العثور على طريقة أخرى لمعرفته . ولما كنت اخشى ان الحروف الهجائية لم تشع بعد بين الناس استخدمت الأبجدية الغربية ، ووضعت الاسم بالحروف الانكليزية مختصرا اياه بـ " آه كيو" (AH.Q) . وهذا على وجه التقريب ، اقتداء أعمى بمجلة « الشباب الجديد » ، وأنا خجل من نفسى تماما ؛ ولكن ما دام حتى ابن السيد تشاو ، البالغ هذه الدرجة من المعرفة ، لا يستطيع حل مشكلتى فماذا فى وسعى أن أفعل ؟

---

* تشن دو شيو (١٨٨٠ – ١٩٤٢ م) هو استاذ فى جامعة بكين فى ذلك الحين – وقد كان يحرر مجلة « الشباب الجديد » ، وفيما بعد ارتد عن الحزب الشيوعى الصينى .

وصعوبتى الرابعة هى فى موطن آه كيو الأصلى . فلو كان لقبه تشاو ، فبمقتضى العرف الذى ما زال سائدا فى تصنيف الناس حسب أقاليمهم ، يمكن أن ينظر المرء فى تفسير « الألقاب المئة » * فيرى أنه "من أهالى تيان شوى فى مقاطعة قانسو" . ولكن لسوء الحظ أن هذا اللقب مشكوك فيه ، وبالنتيجة يظل موطن آه كيو الاصلى موضع شك أيضا . ورغم أنه عاش فى أغلب الأحيان فى ويتشوانغ فكثيرا ما كان يمكث فى أماكن أخرى . لهذا فمن الخطأ أن نعده من أهالى ويتشوانغ . فان ذلك سيؤدى فى الحق الى تشويه للتاريخ .

والشيء الوحيد الذى يسرى عن نفسى هو أن حرف "آه" صحيح تماما واختياره ليس مجرد تقليد أعمى فانه سيصمد حتما أمام النقد الاكاديمى . أما المسائل الأخرى ، فليس فى مقدور غير المتعلمين من امثالى ان يحاوها وكل ما أستطيع أن أتصوره هو أن طلاب الدكتور هو شى الذى له مثل هذا " الشغف فى التاريخ وآثار الماضى" ** قد يستطيعون فى المستقبل أن يلقوا ضوءا جديدا عليها . ولكننى ، على أية حال ، أخشى أن يكون كتابى « قصة آه كيو الحقيقية » حينذاك قد عفا عليه النسيان .

وما تقدم يمكن أن يعتبر مقدمة .

---

* كتاب مدرسى قديم نظمت فيه الألقاب شعرا .

** هذه العبارة كثيرا ما كان يستخدمها هو شى اطراء لنفسه . وهو شى (١٨٩١ — ١٩٦٢ م) سياسى رجعى وكاتب معروف .

الفصل الثانى

بيان موجز عن انتصارات آه كيو

بالاضافة الى الشك فى لقب آه كيو ، واسمه ، وموطنه الأصلى ، هناك بعض الشك حتى فى " ماضيه " . ذلك لأن أهالى ويتشوانغ همهم الوحيد أن يستفيدوا من خدماته ، ويسخرون منه دائما دون أن يولوا أقل اهتمام لـ " ماضيه " . وآه كيو نفسه قد لزم الصمت فى هذا الموضوع الا حين يتشاجر مع أحد الناس فكان فى بعض الأحيان يلقى عليه نظرة ويقول : " لقد كنا أيسر منك حالا ! فمن تحسب نفسك على أية حال ! "

ولم تكن لآه كيو عائلة ، بل كان يعيش فى معبد الاله الحارس فى ويتشوانغ . ولم يكن يزاول عملا منتظما ايضا ، بل كان يشتغل للآخرين أشغالا متفرقة بين حين وآخر : يحصد الحنطة اذا كانت هناك حنطة يراد حصادها ، ويجرش الرز اذا أريد جرش الرز ، ويسوق القارب اذا أريد أن يساق . واذا كان العمل يستغرق وقتا طويلا فقد كان ينزل فى بيت مخدومه الموقت ، وحالما ينتهى العمل يغادر البيت . وهكذا يتذكر الناس آه كيو كلما كان لهم حاجة يريدون قضاءها ، بيد أنهم يتذكرون خدمته ولا يتذكرون " ماضيه " ، ولكن حين ينتهى العمل ينسون حتى آه كيو نفسه فخل عنك " ماضيه " .
ولمرة واحدة فقط مدحه رجل عجوز عندما قال : " آه كيو هو





عامل جيد . " وفى تلك اللحظة كان آه كيو واقفا أمام الرجل عاريا حتى وسطه وقد بدا هزيلا فاتر الهمة ، حتى لم يعرف الناس الآخرون هل هذا القول قيل جدا أو هزءا . غير أن آه كيو طرب لذلك طربا عظيما .

وآه كيو يعظم من شأن نفسه كثيرا ، ويحتقر أهالى ويتشوانغ جميعا ، وحتى أنه كان يتصور أن الشابين المتعلمين اللذين يعيشان فى هذه القرية لا يستحقان ابتسامة ، رغم أنهما ربما يصبحان عالمين بعد ان يجتازا الامتحانات الرسمية . وكان أهل القرية يبجلون السيد تشاو والسيد تشيان ويحترمونهما كثيرا ، فهما فضلا عن غناهما أبوان لمتعلمين شابين . وآه كيو وحده لا يظهر لهما احتراما خاصا ظانا : " لعل ولدى أعظم منهما بكثير ! "

وفضلا عن ذلك فبعد أن زار المدينة مرات أصبح أكثر خيلاء ، رغم أنه ، فى الوقت عينه ، احتقر أهل البلدة احتقارا عظيما . فمثلا ان أهالى ويتشوانغ القرويين يسمون المقعد الخشبى الذى يبلغ طوله ٣ اقدام وعرضه ٣ بوصات بـ " المقعد الطويل " ، وكذلك يسميه آه كيو . بيد أن أهل البلدة يسمونه بـ " المقعد المستطيل " فكان يفكر : " هذا خطأ . يا له من أضحوكة ! " وايضا حين يقلى قرويو ويتشوانغ السمك ذا الرأس العريض يضيفون له قطع البصل ، ويبلغ طول القطعة نصف بوصة ، أما أهل البلدة فيضيفون البصل المقطع قطعا ناعمة فكان يفكر : " هذا خطأ ايضا . يا له من أضحوكة ! " غير أن قرويى ويتشوانغ قوم أغرار جهلاء حقا ، لم يروا قط سمك البلدة المقلى .

وآه كيو الذى كان " أكثر يسارا " ورجلا متمرسا بالدنيا و " عاملا جيدا " كان يمكن أن يكون " رجلا كاملا" تقريبا لو لم تكن له بعض العيوب الجسمية المؤسفة . وأكثرها ازعاجا تلك البقع اللامعة المنتثرة فى فروة رأسه والمتبقية من أثر اصابته بمرض القرع والتى ظهرت فى تاريخ غير معلوم . ورغم أنها كانت فى رأسه فالظاهر أنه لم يعتبرها مشرفة البتة ، لأنه كان يحجم عن استعمال كلمة " قرع " أو أية كلمة تشبهها من قريب أو بعيد . ثم طور ذلك فيما بعد جاعلا كلمتى " لامع " و" نور " من الكلمات الممنوعة ، بل حتى كلمتى " مصباح " و" شمعة " أصبحتا بعد ذلك حراما . واذا ما أشير الى هذا الحرام عن قصد أو غير قصد ، تثور ثائرة آه كيو ، وتحمر ندوبه القرعية المدورة ، ويحملق فى هذا المنتهك ، فاذا كان شخصا يعجز عن التعبير والكلام صب عليه اللعنات ، اما اذا كان ضعيفا ضربه . ومع ذلك فالغريب أن آه كيو غالبا ما يخسر الجولة فى هذه المنازلات حتى اتبع فى آخر الأمر أسلوبا جديدا ، وهو أن يكتفى بالقاء نظرة شزراء الى خصمه .

ومهما يكن من شيء فقد حدث ، بعد أن أخذ يستعمل هذه النظرة الشزراء ، أن اشتد شغف المتسكعين فى ويتشوانغ باثارة المزاح حوله . فكانوا ما ان يروه حتى يتظاهروا بالجفول ويقولوا :

" انظروا ! لقد طلع النور ! "

ويقع آه كيو فى الشرك كالعادة ، وينظر شزرا ولكنهم يستمرون فى القول دون أدنى خوف :

" أجل ، فهنا يوجد مصباح غازى . "

وأسقط فى يد آه كيو ولم يستطع ان يفعل شيئا غير أن يجهد فكره ليجد بعض الرد على الاساءة : " أنتم لا تستحقون حتى . . . "
وفى هذه اللحظة الحرجة تبدو الندوب فى فروة رأسه كأنها علامات نبل وشرف ، وليست مرض القرع المعروف وعلى كل حال فان آه كيو ، كما قلنا آنفا ، رجل متمرس بالدنيا ، فكان يعرف فى الحال أنه كاد يرتكب " المحرمات" بنفسه فامتنع عن أن يقول شيئا بعد ذلك .

واذا لم يكتف المتسكعون بذلك ، راحوا يستمرون فى ايقاعه بالشرك حتى يقع الشجار بينهم فى النهاية ، ولا يمضى المتسكعون فى سبيلهم قانعين بالفوز الا بعد أن يهزم آه كيو فى كل السبل ، وتجر ضفيرته الضاربة الى السمرة ، ويدق رأسه فى الحائط أربع أو خمس مرات . وهناك يقف آه كيو لحظة مفكرا فى نفسه : "كأن ابنى ضربنى ، فالى أى حال وصلت الدنيا فى هذه الايام . . . " ثم يمضى هو الآخر فى سبيله قانعا بالفوز .

وكان آه كيو كلما فكر بشىء قاله للناس فيما بعد بالتأكيد ، وهكذا فان جميع الذين يتفكهون بآه كيو تقريبا كانوا يعرفون أن له هذه الطريقة فى كسب الفوز الوجدانى ولذلك كان جميع الذين جروا أو لووا ضفيرته يتصدون له بعد ذلك قائلين : "آه كيو ! ليس هذا ضرب ابن لوالده ، انه ضرب رجل لحيوان . فلنسمعك تقول ذلك : ضرب رجل لحيوان ! "

واذذاك يمسك آه كيو ضفيرته من جذرها ، ويلوى رأسه ، ويقول : " ضرب حشرة — ما رأيكم فى ذلك ؟ أنا حشرة — والآن

هل تدعونى أمضى وشأنى ؟ "

ولكن رغم أنه حشرة فان المتسكعين لا يدعونه يمضى وشأنه حتى يضربوا رأسه فى شيء قريب خمس أو ست مرات كعادتهم ، وبعد ذلك يمضون فى سبيلهم مقتنعين بأنهم قد فازوا ، واثقين بأن آه كيو قد هلك فى هذه المرة . ولكن آه كيو فى أقل من عشر ثوان يستأنف سيره مقتنعا كذلك بأنه قد فاز ظانا بأنه هو " المستصغر الأول لنفسه " وبعد شطب كلمة " المستصغر لنفسه " يبقى " الأول " فحسب . أ فليس أكبر مرشح ناجح فى الامتحان الرسمى هو " الأول " ايضا ؟ " ومن تحسب نفسك على أية حال ! "

وبعد أن يستخدم آه كيو مثل هذه البدع النادرة للتصرف مع أعدائه ، يمضى فى سبيله منشرح الصدر الى حانة النبيذ ليشرب بعض الأقداح ، مازحا مع الآخرين أيضا ، متشاجرا معهم مرة أخرى ، ثم يخرج منها منتصرا ، ويعود منطلق الأسارير الى معبد الاله الحارس ، وهناك يستسلم الى النوم ما ان يمس رأسه الوسادة . واذا يملك فلوسا يذهب ليلعب القمار وهناك يجد جماعة من الرجال يجلسون القرفصاء على الارض ، فيجلس آه كيو بينهم ، ووجهه يتصبب عرقا ، ويصيح بصوت حاد : " أربع مئة على التنين الأخضر. "

" هاى ! افتح هنا ! " ويفتح الصندوق صاحب الرهان الذى يتصبب عرقا أيضا ، ويترنم : " باب السماء ! . . . لا شيء للزاوية . . . ولم يراهن أحد على ممر الجمهور ! فلوس آه كيو أخذت ! "

" على الممر — مئة . . . مئة وخمسون ! "

وعلى نغم هذا الترنيم تختفى فلوس آه كيو بالتدريج فى جيوب

الناس الآخرين المتصببين عرقا ايضا . وفى آخر الأمر يضطر الى أن يشق طريقه من بين الجمع ، ويراقب اللعب من الخلف ، متلذذا باللعب حتى ينتهى . وهناك يعود الى معبد الاله الحارس على مضض . وفى اليوم التالى يخرج الى العمل وعيناه متورمتان .

وعلى كل حال فقد ظهرت حقيقة المثل القائل : " قد تكون المصيبة بركة متسترة " وكان الحظ دائما يعاكس آه كيو ، فاذا كتب له الفوز مرة فانه فى النهاية ينقلب الى فشل ذريع .

كان ذلك فى مساء عيد الآلهة فى ويتشوانغ . وحسب مألوف العادة كانت هناك تمثيلية ، وكانت هناك حسب مألوف العادة أيضا موائد للقمار بالقرب من المسرح . وكانت طبول التمثيلية وصنوجها تتوغل أصواتها عبر مسافة عشرة لى تقريبا . أما آه كيو فقد كانت أذناه مكرستين لسماع ترانيم صاحب القمار فحسب . وقد راهن بنجاح مرة بعد أخرى ، وتحولت دراهمه النحاسية الى نقود فضية ثم تحولت نقوده الفضية الى يوانات فضية ، ثم تكاثرت هذه اليوانات وأصبحت كومة مرتفعة . ومن تأثره صاح : " يوانان على باب السماء ! "

ولم يعرف من الذى بدأ النزاع ، ولا لأى سبب . وشكلت اللعنات واللكمات ووقع الأقدام خليطا من الأصوات المضطربة فى رأسه ، وحين تحامل على قدميه ليقف كانت موائد القمار قد اختفت ، وكذلك المقامرون ! وكانت بعض مواضع من جسمه تبدو موجعة وكأنه قد لكم ورفس ، بينما كان نفر من الناس ينظرون اليه فى دهشة . وعاد الى معبد الاله الحارس وهو يشعر كأن فى الأمر خطأ ، وحين

استعاد رباطة جأشه ، أدرك أن كومة يواناته قد اختفت . ولما كان معظم الذين يديرون موائد القمار فى العيد ليسوا من أهل ويتشوانغ فأين يستطيع أن يبحث عن الجناة ؟

كومة من الفضة بيضاء ناصعة البياض ، متلألئة ! كانت كلها له . . . أما الآن فقد اختفت . وحتى اذا اعتبر هذا كأن ابنه قد سرقه فلن يسرى ذلك عنه . وكذلك لا يهدئ من غضبه وجزعه اعتبار نفسه حشرة . حقا انه ذاق شيئا من مرارة الهزيمة فى هذه المرة .

ولكنه حول الهزيمة الى نصر فورا . فقد رفع يده اليمنى . وصفع بها خده صفعتين قويتين حتى خدر وجهه من الألم . وبعد هاتين الصفعتين أحس براحة فى قلبه ، لأنه قد بدا كأن الرجل الصافع هو نفسه ، أما المصفوع فهو شخص آخر ، وفى الحال تصور كأنما هو نفسه قد ضرب شخصا آخر — رغم أن وجهه ، كان ما يزال خدرا من الضرب . واستلقى مقتنعا بأنه قد كسب الفوز . وسرعان ما غط فى النوم .

الفصل الثالث

بيان آخر عن انتصارات آه كيو

رغم أن آه كيو كان يحرز الانتصارات دائما فانه لم ينل الشهرة الا بعد أن حظى بصفعة من السيد تشاو .

بعد أن دفع لرسول الحاكم مائتى درهم استلقى غاضبا . وقد

قال لنفسه فيما بعد : " الى أى حال وصلت الدنيا فى هذه الأيام ، الأبناء فيها يضربون آباءهم . . . " ثم ان التفكير فى هيبة السيد تشاو ، الذى هو الآن ابنه ، قد رفع معنويته شيئا فشيئا ، ونهض ، وسار الى حانة النبيد مغنيا أغنية « الأرملة الشابة على قبر زوجها » . وفى أثناء ذلك شعر بأن السيد تشاو هو من طراز يعلو معظم الناس .

ومن الغريب أن الناس جميعا ، بعد تلك الحادثة ، بدوا كأنهم يولونه احتراما غير اعتيادى . ولعل سر احترام الناس هذا يعود فى رأى آه كيو الى أنه أب للسيد تشاو حقيقة ، ولكن القضية فى الواقع ليست على هذا النحو . ففى ويتشوانغ ، يوجد عندهم عرف سائد : اذا ضرب الطفل السابع الطفل الثامن ، أو ضرب " لى الفلانى" " تشانغ الفلانى" فلا يؤخذ الأمر بمأخذ الجد . ولكنه اذا كانت اسباب الضرب تتعلق بشخصية لها أهمية مثل السيد تشاو فان الناس يعتبرونه ضربا يستحق التحدث عنه ، ولأن الضارب رجل مشهور فتمتع المضروب بشىء من انعكاس شهرة الضارب عليه . ولما كان الخطأ هو خطأ آه كيو وقد أخذ ذلك على سبيل اليقين بالطبع فالصواب ان السيد تشاو لا يمكن أن يكون على خطأ . ولكن ! اذا كان آه كيو على خطأ فلماذا يبدو الناس جميعا كأنهم يعاملونه باحترام غير اعتيادى ؟ ذلك أمر يصعب تفسيره . ويمكن أن نفترض أن الناس قد خافوا ، بعد أن قال آه كيو انه ينتمى الى نفس عائلة السيد تشاو ، رغم أنه قد ضرب من أجل ذلك ، فربما يكون فى قوله بعض الحقيقة ، فلذلك ظنوا أن من الأسلم أن يعاملوه بشىء من الاحترام . أو أن هناك فرض آخر وهو أن تكون القضية مثل قضية لحم الضحية البقرى فى

معبد كونفوشيوس ، فرغم ان التضحية بلحم البقر هي من نوع التضحية بلحم الخنزير أو الضأن ، لأنه لحم حيوان أصلى كالحيوانين الآخرين ، فلم يجرؤ الكونفوشيون على لمسه ما دام نبيهم قد استمتع به .

وبعد ذلك سعد آه كيو سنوات كثيرة .

وذات ربيع كان يسير نشوان من السعادة فرأى وانغ صاحب اللحية الكثيفة قد تعرى الى وسطه فى ضوء الشمس بالقرب من حائط ، يلتقط القمل ، وبهذا المنظر أخذ بدنه يحكه . ولما كان وانغ أجرب مرسل اللحية كان الجميع يدعونه " صاحب اللحية والقرع " . ورغم أن آه كيو يحذف كلمة " القرع " فانه يحمل أشد الازدراء له . وقد شعر آه كيو بأن الجرب شيء لا اعتراض عليه بيد أن ذينك الخدين الاشعرين مستهجنان جدا ، ولا يمكن أن يثيرا غير الازدراء . وهكذا بجلس آه كيو الى جانبه ، فلو كان أى متسكع آخر لما جرؤ آه كيو على ان يجلس بجانبه هكذا بعدم اكتراث . ولكن ! ما الذى يخافه من جانب وانغ ؟ وفى الحقيقة ان رغبته فى الجلوس كانت شرفا لوانغ .

وخلع آه كيو سترته الخريفية المهلهلة ، واخرج بطانتها ، ولكن التنقيب الطويل لم يأت بغير قملات ثلاث أو أربع وذلك عائد اما الى انه غسل السترة حديثا ، واما الى انه كان متسرعا جدا . وكان يرى وانغ فى الجانب الآخر يلتقط القمل واحدة بعد أخرى فى تتابع خاطف ، ويقضمها فى فمه بصوت مفرقع !

وشعر آه كيو بالكدر أول الأمر ، ثم بالامتعاض . ان الحقير

وانغ استطاع ان يمسك بهذا العدد الكبير ، بينما هو أمسك بهذا العدد الضئيل — فيا للعار ويا للشنار ! وتلهف الى ان يمسك قملة أو قملتين من الحجم الكبير . ولكن ما من شيء ثم أمسك بعد مشقة كبيرة قملة متوسطة الحجم ألقاها فى فمه بقسوة ، وعضها بوحشية ، ولكنها لم ترسل غير صوت رذاذى ، اوطأ درجة من الفرقعة التى يحدثها وانغ .

واحمرت ندوب آه كيو القرعية . ورمى سترته على الارض ، وبصق وقال : " حشرة ! "

ونظر وانغ بازدراء قائلا : " ايها الكلب الأجرب ، من هو الذى تشتمه ؟ "

ورغم أن الاحترام النسبى الذى وهب لآه كيو فى السنوات الأخيرة قد زاد من تيهه فانه ظل يخاف الى حد ما من بعض المتسكعين الذين قد تعودوا الخصام . غير انه فى هذه المرة أحس بشعور استثنائى لاذع . فكيف يجرؤ مخلوق مشعر الخدين كهذا على اهانته ؟

قال آه كيو وقد وقف ويداه على ردفيه : "كل من يستحق هذه الشتيمة . "

قال وانغ وقد وقف ايضا ، وارتدى معطفه : " هل يحكك جلدك ؟ "

وظن آه كيو أن وانغ يريد أن يهرب فتقدم رافعا قبضته ليضربه . ولكن ! قبل ان تنزل قبضته امسكه وانغ ، وشده شدة جعلته يترنح . ثم أمسك وانغ ضفيرة آه كيو ، وأخذ يجره الى الحائط ويدق رأسه بالطريقة الشائعة الاستعمال :

فاحتج آه كيو وهو يلوى رأسه قائلا : " ان السيد المحترم يستعمل لسانه لا يديه . "

يبدو أن وانغ ذا اللحية الكثيفة لم يكن سيدا محترما فانه دق رأس آه كيو فى الحائط خمس مرات متتابعة دون أن يعير أى التفات الى قوله ، ودفعه دفعة ارسلته متقهقرا الى مسافة ذراعين . وعند ذلك فقط مشى وانغ راضيا .

وكانت هذه — بالقدر الذى يتذكره آه كيو — أول اهانة فى حياته ، فقد كان دائما يهزأ بوانغ بسبب خديه المشعرين القبيحين ، ولكنه لم يتلق هزءا من وانغ ، ناهيك عن ضربة منه . أما الآن ، فخلافا لكل ما هو متوقع ، يضربه وانغ . فلعل ما قالوه فى السوق صحيحا حقا : " الامبراطور ألغى الامتحانات الرسمية ، لهذا فان العلماء الذين اجتازوها لم يعودوا مطلوبين . " ونتيجة لذلك فقدت عائلة تشاو منزلتها . فهل نتيجة لذلك ايضا أن الناس يعاملونه باحتقار ؟

وقف آه كيو هناك حائرا .

ومن بعيد اقترب عدو آخر لآه كيو . كان ذلك هو الابن الأكبر للسيد تشيان ، وهو ايضا ممن يحتقرهم آه كيو . ولقد درس فى مدرسة أجنبية فى المدينة ، ويبدو أنه قد ذهب الى اليابان بعد الدراسة . وحين عاد بعد نصف عام كانت له ساقان مستقيمتان ، وقد اختفت ضفيرته ، وبكت أمه بألم مرات كثيرة ، وحاولت زوجته ثلاث مرات أن تلقى نفسها فى البئر . وفيما بعد قصت والدته هذه الحادثة الى كل الناس : " لقد قص أحد الأنذال ضفيرته عندما كان ثملا . وقد فشل فى أن يكون موظفا . ولكن عليه الآن أن ينتظر حتى تنمو

ضفيرته ثانية قبل أن يفكر فى الوظيفة . " ومع ذلك فان آه كيو لم يصدق هذا الأمر وأصر على تسميته : " مقلد الشيطان الأجنبى " و " خائن مأجور للأجانب " . وما ان يره حتى يلعنه فى سره .

وأكثر ما يحتقره آه كيو ويمقته فى ذلك الرجل هو ضفيرته المستعارة . فالرجل حين ينتهى الى ان تكون له ضفيرة مستعارة يعسر أن يسمى انسانا ، ولما كانت زوجته لم تحاول مرة رابعة القاء نفسها فى البئر فان ذلك يدل على أنها ليست امرأة صالحة ايضا ؛

والآن يقترب منه هذا " المقلد للشيطان الأجنبى " .

" أصلع — حمار — " . وفى الماضى كان آه كيو يشتم فى سره فقط ، وبصوت غير مسموع ، اما اليوم فلأنه كان معكر المزاج فقد أراد أن يفصح عن مشاعره ، وانزلقت الكلمات من فمه بطواعية .

ومن سوء الحظ أن هذا " الاصلع " كان يحمل عصا بنية لامعة كان آه كيو يدعوها " عكازة النائح " ، وبخطى واسعة انقض على آه كيو الذى خمن فى الحال أن ضربا يوشك أن يقع ، فشد على نفسه منتظرا وقد تصلب ظهره . وبالتأكيد كان ثمة ضرب رنان يبدو أنه يهبط على رأسه .

فقال آه كيو محتجا وهو يشير الى طفل : " أقصده ؛ "

طاب ! طاب ! طاب !

وحسب ما يتذكره آه كيو فان هذه هى الاهانة الثانية فى حياته ؛ ومن حسن الحظ أنه توهم ، بعد أن ضرب ، ان القضية قد أغلقت ، فأخذ يشعر بشىء من الارتياح . وفضلا عن ذلك فان المقدرة القوية

على النسيان التى ورثها من أسلافه قد أفادته فمشى بتؤدة ، وحين وصل الى باب الحانة شعر بالسعادة القصوى مرة أخرى .

وفى تلك اللحظة ، أقبلت نحوه راهبة صغيرة من دير " تهذيب النفس" . وكان منظر أية راهبة يجعل آه كيو يشتم ، فكيف يكون الامر اذا كان ذلك بعد اهانة لحقت به ؟ وحين استرجع ما حدث عاد اليه كل غضبه .

ففكر فى نفسه : " ربما كان سبب تعاسة حظى أن أضطر لأراك ."

وجاء اليها وبصق بصوت صاخب : " اخ ... تفه ..."

فلم تلتفت الراهبة الصغيرة الى ذلك أقل التفات ، بل سارت منخفضة الرأس . وأقبل آه كيو عليها ، وألقى يدا ليفرك فروة رأسها التى حلقت حديثا ، ثم ضحك بغباء وقال : " صلعاء ! عودى بسرعة ! ان راهبك ينتظرك ..."

" من أنت لتخمش ؟ ..." قالت الراهبة ذلك وقد احمر وجهها احمرارا شديدا ، وبدأت تبتعد مسرعة .

وانفجر الرجال الذين كانوا فى الحانة ضاحكين . وحينما رأى آه كيو أن تصرفه قد أثار اعجابا أخذ يتيه خيلاء .

وقال وهو يقرص خدها : " اذا كان الراهب يخمشك ، فلماذا لا أستطيع أنا ."

ومرة اخرى انفجر الرجال الذين كانوا فى الحانة ضاحكين وشعر آه كيو بسرور أكثر ، ولكى يرضى أولئك الذين عبروا عن استحسانهم قرصها أشد من قبل ، قبل أن يدعها تذهب .

وخلال هذا اللقاء كان قد نسى وانغ ومقلد الشيطان الاجنبى ، وكأنه قد أخذ الثأر لكل الحظ التعيس الذى لقيه اليوم . ويا للعجب ! لقد شعر بارتخاء أكثر مما شعر به بعد الضرب ، كما شعر بأنه خفيف الوزن وهائم فى الخيال ، فكأنه مستعد لأن يسبح فى الهواء .

وانطاق صوت الراهبة الصغيرة من بعيد محتنقا بالعبرة : "آه كيو ! ليتك تموت بلا ولد ."

وانفجر آه كيو بضحكة صاخبة .

وانفجر الرجال الذين كانوا فى الحانة ضاحكين ، وقد خف رضاهم قليلا .

الفصل الرابع

مأساة الحب

يقولون ان بعض المنتصرين لا يلذ لهم الانتصار ما لم يكن خصومهم أشداء كالنمور أو النسور : فاذا كان غرماؤهم هيابين كالغنم او الدجاج يجدون نصرهم فارغا . وهناك طائفة اخرى من المنتصرين يدركون بعد أن يذبح عدوهم أمامهم أو يستسلم ، أو يرتعش فى مذلة تامة أنهم الآن قد أصبحوا بلا أعداء ، أو خصوم ، أو أصدقاء — وليس لهم غير أنفسهم سامين منفردين منعزلين ، مهملين ، فيجدون نصرهم مأساة . غير أن بطلنا ليس متزمتا على هذا النحو . فقد كان دائما متهللا . وقد يؤخذ ذلك برهانا على الاخلاق

الصينية المتفوقة على سائر العالم .

انظر الى آه كيو خفيفا تياها وكأنه يوشك أن يطير .

وعلى كل حال ليس هذا النصر دون نتائج غريبة : ذلك لأنه بدا لفترة من الزمن كأنه يطير ، ثم اندفع الى معبد الاله الحارس حيث سيشخر طبعا ، عندما ينطرح على فراشه . ولكنه فى هذا المساء وجد من العسير جدا أن يغمض عينيه ، لأنه شعر بشىء ما فى ابهامه وسبابته اللتين بدتا املس مما هما فى العادة . ومن المستحيل ان يقال ان شيئا ناعما ورقيقا على وجه الراهبة الصغيرة قد التصق بأصبعيه ، أو ان أصبعيه قد نعما بحك خدها .

" آه كيو ليتك تموت بلا ولد . "

ترددت هذه الكلمات فى أذن آه كيو مرة أخرى وفكر : " انها حقيقة ! سأتخذ زوجة لأن الرجل اذا مات بلا ولد فما من أحد يضحى بطاس من الرز على روحه ... يجدر بى أن تكون لى زوجة . " وكما يقول المثل : " هناك ثلاثة أشكال للسلوك غير البنوى ، أحطها أن لا يكون لك خلف . " واحدى مآسى الحياة " أن الارواح التى بلا خلف تذهب جائعة " . وهكذا فان رأيه متفق تماما مع تعاليم القديسين والحكماء . ومما يرثى له حقا أنه قد فقد صوابه فيما بعد . لا محالة فى ذلك .

فكر : " مرأة ، مرأة ! ... "

" ... الراهب يخمش ... مرأة ، مرأة ! ... مرأة ! "

فكر ثانية .

ونحن لا نعرف أبدا متى نام آه كيو آخر الأمر ذلك المساء

ولعله بعد ذلك ، كان يجد أصبعيه على الدوام ناعمنين رقيقتين وظل ثملا بهذا الشعور اللذيذ لمدة طويلة وما انفك يفكر :

" مرأة . . . "

ومن هنا نرى أن المرأة خطر على البشرية .

فأغلب الرجال الصينيين فى وسعهم أن يكونوا قديسين وحكماء لو لا الحقيقة المؤلمة ، وهى أن النساء كن يغرينهم . لقد دمرت دا جى أسرة شانغ الملكية ، ودمرت باو سو أسرة تشو الملكية ، أما أسرة تشن الملكية فبالرغم من عدم وجود دليل تاريخى على ذلك فاننا لا نخطئ كثيرا اذا زعمنا أنها قد سقطت بسبب بعض النساء . وحقيقة واقعية ان دياو تشان هى التى سببت موت دونغ تشوه * .

وقد كان آه كيو أيضا رجلا ذا خلق متين فى البداية . ورغم أننا لا نعرف هل كان مسترشدا بهدى معلم عظيم ؟ ولكننا نعرف أنه كان على الدوام يظهر أشد تدقيقا فى مراعاة " الفصل الدقيق بين الجنسين " ، وكان على حق فى استنكاره للضالين من أمثال الراهبة الصغيرة ، ومقلد الشيطان الأجنبى . وكان يرى " أن لجميع الراهبات علاقات سرية مع الرهبان . وحين تسير امرأة فى الشارع وحدها ، فلا بد من أنها تريد اغواء رجل سيئ . وحين يتحدث

---

* دا جى من القرن الثانى عشر قبل الميلاد كانت محظية آخر ملوك اسرة شانغ . وباو سو من القرن الثامن قبل الميلاد كانت خليلة آخر ملوك أسرة تشو الغربية . وكانت دياو تشان جارية دونغ تشوه وهو وزير عظيم الشأن فى القرن الثالث بعد الميلاد .

رجل مع امرأة فلا بد من أنهما يدبران خلوة . " ولاصلاح مثل هؤلاء كان يحملق بغيظ ، ويلقى الملاحظات الصارمة ، واذا كان المكان مهجورا يلقى حجرا صغيرا من الخلف .

فمن كان فى وسعه أن يتنبأ بأنه — وقد شارف على الثلاثين وهى السن التى يجب ان " يقف فيها الرجل ثابتا " — يجن جنونا كهذا على راهبة صغيرة ؟ ان مثل هذا الطيش حسب الشرائع القديمة أكثر الأشياء مجلبة للتقريع ، وهكذا فان النساء مخلوقات كريهات بلا ريب . فلو لم يكن وجه الراهبة الصغيرة رقيقا ناعما لما فتن آه كيو بها ، او لما حدث ذلك لو كان وجه الراهبة الصغيرة مغطى بالحجاب . وقبل خمس أو ست سنوات حين كان يشاهد اوبرا فى الهواء الطلق قرص ساق امرأة من المشاهدات ولكن لم يتمالكه شعور بالطيش بعد ذلك لأنها كانت مفصولة عنها بقماش سروالها . ولم يكن لتلك الراهبة الصغيرة ما يغطى وجهها . وذلك على أية حال برهان آخر على فظاعة المنحرفين .

" مرأة . . . " فكر آه كيو .

وترصد ترصدا دقيقا اولئك النساء اللائى يعتقد بأنهن " يردن اغواء الرجال السيئين " ، بيد أنهن لم يبتسمن له . وأصغى بعناية الى اولئك النساء اللواتى يتحدثن اليه ، ولكن أية واحدة منهن لم تذكر شيئا يتعلق بلقاء سرى . آه ! ذلك قول آخر على شناعة النساء ، انهن جميعا يتظاهرن بحشمة كاذبة .

وذات يوم حين كان آه كيو يجرش الرز فى بيت السيد تشاو جلس فى المطبخ بعد العشاء ليدخن غليونا . ولو كان فى بيت آخر

غير هذا البيت لكان فى وسعه أن يعود الى البيت بعد العشاء . غير أنهم قد تعشوا مبكرا فى بيت تشاو . وجريا على العادة ينبغى أن لا يوقدوا المصباح ، وأن يأووا الى الفراش بعد الطعام . غير أن هناك استثناءات من هذه العادة تحدث بين حين وآخر ، فقد سمحوا لابن السيد تشاو قبل أن يجتاز امتحان المحافظة بأن يوقد مصباحا ليدرس مقالات الامتحان ، وحين كان آه كيو يأتى بين حين وآخر ليؤدى عملا كانوا يسمحون له باشعال مصباح لتقشير الرز . وبسبب هذا الاستثناء الأخير من العادة كان آه كيو يجلس فى المطبخ يدخن غليونه قبل أن يستأنف عمله .

وحين فرغت "آماه وو" الخادمة الوحيدة فى بيت تشاو من غسل الصحون جلست هى الأخرى على مسطبة طويلة وطفقت تتجاذب أطراف الحديث مع آه كيو .

" لم تأكل سيدتنا شيئا مدة يومين اثنين ، لأن السيد يريد أن يتخذ له محظية . "

فكر آه كيو : " مرأة . . . آماه وو . . . هذه الأرملة الصغيرة . "

" وسيدتنا الصغيرة ستضع طفلا فى الشهر الثامن . . . "

وفكر آه كيو : " مرأة . . . "

ونهض تاركا غليونه .

بينما كانت آماه وو ماضية فى حديثها : " وسيدتنا الصغيرة . . . "

وفجأة اندفع آه كيو وألقى نفسه على قدميها ، وقال : " نامى معى ! "

ومرت لحظة صمت مطبق .

"وى ! وى ! " وصعقت آماه وو ، ثم طفقت ترتجف فجأة ، واندفعت الى الخارج صارخة ، وفى الحال ارتفع نشيجها .

وكان آه كيو جاثيا على ركبتيه ازاء الحائط مصعوقا ايضا . وأمسك بالمسطبة الفارغة بكلتا يديه ، ونهض بتثاقل ، وقد أدرك بشكل غامض أن شيئا شاذا قد وقع . وفى الحق أنه كان فى ذلك الحين بحالة عصبية غريبة . وحشر غليونه فى حزامه باضطراب ، وقرر أن يعود الى جرش الرز . ولكن . . . طاب ! وهبطت ضربة قوية على رأسه ، وأدار رأسه فرأى مرشح المحافظة الناجح يقف أمامه شاهرا قضيب بامبو كبير .

"كيف تجسر ؟ . . . أنت . . . "

وهوى قضيب البامبو على كتفيه ، وحين وضع يديه ليقى رأسه ، نزلت الضربة على عقد اصابعه مسببة له ألما كبيرا . وحين أفلت من باب المطبخ بدا كأن ظهره قد تلقى ضربة ايضا .

"يا بيضة السلحفاة ! " صاح المرشح الناجح شاتما اياه من الخلف بلغة صينية رسمية .

وفر آه كيو الى مكان التقشير حيث وقف وحيدا ، وهو ما يزال يحس بألم فى اصابعه ، وما تزال فى باله " بيضة السلحفاة " لأنها عبارة لم يستعملها قرويو ويتشوانغ قط ، بل لا يستعملها غير الاغنياء الذين رأوا شيئا من الحياة الرسمية . وأرعبه ذلك ، وترك فى عقله أثرا عميقا وخاصا . غير أن كل تفكير حول " المرأة . . . " قد تلاشى الآن . وبعد هذا الشتم والضرب بدا كأنه قد اقتنع بشىء ، فبدأ يقشر الرز منشرح الصدر تماما ، وبعد أن قشر زمنا شعر بالحر ،

وتوقف ليخلع قميصه .

وبينما كان يخلع قميصه سمع هديرا فى الخارج ولما كان آه كيو يحب دائما أن يشارك فى أى أمر مثير يقع خرج ليبحث عن الصوت . وتتبعه حتى الفناء الداخلى للسيد تشاو . وكان فى وسعه رغم الظلام أن يرى كثيرا من الناس هناك ، وأن يرى جميع افراد عائلة تشاو ومن بينهم السيدة التى لم تأكل مدة يومين اثنين . وبالاضافة الى ذلك كانت هناك جارتهم السيدة تسو وقريباهم تشاو باى يان ، وتشاو سى تشن .

وكانت السيدة الصغيرة تخرج آماه وو من مأوى الخدم ، وهى تقول :

" اخرجى من غرفتك . . . لا تفكرى طويلا . "

فقالت السيدة تسو الواقفة جانبا : " كل امرئ يعرف أنك امرأة صالحة ، فينبغى أن لا تفكرى بالانتحار . "

وكانت آماه وو تولول ، وتدمدم بشيء غير مسموع .

وفكر آه كيو : " شيء ممتع ! أية مصيبة يمكن أن تحل بهذه الأرملة الصغيرة ؟ " وعندما اراد أن يكتشف ذلك اقترب من تشاو سى تشن وفجأة أبصر الابن الأكبر للسيد تشاو يندفع نحوه ، والأكثر من ذلك أنه كان يحمل فى يده قضيب البامبو الكبير . وقد ذكره منظر هذا القضيب الكبير بأنه قد ضرب به ، وأدرك أن له ، كما يظهر ، علاقة بهذا المنظر المثير . واستدار على عقبيه ، وهرول مؤملا أن يهرب الى مكان التقشير دون أن يدرك أن قضيب البامبو يقطع عليه تقهقره ، وهنا استدار وركض فى الاتجاه المعاكس خارجا

من الباب الخلفي دون أن يحدث جلبة . وبعد وقت قصير عاد الى معبد الاله الحارس .

وبعد أن جلس برهة ، بدأ جلده يقشعر ، وأحس بالبرد لأن الليالى ما زالت باردة جدا رغم حاول الربيع ولا تلائم الظهور العارية . وتذكر أنه ترك قميصه فى بيت تشاو ، ولكنه خاف أن يذهب ليأخذه ، فقد يذوق طعم قضيب البامبو من المرشح الناجح مرة أخرى .

ثم جاء رسول الحاكم وقال له : " لعنة عليك يا آه كيو . كيف تتجرأ على مغازلة خادم عائلة تشاو ، أيها المتمرد ! لقد ضيعت على نومى . . . عليك اللعنة . "

وطبيعى أن آه كيو لم يكن له ما يقوله امام هذا السيل من السباب . وفى آخر الأمر ، ولما كان الوقت ليلا فقد كان على آه كيو أن يدفع ضعفا ، ويعطى للرسول أربعمائة درهم . وصادف أنه لا يملك مالا فوضع قبعته الصوفية ضمانا ، ووافق على أن يلتزم بالبنود الخمسة الآتية :

١ — أن يحمل آه كيو فى الصباح التالى الى عائلة تشاو شمعتين حمراوين تزنان " جين " واحدا ، وحزمة من أعواد البخور تكفيرا عن سيئاته .

٢ — أن يدفع آه كيو أجرة للقسوس الداويين الذين دعتهم عائلة تشاو لطرد الارواح الشريرة .

٣ — أن لا يضع قدما فى بيت تشاو منذ الآن .

٤ — أن يتحمل آه كيو المسؤولية اذا وقع شىء منحوس لآماه وو .

٥ ـ أن لا يعود لطلب أجوره أو قميصه .

وطبيعى أن آه كيو وافق على كل شىء ، ولكنه لسوء حظه لم يكن ليملك المال نقدا . ومن حسن الحظ أن الربيع قد حل ، لهذا فمن الممكن أن يعيش دون لحافه المبطن الذى رهنه بألفى درهم ليستجيب للبنود المقررة . وبعد أن ركع مطيعا عارى الظهر كان ما يزال يملك بعض النقود غير أنه بدلا من أن يفك رهان قبعته من الرسول صرفها على الخمرة جميعا .

والواقع أن عائلة تشاو لم تشعل البخور ولا الشمعتين لأن هذه يمكن أن تستعمل حين تسجد السيدة لبوذا ، وهكذا وضعت جانبا لتستعمل لهذا الغرض . وجعل معظم القميص قماطا للطفل الذى وضعته السيدة الصغيرة فى الشهر الثامن ، بينما صنعت آماه وو البقية البالية نعلين للحذاء .

الفصل الخامس

مشكلة الرزق

بعد أن ركع آه كيو ليستجيب لبنود عائلة تشاو رجع كالعادة الى معبد الاله الحارس . وكانت الشمس قد غربت ، وبدأ يحس بأن هناك شيئا غير مألوف . وأفضى به التفكير الدقيق الى الاستنتاج بأن ذلك قد يرجع لعرى ظهره . وتذكر أنه ما يزال يمتلك سترة بالية فلبسها واستلقى ، وحين فتح عينيه ثانية كانت الشمس متلألئة على

السور الغربي . وجلس قائلا : " يا للعنة على . . . "

وبعد أن نهض تجول فى الشوارع كعادته وأخذ يشعر بأن فى الأمر شيئا غير مألوف ، رغم أن ذلك لا يمكن أن يقرن بالمضايقة الجسمانية لظهر عار . والظاهر أن جميع النساء فى ويتشوانغ ابتداء من هذا اليوم اصبحن يخجلن من آه كيو فكن اذا رأينه مقبلا يهرعن لائذات فى البيوت . وفى الحق حتى السيدة تسو التى شارفت على الخمسين كانت تتراجع مضطربة مع الأخريات منادية على ابنتها ذات الأحد عشر ربيعا لتدخل الى البيت . وقد اذهل ذلك آه كيو باعتباره مخاوفا غريبا جدا وفكر : " عاهرات ! لقد أصبحن فجأة خفرات مثل الاوانس . . . "

وبعد عدة أيام قوى احساسه بأن فى الامر شيئا غريبا فأولا رفض صاحب الحانة ان يعطيه شيئا على الحساب ، وثانيا أبدى الرجل العجوز المسؤول عن معبد الاله الحارس بعض الملاحظات العابرة وكأنه يطلب من آه كيو أن يترك المعبد ، وثالثا ، لم يأت أحد لاستئجاره منذ أيام كثيرة — لا يستطيع أن يتذكر عددها بالضبط . وكان فى ميسوره أن يتحمل رفض صاحب الحانة اعطاءه الخمر على الحساب ، واذا ألح الرجل العجوز على أن يترك المعبد ففى ميسوره أن يتجاهل شكواه ، ولكن حين لا يأتى أحد لاستئجاره فسيظل جائعا ، وتلك فى الحقيقة حالة ملعونة حين يبتلى بها .

وعندما اصبح آه كيو لا يتحمل ذلك ذهب الى بيوت مستخدميه القدماء ليتبين حقيقة الأمر — فبيت السيد تشاو وحده لا يجوز أن يتخطاه . غير أنه لقى استقبالا غريبا جدا فى تلك البيوت . كان الرجال

وحدهم هم الذين يخرجون له فيلوحون بأيديهم مستائين جدا ، ويشيرون له بالانصراف وكأنه سائل قائلين :

" ليس هناك شيء . لا شيء على الاطلاق ! انصرف ! "

" ووجد آه كيو ذلك امعانا فى الغرابة أكثر فأكثر . وفكر : " هؤلاء الناس كانوا فى الماضى بحاجة الى مساعدتى دائما . فلا يمكن فجأة أن لا يكون عندهم شيء ينبغى أن يعمل . ذلك أمر غريب . " وبعد أن قام باستقصاء دقيق اكتشف أنهم يدعون " د " حين تكون عندهم أشغال . و" د " هذا شاب نحيف فقير مدقع ، أحط فى نظر آه كيو من وانغ ، فكيف يتصور أن هذا الفتى الحقير استطاع ان يسرق رزقه منه ! وهكذا حنق آه كيو هذه المرة أشد مما هو فى العادة ، وحين كان يسير فى طريقه مغتاظا رفع ذراعه فجأة وغنى : " سأطعنك بصولجان من حديد . . . " *

والتقى بـ " د " بعد بضعة أيام أمام منزل السيد تشيان . " وحين يلتقى عدوان تقدح عيونهما نارا " ، وعندما أقبل آه كيو نحوه وقف " د " ساكنا .

" جحش بليد ! " تفوه آه كيو وهو يتنزى غيظا ، وفمه يطفح زبدا .

" أنا حشرة ! . . . هل ينفع ذلك ؟ . . . " سأل " د " . ومثل هذا التواضع لا يزيد آه كيو الا غضبا ، ولكنه لما لم

---

* هذا اقتباس من « معركة التنين والنمر » وهى اوبرا شعبية فى شاوشينغ .

يكن فى يده صولجان من حديد فكل ما كان فى ميسوره أن يفعله هو أن يمد يدا ليمسك بضفيرة " د " . وحمى " د " ضفيرته بيد ، وحاول بالأخرى أن يمسك بضفيرة آه كيو الذى استعمل حينئذ يده الأخرى ايضا ليحمى ضفيرته . وفى الماضى كان آه كيو لا يعتبر " د " مستحقا لأن يحمل محمل جد . ولكنه لما كان هو نفسه قد تضور جوعا فى المدة الأخيرة ، فقد اصبح نحيفا ضعيفا كخصمه ، لهذا فقد مثلا مشهد عدوين متساويين فى القوة . أربعة ايد تمسك برأسين ، وكلا الرجلين قد انحنيا من الخصر وقد ألقيا ظلا أزرق محدودبا مثل قوس قزح على حائط عائلة تشيان الابيض لنصف ساعة من الزمن .

صاح بعض المشاهدين ولعله كان يحاول صلحا : "كفاية ! كفاية ! "

وصاح آخرون : " طيب ! طيب . " ولكن دون أن يعرف أحد أ صلحا أرادوا ، أم ثناء ، أم تحريضا لهما على جهود أكثر .

وأعار المحاربان آذانا صماء للجميع . وكان اذا تقدم آه كيو ثلاث خطوات تراجع " د " ثلاث خطوات كيما يستطيعان الوقوف ، واذا تقدم " د " ثلاث خطوات تراجع آه كيو ثلاث خطوات كيما يستطيعان الوقوف مرة أخرى . وبعد زهاء نصف ساعة — وكان فى ويتشوانغ قليل من الساعات التى تدق ، لهذا فمن الصعب أن نحدد الوقت ، فقد يكون عشرين دقيقة — ارتفع البخار من رأسيهما وتصبب العرق على خدودهما . وترك آه كيو يديه تسقطان ، وفى اللحظة ذاتها سقطت يدا " د " أيضا . وانتصبا فى وقت واحد ،

وسارا مبتعدين فى وقت واحد شاقين طريقيهما بين الجمع .

والتفت آه كيو قائلا : " ستسمع منى ، اللعنة عليك ! . . . "

وكذلك التفت " د " اليه وقال : " ستسمع منى أيضا ، اللعنة عليك ! "

والظاهر أن هذا النضال الملحمى لم ينته الى نصر ولا الى هزيمة ، ولا يعرف احد أ أرضى المتفرجين أم لم يرضهم لأن أى واحد منهم لم يفصح عن رأيه . ولكن لم يأت احد من الناس لاستئجار آه كيو أيضا .

وذات يوم دافئ حين بدت النسمة الفواحة كأنها تنشر طعم الصيف ، صار آه كيو يشعر بالبرد شعورا واقعيا ، بيد أنه يستطيع تحمل ذلك – ولكن اعظم همومه هو معدته الخالية . وقد اختفى لحافه القطنى ، وقبعته الصوفية ، والقميص منذ زمن طويل ، وبعد ذلك باع سترته المبطنة . ولم يبق له غير سرواله ، وهذا بالطبع لا يمكن خلعه . وكانت له سترة بالية ، ذلك شىء صحيح ، ولكنها كانت لا تساوى أى ثمن بالتأكيد اذا لم يعطها لصنع نعال للأحذية . وكان يأمل منذ زمن بعيد فى أن يعثر على مال فى الطريق ، ولكنه لم يفلح فى ذلك بتاتا ، وفكر فى أن يكتشف مالا فجأة فى غرفته المتهدمة ، ففتش بصورة جنونية فيما حوله ، ولكن الغرفة كانت فارغة تماما . . . تماما . وهنا عزم على أن يخرج للسعى وراء قوت .

وحين كان يسير فى الطريق " سعيا وراء القوت " رأى الحانة المألوفة ، والخبز المألوف ، ولكنه مر بهما دون أن يتوقف ثانية واحدة ، ودون أن يتشهاهما . فهو لا يبحث عنهما ، بالرغم من أن ما يبحث

عنه بالضبط لا يعرفه هو نفسه .

وويتشوانغ ليست مكانا كبيرا ، وسرعان ما تركها خلفه . وكانت معظم البقاع خارج القرية تتألف من حقول الرز التى تمتد بخضرتها امتداد البصر ، تغطيها سيقان الرز الفتية الرقيقة ، تتخللها هنا وهناك أشياء مدورة سوداء متحركة هم الفلاحون الذين يزرعون الحقول . غير أن آه كيو تجاهل مسرات حياة الريف ، ومضى قدما فى سبيله ، لأنه يعرف بغريزته ان " سعيه وراء القوت " عبر ذلك العمل امر بعيد المنال . وجاء فى نهاية الأمر الى اسوار دير " تهذيب النفس " .

وكان الدير ايضا محاطا بحقول الرز ، وكانت اسواره البيضاء تقف ناصعة فى الخضرة الفتية ، وكان ثمة بستان مزروع بالخضروات داخل السور الطينى المنخفض . وتردد آه كيو لحظة متلفتا حوله . ولما لم يجد أحدا فى مدى بصره ، تساق السور المنخفض زاحفا ماسكا بنبات اللبلاب . وأخذ السور الطينى يتفتت ، فارتعدت فرائص آه كيو خوفا ، ولكنه استطاع أن يقفز الى الداخل بعد أن أمسك بشجرة توت . وكان فى الداخل كمية كبيرة من الخضر ، ولكن ما من أثر للنبيذ الأصفر أو الخبز المصنوع على البخار ، أو أى شىء يؤكل . وكان الى جانب السور الغربى دغل من البامبو فيه كثير من البراعم الفتية ولكنها لسوء الحظ غير مطبوخة . وهناك ايضا شلجم نمت ثماره منذ زمن ، وخردل يوشك ان يتفتح عن نوار ، وكرنب صغير يبدو متحجرا .

وأحس آه كيو بتبرم شبيه بتبرم تلميذ سقط فى الامتحانات ، وكان يسير ببطء نحو باب البستان حين انتفض فرحا فقد رأى أمامه

رقعة لفت ! ولما ركع على ركبتيه وبدأ يقطف ظهر فجأة رأس مدور من وراء الباب ، واختفى فى الحال وما ذاك الا رأس الراهبة الصغيرة . ورغم أن آه كيو يضمر أعظم الازدراء لأناس مثل هؤلاء الراهبات الصغيرات ، بيد أن بعض الأمور " ينبغي أن تلقى اهتماما معينا " فى بعض الأحيان . وعلى عجل اجتث أربع لفتات ، وقطع أوراقها ، وطواها فى سترته . ولكن راهبة عجوزا خرجت اذذاك :

" ليحفظنا بوذا ، يا آه كيو ! ما الذى حملك على ان تسطو على بستاننا لتسرق اللفت ! . . . يا للسخافة . أى عمل أثيم تأتى به ! يا للسخافة ، ليحفظنا بوذا ! . . . "

" متى سطوت على بستانكم ، وسرقت اللفت ؟ " رد آه كيو ونظر اليها وهو يغادر .

قالت الراهبة العجوز وهى تشير الى طيات سترته : " والآن ! . . . أ لم تسرق ؟ "

" هل هذه لك ؟ هل فى وسعك ان تجعليها تجيب عليك ؟ أنت . . . "

وقبل أن يتم جملته ولى الأدبار بأسرع ما يستطيع اذ تبعه كلب أسود سمين شديد المراس . وكان هذا الكلب فى الأصل عند الباب الأمامى ، فكيف وصل الى البستان الخلفى . يا للغرابة ! وطارده الكلب نابحا ، وكاد يعض ساق آه كيو حين سقطت من سترته ثمرة لفت جاءت فى حينها تماما ، وأصابت الكلب دهشة ، وتوقف ثانية وعندها صعد آه كيو شجرة التوت ، وتسلق السور الطينى ، وسقط اللفت وكل شيء خارج الدير ، وترك الكلب الأسود ينبح الى جانب

شجرة التوت ، والراهبة العجوز تقرأ صلواتها .

وخاف آه كيو أن تدع الراهبة العجوز الكلب الأسود يخرج ثانية ، فجمع لفته ، وهرول وهو يلتقط بعض الاحجار الصغيرة فى طريقه . غير أن الكلب الأسود لم يظهر ثانية ، فرمى الاحجار ، وسار وهو يأكل مفكرا فى نفسه : " لا شىء لى هنا ، فالأفضل أن أذهب الى المدينة ... "

وحين انتهى من ثمرة اللفت الثالثة كان قد وطد عزمه على الذهاب الى المدينة .

الفصل السادس

من الانتعاش الى التدهور

لم تر ويتشوانغ آه كيو مرة أخرى الا بعد مهرجان القمر فى تلك السنة . وقد دهش كل الناس اذ سمعوا برجوعه وجعلهم ذلك يفكرون ويتعجبون أين كان طوال هذا الوقت . وقد كان فى المرات السابقة حين يذهب الى المدينة غالبا ما يخبر الناس مسبقا ، وهو مسرور ، ولكن أحدا من الناس لم يفطن الى ذهابه هذه المرة لأنه لم يخبر أحدا بذلك . ولعله أخبر الرجل العجوز المسؤول عن معبد الاله الحارس . ولكن ! حسب العادة الجارية فى ويتشوانغ لا يعتبر الذهاب الى المدينة مهما الا اذا كان الذاهب هو السيد تشاو ، أو السيد تشيان ، أو مرشح المحافظة الناجح . وحتى ذهاب مقلد الشيطان

الأجنبى الى المدينة لا يتحدث الناس عنه ، فكيف بذهاب آه كيو ! وهذا يشرح السبب فى ان الرجل العجوز لم يذع الخبر ، فكانت النتيجة أن ظل القرويون لا يعرفون أى شيء عن هذا الخبر .

ولكن عودة آه كيو هذه المرة تختلف كثيرا عما قبل ، فالصورة التى ظهر بها وحدها كافية لأن تثير الاستغراب ، فهو حين بدا أمام باب حانة النبيذ وعيناه مثقلتان بالنعاس مشى الى المنصة ، وأخرج من حزامه حفنة من الدراهم الفضية والنحاسية وألقاها على المنصة ، وقال : " نقدا ! هات الخمرة . " وكان يرتدى سترة جديدة ، ولما كانت محفظة نقوده ثقيلة متدلية من وسطه فقد شدت حزامه فتقوس . وكان من عادة أهل ويتشوانغ حين يبدو لهم شيء غير اعتيادى من رجل ما أن يعاملوه بطريقة أقرب الى الاحترام منها الى الغطرسة ، والآن ، رغم أنهم يعرفون جيدا بأن هذا هو آه كيو فانه يختلف عن آه كيو ذى المعطف المهلهل . ويقول القدامى : " العالم الذى يغيب ثلاثة أيام يجب أن ينظر اليه بعيون جديدة . " وهكذا أبدى الخادم وصاحب الحانة ، والحاضرون والمارون نوعا من الريبة ممزوجا بالاحترام . وبدأ صاحب الحانة يهز رأسه ، ثم قال :

" مرحبا يا آه كيو . ها قد عدت ! "

" نعم ، عدت . "

" لقد جمعت مالا . . . و . . . أين . . . ؟ "

" ذهبت الى المدينة . "

وفى اليوم التالى انتشر هذا النبأ فى ويتشوانغ كلها . ولما كان الجميع يريدون سماع قصة نجاح آه كيو صاحب النقود الكثيرة

والسترة الجديدة وكان القرويون فى الحانة ومشرب الشاى وتحت اروقة المعبد يتسقطون الأخبار . وكانت النتيجة أن أخذوا يعاملون آه كيو باحترام جديد .

لقد كان آه كيو – حسب أقواله – خادما فى بيت مرشح جديد للمقاطعة . وكل من سمع هذا الجزء من القصة امتلأ رعبا . كان هذا المرشح الناجح للمقاطعة يسمى "باى" ، ولكنه ، لما كان المرشح الوحيد للمقاطعة فى المدينة كلها فلم تكن من حاجة الى استعمال لقبه ، فحينما يتكلم أحد عن مرشح المقاطعة الناجح فالمقصود هو . ولم يكن هذا فى ويتشوانغ وحدها بل فى كل نقطة من دائرة قطرها مائة لى ، وكأن كل امرئ يتصور أن اسمه السيد المرشح الناجح للمقاطعة . وطبيعى أن العمل فى بيت رجل كهذا يستوجب الاحترام . ولكن آه كيو – حسب أقواله – لم يكن راغبا فى أن يمضى فى عمله هناك ، لأن هذا المرشح الناجح "خبيث جدا" . وهذا الجزء من القصة جعل كل من سمعه يتنهد ، ولكنه تنهد فرح ، لأن ذلك يظهر أن آه كيو لم يكن فى الواقع لائقا للعمل فى بيت رجل كهذا ، ومع ذلك فعدم العمل فيه شيء مؤسف .

وكان السبب فى عودة آه كيو – حسب أقواله – يعود كذلك الى أنه لم يكن راضيا عن أهل المدينة ، لأنهم يسمون المقعد الطويل مقعدا مستطيلا ، ويستعملون قطع البصل مع السمك المقلى ، ولأن النساء – وهذا عيب اكتشفه حديثا – لا يمشين ملكا . ومع ذلك فان للمدينة مسائلها اللطيفة أيضا . فمثلا ان الناس فى ويتشوانغ يلعبون جميعا لعبة قطع البامبو الاثنتين والثلاثين ، ومقلد الشيطان الاجنبى

وحده يستطيع أن يلعب لعبة " الماجيانغ " بينما كل الناس فى المدينة حتى أولاد الشارع بارعون فى لعبة " الماجيانغ " . وما عليك الا أن تسلم مقلد الشيطان الاجنبى لأيدى أولئك المحتالين الصغار فيصبح مثل " شيطان صغير أمام ملك الجحيم " . وهذا الجزء من القصة جعل كل من سمعه يحمر حياء .

سأل آه كيو : " هل رأيتم اعداما . . . آه ، ذلك منظر بديع . . . حين يعدمون الثوريين . . . آه . . . ذلك منظر بديع ، منظر بديع . . . " وحين كان يهز رأسه يتطاير بصاقه على وجه تشاو سى تشن الذى كان يقابله مباشرة . وهذا الجزء من القصة جعل كل من سمعه يرتجف . ثم نظر فيما حوله ورفع يده اليمنى فجأة ، وألقاها على عنق وانغ الذى كان يصغى ذاهلا ، ورأسه ممتد الى أمام .

" اقتل ! " صاح آه كيو .

وانتفض وانغ ، وسحب رأسه بسرعة البرق ، أو بسرعة الشرارة المنطلقة من حجر صوان ، بينما ارتجف الحاضرون فى خوف ولذة . وبعد ذلك ظل وانغ يهيم شارد الفكر اياما لا يجرؤ على الدنو من آه كيو . وكذلك كان شأن الآخرين .

ورغم أنه ليس فى وسعنا القول بأن منزلة آه كيو فى عيون أهالى ويتشوانغ فى ذلك الوقت أرفع من منزلة السيد تشاو ، ففى وسعنا على الأقل أن نجزم دون خطر الوقوع فى خطأ أنها كانت تدانيها تقريبا .

ولم يمض زمن طويل حتى ذاعت شهرة آه كيو بين أجنحة النساء فى ويتشوانغ أيضا . ورغم أن عائلة تشيان وعائلة تشاو هما العائلتان الوجيهتان فى ويتشوانغ من ذوات الترف ، وأن تسعة أعشار

البقية الباقية فقراء فما زالت أجنحة النساء هى أجنحة النساء ، وان ذيوع شهرة آه كيو هو شىء من المعجزات . وحين كانت النساء يجتمعن كانت إحداهن تقول للأخرى : " اشترت السيدة تسو ثوبا حريريا أزرق من آه كيو . ورغم أنه قديم ، فانه لم يكلف غير تسعين فلسا . وان آم تشاو باى يان (وهذه يجب ان تدقق لأن بعضهم قال انها أم تشاو سى تشن) اشترت بدلة طفل من الخام القرمزى الاجنبى تكاد تكون جديدة ولم تصرف غير ثلاث مئة درهم بخصم ٨٪ . "

وهنا أصبحت النساء اللواتى ليس لهن ثوب حريرى ، واللواتى يحتجن الى خام أجنبى أشد تلهفا لرؤية آه كيو ليشترين منه . ولم يعدن يتجنبنه أبدا ، بل كن فى بعض الاحيان يتبعنه حين يمر بهن ، ويناديه ليقف .

وكن يسألن : "آه كيو ! هل بقيت عندك ثياب حريرية أخرى ؟ لا ؟ ونحن نريد خاما أجنبيا أيضا . هل عندك شىء منه ؟ "

وانتشرت هذه الأنباء فيما بعد من البيوت الفقيرة الى البيوت الغنية . لأن السيدة تسو كانت فرحة جدا بثوبها الحريرى فأخذته الى السيدة تشاو لتثير فى نفسها الاعجاب به ، وأخبرت السيدة تشاو السيد تشاو مطرية اياه اطراء جميلا .

وناقش السيد تشاو الأمر فى ذلك المساء عند العشاء مع ابنه المرشح الناجح للمحافظة ، مرتئيا أن ثمة شيئا غريبا فى آه كيو لا محالة ، وعليهم أن يكونوا أكثر عناية بأبوابهم ونوافذهم . رغم أنهما لم يعرفا أبقيت عند آه كيو أشياء أم لا ظنا أنه ما زال يملك أشياء طيبة ؛

وصادف أن كانت السيدة تشاو بحاجة الى رداء من فرو رخيص جيد . ولذلك تقرر بعد اجتماع عائلى أن يطلب الى السيدة تسو أن تحضر لهم آه كيو فى الحال ، ومن أجل هذا حصل استثناء ثالث على القاعدة ، فقد اعطى اذن خاص بأن يوقد مصباح فى ذلك المساء .

واحترقت كمية كبيرة من الزيت ، وما من أثر لآه كيو . وكانت عائلة تشاو كلها تتثاءب فى نفاد صبر ، بعضها قد استهجن أساليب آه كيو ، وبعضها الآخر أنحى باللائمة على السيدة تسو فى غضب لأنها لم تجد أكثر فى البحث عنه . وكانت السيدة تشاو تخشى أن لا يجرؤ آه كيو على المجىء بسبب البنود المتفق عليها فى ذلك الربيع ، غير أن السيد تشاو لم يظن ذلك شيئا يقاق اذ قال : " فى هذه المرة أنا أرسلت فى طلبه . " وبالتأكيد برهن السيد تشاو على أنه رجل نافذ البصيرة ، لأن آه كيو قد وصل مع السيدة تسو فى آخر الأمر .

قالت السيدة تسو لاهثة وهى تدخل : " ظل يقول لم يبق لديه شىء . حين اخبرته بأن يأتى ويقول لكم ذلك بنفسه ظل يتكلم . . . اخبرته . . . "

" سيدى ! " قال آه كيو محاولا أن يبتسم ، وتوقف تحت رواق البيت .

وأقبل السيد تشاو نحوه يتفحصه بعناية وقال : " أسمع بأنك قد اصبت غنى يا آه كيو . حسنا جدا . . . يقولون ان لديك أشياء قديمة . . . اجلبها كلها لنا لنلقى عليها نظرة . . . ذلك لأننى بالمصادفة أحتاج . . . "

" قلت للسيدة تسو . . . لم يبق شيء . "

ولم يستطع السيد تشاو أن يكتم خيبته فقال : " لم يبق شيء ؟ كيف يمكن أن تنفد بهذه السرعة ؟ "

" انها تعود الى صديق ، وهي ليست كثيرة منذ البداية . واشترى الناس بعض . . . "

" لا بد من أن شيئا قد بقي . "

" لم يبق الآن غير ستار باب . "

قالت السيدة تشاو مسرعة : " اجلب ستار الباب لنا لنراه . "

وقال السيد تشاو دون حماس كثير : " حسنا ، لا بأس في أن تجلبه في الغد . وحين يكون لديك شيء في المستقبل يا آه كيو ، فاجلبه هنا أولا . "

" نحن بالتأكيد لا ندفع أقل من الآخرين . " قال هذا المرشح الناجح للمحافظة . وألقت زوجته نظرة سريعة على آه كيو لتتبين أثر ذلك .

وقالت السيدة تشاو : " أنا بحاجة الى رداء من الفراء . "

ورغم أن آه كيو قد وافق على ذلك ، فقد خرج يمشي بتوان وفتور حتى لم يعرفوا أ هو قد اهتم بتعليماتهم أم لا . وقد احزن ذلك السيد تشاو كثيرا ، وأغاظه وأقلقه حتى كف عن التثاؤب وكان المرشح الناجح للمحافظة كذلك بعيدا عن الرضى من موقف آه كيو وقال : " ينبغي ان يحترس الناس من ' بيضة السلحفاة ' كهذا . لعل من الافضل ان نوعز لرسول الحاكم بأن لا يسمح له بالعيش في ويتشوانغ . "

غير ان السيد تشاو لم يوافق قائلا : " قد يكون في نفسه حقد

علينا ، ولعل القضية فى أمر كهذا هى قضية أن النسر لا يسلب عشه الخاص . " ولا حاجة لأن تقلق قريته ، بل يكفى ان تشدد الحراسة فى الليل قليلا . وقد تأثر المرشح الناجح كثيرا بهذا الأمر الابوى ، وسحب كلامه فى الحال بشأن ابعاد آه كيو محذرا السيدة تسو من ان تكرر ما قاله مهما يكن .

ومع ذلك فان السيدة تسو حين أخذت ثوبها الأزرق ليصبغ باللون الاسود فى اليوم التالى كررت هذه التلميحات عن آه كيو رغم أنها فى واقع الأمر لم تذكر ما قاله المرشح الناجح عن طرد آه كيو . ولكن ! بالرغم من هذا تضرر آه كيو أبلغ الضرر من ذلك . فأولا ظهر رسول الحاكم على بابه ، وأخذ ستار الباب . ومع أن آه كيو قد اعترض على ذلك بأن السيدة تشاو تريد ان تراه ، فلم يعده الرسول اليه ، بل حتى انه طالب برشوة شهرية ليكتم السر . وثانيا ان احترام الناس له قد تغير فجأة ، ورغم انهم ما زالوا لا يجرؤون عليه فقد تحاشوه قدر الامكان . ومع أن ذلك يختلف عن خوفهم السابق من كلمته : " اقتل ! " فانه يشبه تمام الشبه موقف القدماء من الارواح : الابتعاد بمسافة محترمة .

غير ان هناك بعض المتسكعين الذين أرادوا النفاذ الى أعماق الموضوع ذهبوا لاستجواب آه كيو بعناية . ولم يحاول آه كيو ان يخفى شيئا فقص عليهم تجاربه فخورا . وعرفوا أنه كان لصا صغيرا ليس غير ، فهو لم يكن قادرا على تسلق الجدران ، ولا قادرا على التسلل من خلال الفتحات ، بل كان يقف ببساطة خارج الفتحة ، ويتسلم الأشياء المسروقة من رئيسه .

وذات ليلة تسلم حزمة ، وذهب رئيسه ثانية ، وهناك سمع جلبة شديدة فى الداخل فولى الادبار بأسرع ما يستطيع . وفر من المدينة فى نفس الليلة وعاد الى ويتشوانغ ، ولم يجرؤ بعد ذلك على العودة الى ذلك العمل . وقد كانت القصة ، على أية حال ، أكثر ضررا على آه كيو ذلك لأن القروييين كانوا يبتعدون عنه مسافة محترمة لأنهم لم يريدوا أن يتعرضوا لبغضائه ، فمن كان فى وسعه ان يخمن أنه ليس الا لصا لا يجرؤ على السرقة ثانية ؟ اما الآن فقد عرفوا بأنه أقل من أن يثير خوفا .

الفصل السابع

الثورة

فى اليوم الرابع عشر من الشهر التاسع من العام الثالث من حكم الامبراطور شيوان تونغ * ، اليوم الذى باع فيه محفظته الى تشاو باى يان ، بعد الضربة الرابعة فى منتصف الليل جاء الى مرسى عائلة تشاو قارب كبير ذو سقيفة كبيرة سوداء . وقد سار هذا القارب فى جنح الظلام بينما كان القرويون نياما ، فلم يعرفوا شيئا عنه ، ولكنه غادر حوالى الفجر حين رآه عدد كبير من الناس . وقد كشف التحقيق أن هذا القارب عائد فى الواقع الى المرشح الناجح فى المقاطعة !

وقد اثار هذا القارب قلقا شديدا فى ويتشوانغ وقبل أن ينتصف

* فى هذا اليوم احتل الجيش الثورى شاوشينغ اثناء ثورة ١٩١١ .

النهار كانت قلوب جميع القرويين تدق بشدة . ولزمت عائلة تشاو الصمت المطبق عن مهمة القارب . ولكن حسبما جاء فى القيل والقال فى مشرب الشاى والحانة أن الثوريين موشكون على أن يدخلوا المدينة ، وان المرشح الناجح للمقاطعة فر الى الريف ليجد ملجأ فيه . والسيدة تسو وحدها تظن خلاف هذا الرأى قائلة ان المرشح الناجح للمقاطعة لم يرد غير ايداع بعض الصناديق البالية فى ويتشوانغ ، غير ان السيد تشاو اعادها . والواقع أن المرشح الناجح للمقاطعة ، والمرشح الناجح للمحافظة من عائلة تشاو لم يكونا على علاقة طيبة فيما بينهما . لهذا فمما لا يتقبله المنطق كثيرا توقع تصافيهما عند وقوع البلوى . وفضلا عن ذلك فالأجدر بالسيدة تسو أن تعرف ذلك ما دامت جارة لعائلة تشاو ، ولها فكرة صحيحة عما جرى .

ثم سرت شائعة فحواها ان المرشح الناجح نفسه لم يصل بعد ولكنه بعث برسالة طويلة يتتبع فيها صلة قرابة بعيدة بعائلة تشاو . وقد قرر السيد تشاو بعد امعان التفكير ان ايداع الصناديق قبل كل شيء ، لا يمكن ان يسبب له أذى ، فهى الآن مصفوفة تحت سرير زوجته . اما عن الثوريين فقد قال بعض الناس انهم دخلوا المدينة تلك الليلة فى خوذ ودروع بيضاء — وهى دلالة للحداد على الامبراطور تشونغ تشن * .

---

* تشونغ تشن آخر أباطرة أسرة مينغ الملكية ، حكم من عام ١٦٢٨ الى عام ١٦٤٤ . وفى عهد أسرة تشينغ التى حلت محل أسرة مينغ ، كان الفلاحون الثوار يرفعون دائما شعار " اسقاط تشينغ ليعود مينغ " . وعندما قامت الانتفاضة الثورية فى اواخر عهد تشينغ ما زال بعض الجماهير يعتقد أنها تأخذ ثار أسرة مينغ .

وقد سمع آه كيو بالثوريين منذ زمن طويل وفى هذه السنة رأى الثوريين بأم عينيه تقطع رؤوسهم . ولكنه ما دام قد بدا له أن الثوريين عصاة وأن العصيان يجعل الامور عسيرة عايه فقد كان ينفر منهم دائما ويبتعد عنهم . فمن كان يظن أنهم يستطيعون أن يخيفوا مرشحا ناجحا للمقاطعة معروفا بدائرة قطرها مائة لى الى هذا الحد ؟ وبالنتيجة لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور ببعض " الاندهاش " . ان فزع القرويين كلهم لم يزده الا انشراحا .

وفكر آه كيو : " ان الثورة ليست شيئا سيئا . القضاء عليهم جميعا . . . اللعنة عليهم ! . . . أحب أن أنضم الى الثوريين بنفسى . "

وقد كان آه كيو فى ضنك من العيش فى المدة الأخيرة فكان ، على الأرجح متذمرا قليلا ، أضف الى ذلك أنه قد احتسى عند الظهر قدحين من النبيذ الى معدة خالية . وبالنتيجة سكر بأسرع من ذى قبل ، وحين كان يسير مفكرا فى نفسه شعر ثانية كأنه يسير فى الهواء : وفجأة ، وبطريقة غريبة ، أحس كأن الثوريين هم نفسه ، وان أهالى ويتشوانغ أسرى له . ولما لم يستطع أن يدارى فرحه بنفسه صاح بصوت عال :

" العصيان ! العصيان ! "

ونظر القرويون كلهم اليه برعب . ولم يكن آه كيو قد رأى مثل تلك النظرات التى تثير الاشفاق . انه رآها منعشة مثل شرب ماء مثلج فى منتصف الصيف . فمشى سعيدا أكثر صائحا :

" أجل ! . . . سآخذ ما أريد ! سأحب من أشاء .

" ترالا . . . ترالا !

" وا أسفاه على قتلى أخى تشنغ خطأ بحسامى وأنا سكران ؟

" وا أسفاه على قتلى ؟ : ياه ، ياه ، ياه !

" ترالا ، ترالا ، توم تى توم توم ،

" سأطعنك بصولجان من حديد . "

وكان السيد تشاو وابنه واقفين على باب منزلهما ، ومعهما قريبان وهم يتناقشون فى الثورة . غير أن آه كيو لم يرهم ، ومر يغنى ، ورأسه ملقى الى الخلف " ترالا لا ، توم تى توم ! "

فصاح السيد تشاو فى خوف وبصوت خفيض :

" يا كيو العزيز ! "

" ترالا ! " ترنم آه كيو وهو غير قادر على أن يتصور أن اسمه يمكن أن يقرن بكلمة " العزيز " فلا بد من أنه أخطأ السمع والأمر غير متعلق به مطلقا فمضى يترنم : " ترالا لا توم تى توم ! "

" يا كيو العزيز ! "

" وا أسفاه على قتلى : . . "

" آه كيو ! " ناداه المرشح الناجح باسمه مضطرا .

وهنا توقف آه كيو وسأل وهو يلوى رأسه الى جانب : " كيف ؟ "

" كيو العزيز . . . الآن . " كان السيد تشاو متدلها بهذه الكلمات : " هل اصبحت غنيا الآن ؟ "

" اصبحت غنيا ؟ بالطبع آخذ ما أريد . "

قال تشاو باى يان مرتعبا وكأنه أدرك موقف الثوريين : " آه كيو ، أيها الشيخ . ان أصدقاءك الفقراء من أمثالنا لا يهمهم . . . "

" أصدقاء فقراء ؟ بالتأكيد أنكم أغنى منى ! " قال آه كيو

ومضى فى سبيله :

ووقفوا هناك فى جزع لا يتكلمون ، ثم عاد السيد تشاو وابنه الى البيت ، وفى ذلك المساء تناقشوا فى القضية حتى جاء وقت ايقاد المصابيح . وحين عاد تشاو باى يان الى البيت أخذ المحفظة من خصره وناولها الى زوجته لتخفيها فى قعر الصندوق .

وبدا آه كيو حينا من الزمن كأنه يسير فى الهواء ، ولكنه حين وصل الى معبد الاله الحارس عاد اليه صحوه . وفى ذلك المساء كان الرجل العجوز المسؤول عن المعبد ودودا معه على نحو استثنائى ، وقدم له الشاى . ثم طلب منه آه كيو قطعتين من الكعك البسيط ، وبعد أن أكلهما طلب شمعة مستعملة تزن أربعة " ليانغ" وشمعدانا : أشغل الشمعة ، واستلقى وحده فى غرفته الصغيرة ، وشعر بانتعاش وسعادة يعجز عن وصفهما بينما كان ضوء الشمعة يتوثب ويخفق مثل ضوء مصباح الاحتفال كما بدا خياله يحلق هو الآخر .

" ثورة ؟ سيكون ذلك طريفا ... سيأتى فريق من الثوريين ، كلهم يلبسون الخوذ والدروع البيضاء ، ويمتشقون السيوف ، والصولجانات الحديدية ، والقنابل ، والبنادق الأجنبية ، والسكاكين ذات الحدين والرؤوس الحادة ، والمزاريق ذات الكلاليب ، وسيأتون الى معبد الاله الحارس ، وينادون : 'آه كيو ! تعال معنا !' واذذاك أذهب معهم ...

" ثم يصبح جميع هؤلاء القرويين فى مأزق مضحك ، اذ سيركعون على ركبهم ويتوسلون : 'آه كيو ! أبق على حياتنا .' ولكن من يعير لهم اذنا صاغية ! واول من سيموت هو 'د' والسيد

تشاو ، ثم مرشح المحافظة الناجح ، ومقلد الشيطان الأجنبى . . .
ولكن لعلى أبقى على حياة بعضهم . لقد كان من الممكن ان أبقى
على حياة وانغ . ولكنى الآن لا أريده أيضا . . .

" أشياء . . . سأذهب قدما ، وأفتح الخزائن : سبائك فضية ،
نقودا اجنبية ، ملابس من خام اجنبى . . . واول ما أفعله سأنقل
سرير ' نينغبو ' لزوجة مرشح المحافظة الناجح الى المعبد ، وانقل
كذلك مناضد عائلة تشيان وكراسيها ، او أستعمل فقعل مناضد عائلة
تشاو وكراسيها . واننى لن أرفع اصبعا ، بل أصدر أوامرى الى ' د '
بأن ينقل الأشياء لى ، وان ينقلها بسرعة ، والا فانى أصفعه على وجهه . . .

" وأخت تشاو سى تشن الصغرى قبيحة جدا . وفى مدى سنوات
قلائل قد تستحق ابنة السيدة تسو التفكير . وزوجة مقلد الشيطان
الأجنبى تحب أن تنام مع رجل بلا ضفيرة ، هاه ! لا يمكن ان
تكون امرأة صالحة ! وعلى جفنى زوجة مرشح المحافظة الناجح ندوب . . .
وأنا لم أر آماه وو منذ زمن طويل ، ولا أعرف أين هى — ما أشد أسفى
لأن قدميها كبيرتان جدا . "

وقبل أن ينتهى آه كيو الى نتيجة مرضية كان ثمة شخير .
واحترق مقدار نصف بوصة من الشمعة التى تزن اربعة " ليانغ "
وأضاء ضوؤها الخافق فمه المفتوح .

" هوه ، هوه ! " صاح آه كيو فجأة رافعا رأسه ناظرا حوله
بوحشية : بيد أنه حين رأى الشمعة التى تزن اربعة ليانغ استلقى ثانية
وغفا .

واستيقظ فى الصباح التالى فى وقت متأخر جدا ، وحين خرج

الى الشارع كان كل شيء كما هو فى العادة : وكان ما يزال جائعا ، ولكنه بدا كأنه لم يهتد الى شيء رغم أنه قدح زناد فكره . ثم طرأت على ذهنه فكرة فجأة ، وتهادى فى مشيه حتى وصل دير " تهذيب النفس " اما عن قصد ، أو عن طريق المصادفة .

وكان الدير هادئا كما كان فى الربيع الماضى ، بجدرانه البيضاء ، وبابه الاسود اللامع ، وبعد أن فكر لحظة طرق الباب ، وهناك طفق كلب ينبح من الداخل . فأسرع فى التقاط عدة قطع من طابوقة مكسورة ، ثم مضى وطرق الباب ثانية طرقا أشد ، وظل يطرق حتى ظهرت بقع صغيرة على الباب الأسود وفى النهاية سمع انسانا يقبل ، ويفتح الباب .

وأسرع آه كيو فى تهيئة احجاره ، ووقف وساقاه منفرجتان مستعدا للعراك مع الكلب الاسود . غير ان باب الدير لم يفتح الا قليلا ، ولم يندفع منها كلب أسود . وحين نظر فى الداخل لم يستطع أن يرى غير الراهبة العجوز .

وسألته وهى تنتفض : " لم عدت الى هنا ثانية ؟ "

قال آه كيو بغموض : " هناك ثورة . . . هل تعرفين ؟ "

" ثورة ، ثورة . . . كانت هناك واحدة . " قالت الراهبة العجوز وعيناها محمرتان : " ماذا تحسب أننا سنحصل من ثوراتكم كلها ؟ "

سأل آه كيو فى استغراب : " ماذا ؟ "

" هل عرفت ؟ ! كان الثوريون هنا ! "

" من ؟ " سأل آه كيو باستغراب أشد .

" مرشح المحافظة الناجح ، ومقلد الشيطان الأجنبى : "

وكانت هذه مفاجأة تامة لآه كيو ، فما كان منه الا أن صعق . وحين رأت الراهبة العجوز انه قد فقد ما كان يضمر من عدوان أغلقت الباب بسرعة ، ولما دفع آه كيو الباب مرة اخرى لم يستطع تحريكه ، وحين طرق الباب ثانية ، لم يلق ردا .

فى ذلك الصباح حصل مرشح المحافظة الناجح من عائلة تشاو على الأنباء بسرعة وما ان سمع بأن الثوريين قد دخلوا البلدة فى تلك الليلة حتى طوى ضفيرته على رأسه فى الحال ، وذهب أولا ليزور مقلد الشيطان الأجنبى من عائلة تشيان الذى لم يكن على علاقة طيبة به قط . فهذا وقت يعمل فيه الجميع للاصلاح . وتحدثا حديثا مسرا ، واصبحا فى الحال رفيقين واتفقا على كل شىء ، وقطعا عهدا على نفسيهما بأن يصبحا ثوريين .

وبعد أن أمعنا فى التفكير بعض الوقت تذكرا أن فى دير " تهذيب النفس " لوحة امبراطورية كتب عليها " عاش الامبراطور " وينبغى التخلص منها فى الحال . وهكذا اسرعا فى الذهاب الى الدير ليقوما بأعمالهما الثورية . ولما اوقفتهما الراهبة العجوز ، وتكلمت قليلا اعتبراها من حكومة تشينغ وضرباها على رأسها عدة مرات بالعصا وبجمع أكفهما . وتمالكت الراهبة العجوز على نفسها بعد ذهابهما ، وأجرت فحصا ، فوجدت أن اللوحة الامبراطورية كانت مهشمة قطعا قطعا متناثرة على الأرض . غير أن مبخرة " شيوان ده " * الثمينة

* مباخر برونزية رفيعة الزخرفة صنعت فى عهد شيوان ده (١٤٢٦ - ١٤٣٥ م) من أسرة مينغ الملكية .

الموضوعة امام هيكل " قوان ين " الهة الرحمة قد اختفت .

ولم يعلم آه كيو بذلك الا مؤخرا . وتأسف كثيرا لأنه كان نائما فى ذلك الصباح واستاء من أنهما لم يأتيا ليدعواه . غير أنه قال لنفسه حينذاك : " لعلهما ما زالا لا يعرفان أننى انضممت الى الثوريين . "

الفصل الثامن

محجوز عن الثورة

أصبح أهالى ويتشوانغ أكثر اطمئنانا يوما بعد يوم . لقد عرفوا من الأنباء التى حصلوا عليها أن مجيء الثوريين لم يغير من الأمر كثيرا رغم دخولهم المدينة . فان الحاكم ما زال أعلى موظف ، ولم يتغير الا لقبه ، ونال مرشح المقاطعة الناجح أحد المناصب الرسمية — وأهالى ويتشوانغ لا يستطيعون أن يتذكروا تلك الأسماء بوضوح لتلك المناصب الرسمية ، وظل رئيس العسكر نفس الضابط . والمصدر الوحيد للازعاج هو أن بعض الثوريين السيئين المقلقين للراحة أخذوا يقصون ضفائر الناس فى اليوم التالى لوصولهم . ويقال ان الملاح " السعة جين " من أهل القرية المجاورة قد وقع فى قبضتهم ، ولم يعد منظره وجيها . ومع ذلك فان خطر ذلك ليس كبيرا لأن أهالى ويتشوانغ لا ينزلون الى المدينة الا نادرا منذ البداية ، والذين فكروا فى رحلة الى المدينة غيروا خططهم فى الحال لكى يتفادوا هذا الخطر .

وقد فكر آه كيو فى الذهاب الى المدينة ليتفقد أصدقاءه ، غير أنه أقلع عن هذه الفكرة مستسلما عندما سمع بهذه الأنباء .

ومع ذلك فمن الخطأ أن تقول ان أى اصلاحات لم تجر فى ويتشوانغ . فخلال الأيام القليلة التالية زاد بالتدريج عدد الذين طووا ضفائرهم على رؤوسهم ، وكان مرشح المحافظة الناجح — كما قيل آنفا — أول من فعل ذلك بالطبع ، ثم تبعه تشاو سى تشن ، وتشاو باى يان ، وبعدهم آه كيو . ولو كان الفصل صيفا لما اعتبر غريبا أن يطوى كل الناس ضفائرهم او يعقدوها على رؤوسهم ، ولكن الفصل كان فى أواخر الخريف ولهذا يمكن أن تعتبر مراعاة عادة الصيف فى الخريف من جانب هؤلاء الذين طووا ضفائرهم قرارا بطوليا لا أقل ، وهو بالقياس لأهل ويتشوانغ لا يمكن ان يقال ان ليس له علاقة بالاصلاحات .

وحين كان يقترب تشاو سى تشن وقد تعرت مؤخرة عنقه كان الذين يرونه يقولون : "آه ! لقد أقبل ثورى !"

وحين سمع آه كيو بذلك تأثر تأثرا عظيما . فرغم أنه قد سمع منذ زمن طويل كيف طوى مرشح المحافظة الناجح ضفيرته على رأسه الا أنه لم يحدث أن فعل ذلك مرة . والآن فقط حين رأى تشاو سى تشن يحذو حذوه طرأ فى فكره أن يفعل الشىء نفسه ، وعزم على أن يقلدهما . واستخدم عود أكل من البامبو ليلوى ضفيرته على رأسه ، وبعد أن تردد قليلا استجمع شجاعته أخيرا وخرج .

وحين مشى فى الشارع ، نظر الناس اليه ، ولكن احدا منهم لم يقل شيئا . واغتم فى بادئ الأمر ، ثم أضحى برما جدا . وكان

فى المدة الأخيرة يحتدم غيظه بسهولة . وفى واقع الأمر لم تكن حياته أصعب من حياته قبل الثورة ، وكان الناس يعاملونه بأدب ولم تعد المخازن تطالب بالدفع نقدا . ومع ذلك فما زال يحس بعدم الرضى . وظن ان أى ثورة حين تقع يجب أن تشمل أشياء أكثر من هذه . ثم انه رأى " د " ، فزاد المنظر من غليان غضبه .

كان " د " طاويا ضفيرته على رأسه ايضا والأكثر من ذلك أنه استعمل فى ذلك عود أكل من البامبو ايضا . ولم يتصور آه كيو قط أن الشجاعة ستواتى " د " ليفعل ذلك . وهو بالتأكيد لا يستطيع أن يطيق شيئا كهذا . ومن هو " د " على أية حال ؟ وكان الشيطان يوسوس له بين حين وآخر ليقبض عليه ، ويكسر عود الأكل وينزل ضفيرته ، وايضا يصفعه على وجهه مرات ، ويعاقبه على نسيانه لحقيقة نفسه وتظاهره بأنه أصبح ثوريا . ولكنه فى النهاية تركه يذهب وشأنه ملقيا عليه نظرة غضب ، وباصقا ، صائحا : " باه ! "

وفى تلك الأيام الاخيرة كان مقلد الشيطان الاجنبى الشخص الوحيد الذى ينزل الى المدينة . وفكر مرشح المحافظة الناجح بأن يتخذ الصناديق المودعة ذريعة لزيارة مرشح المقاطعة الناجح ، ولكن تصور خطر قص ضفيرته حمله على ارجاء زيارته . وكتب رسالة رسمية للغاية وطلب الى مقلد الشيطان الأجنبى أن يحملها الى المدينة ، كما طلب من هذا أيضا أن يقدمه الى حزب الحرية ، وحين عاد مقلد الشيطان الأجنبى طلب من مرشح المحافظة الناجح أربعة يوانات ، وبعد ذلك وضع مرشح المحافظة الناجح خوخة فضية على صدره . وارتعب أهالى ويتشوانغ ، وقالوا هذه شارة حزب " زيت

الكاكى" * وهى مساوية لمرتبة " هان لين " ** : وبالنتيجة علا مقام السيد تشاو فجأة أكثر مما علا عندما اجتاز ابنه الامتحان الرسمى . وطفق يزدرى كل الناس وحين رأى آه كيو عاد الى تجاهله قليلا .

كان آه كيو متذمرا كل التذمر لتجاهل الناس له دائما ، غير أنه ما ان سمع بتلك الخوخة الفضية حتى أدرك فى الحال السبب فى اهمال الناس له . من الجلى الواضح أن الانحياز ليس كافيا لجعل الانسان ثوريا ، وليس كافيا ان يطوى الانسان ضفيرته فوق رأسه ، والشيء الأهم أن يتصل بالحزب الثورى . وكان فى حياته كلها لا يعرف الا ثوريين ، أحدهما قد فقد رأسه فى المدينة ، فلم يبق الا مقلد الشيطان الاجنبى . واذا لم يذهب فى الحال ، ويناقش الأمور مع مقلد الشيطان الأجنبى فلا يبقى أمامه أى طريق مفتوح .

وصادف ان كان باب منزل تشيان مفتوحا ، فانسل آه كيو الى الداخل فى توجس وما ان احتواه الداخل حتى اعترته رجفة ، فقد رأى مقلد الشيطان الأجنبى واقفا وسط الفناء يرتدى ثيابا سوداء ، فلا شك أنها ثياب اجنبية ، وكان يحمل خوخة فضية ايضا ، وفى يده عصا قد ذاق آه كيو منها طعم الألم ذات مرة ، وقد تساقط

---

* كان حزب الحرية يسمى " زى يو دانغ " حسب نطق شاوشينغ المحلى . أما " زى يو" فيعنى زيت الكاكى . والكاكى نوع من الفواكه .

** موظف مشرف على الشؤون الثقافية فى عهد اسرة تشينغ الملكية (١٦٤٤ - ١٩١١ م) .

على كتفه ذيل شعر نما حديثا وتدلى اشعث مثل شعر القديس " ليو " *.
وكان يقف أمامه تشاو باى يان وثلاثة رجال آخرين وقفة اعتدال ،
وكلهم يصغون بانتباه تام لما يقول .

ومشى آه كيو على أطراف أصابعه ، ووقف وراء تشاو باى
يان وأراد أن يفوه بتحية ولكنه لم يعرف ماذا ينبغى ان يقول . فمن
الواضح أنه لا يستطيع أن ينادى الرجل بـ " مقلد الشيطان الأجنبى "
كما أن " أجنبى " و " ثورى " لا يبدوان مناسبين . فلعل الأوفق
أن يخاطبه " سيد أجنبى ! "

غير ان السيد الأجنبى لم يره لأنه كان يتكلم بانتعاش شديد
وعيناه مرفوعتان .

" أنا متسرع جدا . حتى حين التقينا أخذت أقول : ايها العجوز
هونغ ! يجب أن نبدأ ! — ولكنه كان يجيب دائما : No ! — وهذه
كلمة أجنبية لا تفهمونها ، والا لنجحنا منذ زمن بعيد . ذلك مثال
على مقدار حذره . لقد طاب الى مرارا أن أذهب الى هوبى ولكننى
لم أوافق . فمن يريد أن يشتغل فى بلدة ريفية صغيرة ؟ . . . "

" آه . . . هذا . . . " انتظر آه كيو أن يتوقف ثم تمالك نفسه
بشجاعة ليتكلم . ولكنه لسبب أو لآخر لم يدعه بـ " السيد الأجنبى " .

وانتفض الرجال الاربعة الذين كانوا ينصتون والتفتوا ليحملقوا
فى آه كيو . ووقع بصر السيد الأجنبى عليه أيضا لأول مرة :

---

* خالد من الخالدين فى اسطورة شعبية صينية ، وهو يصور دائما
بشعر غزير .

" ماذا ؟ "

" أنا . . . "

" اخرج ! "

" أريد أن أنضم . . . "

" اذهب ! " قال السيد الأجنبى وهو يرفع " عصا النائح " .

ثم صاح تشاو باى يان والآخرون : " يقول لك السيد تشيان اذهب ، ألا تسمع ؟ "

ورفع آه كيو يديه ليقى رأسه ودون أن يعرف ما هو فاعل هرب من الباب ، غير ان السيد الأجنبى لم يطارده فى هذه المرة . وبعد أن ركض ستين خطوة بدأ يبطئ ، وأخذ يشعر بأعظم اضطراب ، ذلك لأن السيد الأجنبى اذا لم يسمح له بأن يصبح ثوريا فما من طريق آخر يفتح له . ولن يكون فى وسعه فى المستقبل أن يأمل بأن يأتى رجال ذوو خوذ بيضاء ودروع بيضاء ويدعوه . لقد نسف كل طموحه وأهدافه وأمله ومستقبله مرة واحدة . اما حقيقة أن الناس قد يذيعون النبأ عنه ، ويجعلونه أضحوكة لأمثال " د " ووانغ فذلك اعتبار ثانوى .

ولم يشعر قط من قبل بأنه تافه جدا على هذا النحو : وحتى لف ضفيرته فوق رأسه لاح له مضحكا وبلا معنى . وكضرب من الانتقام اغواه الشيطان لينزل ضفيرته . ولكنه لم يفعل ذلك : وتسكع حتى المساء ، وبعد أن شرب قدحين من النبيذ على الحساب ، شعر بحيوية أكثر ، ورأى ثانية فى خاطره صورا متقطعة للخوذ والدروع البيضاء .

وذات يوم تسكع حتى هزيع متأخر من الليل ، ولم يغادر الحانة ليعود الى معبد الاله الحارس الا بعد أن أوشكت الحانة أن تغلق أبوابها :

" بانغ — بووب ! "

سمع فجأة صوتا غير مألوف لا يمكن أن يكون ألعابا نارية . وآه كيو دائما يحب الاثارة ، ويستمتع بدس أنفه فى شؤون الآخرين فمضى يبحث عن الضوضاء فى الظلام . وبدا له أنه سمع وقع أقدام أمامه ، وكان يصغى بعناية حين اندفع رجل أمامه فجأة . وما ان رآه آه كيو حتى التفت ، وتبعه بأسرع ما فى وسعه . وحين استدار الرجل استدار آه كيو ايضا . وحين توقف ذلك الرجل بعد أن استدار منعطفا توقف آه كيو ايضا . ولم ير آه كيو أحدا خلفه ، وكان ذلك الرجل هو " د " .

سأل آه كيو باشمئزاز : " ما الخبر ؟ "

أجاب " د " لاهثا : " تشاو . . . لقد سلبوا عائلة تشاو : "

وأخذ قلب آه كيو يخفق بيت — بات . . . وغادر " د " بعد ان قال له ذلك . وركض آه كيو ، وتوقف مرتين او ثلاثا . وعلى أية حال ، ما دام هو نفسه قد اشتغل بهذا العمل ذات مرة فقد شعر بشجاعة استثنائية . وطلع من منعطف الشارع ، وأصغى بعناية : وظن أن فى وسعه أن يسمع صياحا ، كما نظر بتمعن ، وحسب أن فى وسعه أن يرى جملة من الرجال ذوى الخوذ والدروع البيضاء ينقلون الصناديق ، وينقلون الأثاث وحتى سرير " نينغبو" لزوجة مرشح المحافظة الناجح . وعلى أية حال لم يكن فى وسعه أن يراهم

بوضوح شديد . وأراد أن يدنو قليلا ، غير أن قدميه قد تسمرتا فى الأرض .

ولم يكن فى تلك الليلة قمر ، وكانت ويتشوانغ ساكنة جدا عبر الظلام الحالك ، هادئة هدوء الأيام الآمنة للامبراطور القديم " فوشى " . ووقف آه كيو هناك حتى فقد الرغبة ، ومع ذلك فان كل شيء يبدو كما كان من قبل ، فى البعيد كان هناك اناس يروحون ويجيئون ، ينقلون أشياء ، وينقلون صناديق ، وينقلون أثاثا ، وينقلون سرير " نينغبو " لزوجة مرشح المحافظة الناجح ... ينقلون حتى كاد لا يصدق عينيه . ولكنه صمم على أن لا يدنو أكثر ، وعاد الى المعبد .

وكان الظلام فى معبد الاله الحارس أكثر حلوكة : وحين أغلق الباب الكبير تلمس طريقه الى غرفته ، واستلقى زمنا طويلا ، وهناك فقط شعر بهدوء . وعندئذ فكر فى نفسه : الظاهر أن الرجال ذوى الخوذ والدروع البيضاء قد وصلوا ، غير أنهم لم يأتوا ليدعوه ، وقد نقلوا أشياء كثيرة ، غير أن أى نصيب لم يصبه — وكل ذلك خطأ مقلد الشيطان الأجنبى اذ انه لم يسمح له أن يكون ثوريا : ولو سمح لأمكنه من الحصول على نصيبه هذه المرة !

وكلما أوغل آه كيو فى التفكير اشتد غضبه أكثر حتى بلغ غيظه قمته فصاح وهو يهز رأسه بحنق : " أجل ، أ حرام على الثورة ، وهى خصيصا لك ؟ اللعنة عليك . يا مقلد الشيطان الاجنبى ، حسنا كن عاصيا ! ان العاصى يعاقب بقطع الرأس . وأنا سأتحول الى اصلاحى ، لأراك مأخوذا الى المدينة ليقطع رأسك — أنت وكل عائلتك ...

أقتل ، أقتل ! "

الفصل التاسع

الختام العظيم

بعد ان سرقت عائلة تشاو أحس أغلب أهالى ويتشوانغ بالفرح ، وبالخوف أيضا ، ولم يكن آه كيو شاذا عنهم . ولكن آه كيو قد جر بعد أربعة أيام الى المدينة فى منتصف الليل فجأة . وصادف أن كانت ليلة حالكة حين شقت شرذمة من الجنود ، وشرذمة من المليشيا ، وشرذمة من الشرطة ، وخمسة من السريين طريقهم الى ويتشوانغ بهدوء تحت جنح الظلام ، وطوقوا معبد الاله الحارس ، ووضعوا مدفعا رشاشا ازاء المدخل . ومع ذلك فان آه كيو لم يندفع الى الخارج ، فقد مر وقت طويل دون أن يضطرب شيء فى المعبد . ونفد صبر الضابط فعرض مكافأة قدرها عشرون ألف درهم . وحينذاك فقط استجمع اثنان من المايشيا شجاعتهما ، وقفزا من فوق السور ، ودخلا . ثم بالتعاون معهما اندفع الآخرون الى المعبد وجروا آه كيو منه : ولكنه لم يفق حتى حملوه من المعبد على مقربة من المدفع الرشاش .

وحين بلغوا المدينة كان الوقت ظهرا ، ورأى آه كيو نفسه محمولا الى سراى خرب ، وبعد ان انعطف خمسة أو ستة منعطفات دفع الى غرفة صغيرة . وما ان دخل متعثرا حتى اغلق عليه باب مصنوع

من قضبان خشبية بشكل مشبك . وكانت الغرفة ذاتها تتألف من ثلاثة جدران عارية . وحين أمعن النظر رأى رجلين آخرين فى ركن من أركان الغرفة .

ورغم أن آه كيو كان يشعر بشيء من الاضطراب فلم يكن مغموما جدا على الاطلاق ، لأن الغرفة التى ينام فيها فى معبد الاله الحارس لم تكن أفضل من هذه قط . ويبدو أن الرجلين الآخرين قرويان أيضا . وبالتدريج دخلا فى حديث معه ، وأخبره أحدهما بأن مرشح المقاطعة الناجح أراد أن يقاضيه الايجار الذى كان مدينا به الى جده ، اما الآخر فلا يعرف لماذا هو هنا ، وحين استجوبا آه كيو أجاب بصراحة : " لأننى أردت أن أثور . "

وفى أصيل ذلك اليوم جر آه كيو من خلال الباب ذى القضبان واخذ الى قاعة كبيرة وكان يجلس فى طرفها البعيد رجل عجوز حلق رأسه تماما . وقد حسبه آه كيو راهبا فى بادئ الأمر ، ولكنه حين رأى جنود الحرس واقفين هناك ، وعشرة من الرجال يرتدون معاطفهم الطويلة على الجانبين ، بعضهم قد حلق شعره كله كذلك الرجل العجوز وبعضهم الآخر له ذيل من الشعر قد تدلى على كتفيه وما أشبه ذلك بمقلد الشيطان الأجنبى ، غير أنهم جميعا كانوا يحدقون فيه بشراسة من وجوه كالحة ، عرف ان هذا الرجل يجب أن يكون على شيء من الأهمية . وفى الحال ارتخت مفاصل ركبتيه تلقائيا ، وخر على الأرض .

صاح جميع الرجال ذوى المعاطف الطويلة :

" قف لتتكلم ، ولا تركع ! " .

ورغم أن آه كيو قد فهم ذلك ، الا أنه شعر بأنه غير قادر على الوقوف ، ودون ارادة منه انحط جسمه وقعد القرفصاء ، وبعد ان حسن وضعه قام على ركبتيه راكعا مرة اخرى .

" عبد ! . . . " صاح الرجال ذوو المعاطف الطويلة بازدراء ، غير أنهم لم يصروا على أن يقف .

وقال الرجل العجوز ذو الرأس المحلوق بصوت خفيض ولكنه واضح ، وهو يثبت عينيه بآه كيو : " قل الحق ، وستنال عقوبة مخففة . أنا أعرف كل شيء الآن . فاذا اعترفت اطلقت سراحك . "

" اعترف ! " كرر الرجال ذوو المعاطف الطويلة بصوت عال .

" الحقيقة أننى أردت . . . أن آتى . . . " تمتم آه كيو باضطراب بعد لحظة من التفكير المشوش .

سأل الرجل العجوز برقة : " فى هذه الحالة ، لماذا لم تأت ؟ "

" لم يدعنى مقلد الشيطان الأجنبى . "

" هراء ! لقد فات أوان الكلام الآن . . . أين شركاؤك فى الجريمة ؟ "

" ماذا ؟ "

" الناس الذين اغتصبوا عائلة تشاو فى تلك الليلة . "

واثار ذلك فى نفس آه كيو شيئا من السخط فقال : " انهم لم يأتوا ليدعونى ، لقد نقلوا الأشياء بأنفسهم . "

" أين ذهبوا ؟ لو أخبرتنى لتركتك تذهب . " قال الرجل العجوز برقة أكثر .

" لا أعرف ! . . . لم يأتوا ليدعونى . . . "

وهنا جر آه كيو مرة أخرى باشارة من الرجل العجوز عبر الباب
ى القضبان ؛ وكانت المرة التالية التى استدعى فيها فى الصباح
نالى .

كان كل شىء بلا تغيير فى القاعة الكبيرة فالرجل العجوز ذو
أس الحليق ما زال جالسا هناك ، وركع آه كيو على ركبتيه كالسابق .
وسأله الرجل العجوز : " هل عندك شىء آخر تقوله ؟ "
وفكر آه كيو وقرر أن ليس هناك شىء آخر يقوله فأجاب :
لا شىء . "

وهنا جلب رجل ذو معطف طويل قطعة من الورق وريشة
، آه كيو واراد ان يضع الريشة فى يده . وكاد آه كيو يخرج عن
لمواره من الفزع ، لأن هذه هى المرة الأولى التى تمس يده فيها
يشة كتابة فى حياته كلها . وحين كان يفكر كيف يمسك بالريشة ،
مار الرجل الى مكان فى الورقة ، وأخبره بأن يوقع اسمه :
أمسك آه كيو بالريشة وقال فى عصبية والخجل باد على محياه :
أنا . . . أنا : . . لا أعرف الكتابة . "
" فى هذه الحالة ارسم دائرة ، تسهيلا للأمر عليك : "
وحاول آه كيو أن يرسم دائرة غير أن اليد التي أمسكت بالريشة
نجفت فنشر الرجل الورقة على الارض ، وانحنى آه كيو وشرع
سم دائرة بتدقيق شديد ، وكأن حياته كانت تتوقف على ذلك .
خشية أن الناس سيضحكون منه ، عزم على أن يجعل الدائرة محكمة
ستدارة ولكنه رسم شكلا على هيئة بذرة البطيخة لأن هذه الريشة
ملعونة كانت ثقيلة ، ولم تمتثل لأمره ايضا فارتجت من جانب الى

جانب ، وانحرفت حين أوشك الخط ان يتصل ؟

وبينما كان آه كيو خجلا من عدم مقدرته على رسم دائرة مستديرة ، كان ذلك الرجل قد استرجع الورقة والريشة دون تعليق ، ثم جره نفر من الناس عائدين به عبر الباب ذى القضبان .

وفى هذه المرة لم يشعر بغيظ مخصوص . فقد افترض أن نصيب كل انسان فى هذا العالم أن يجر من السجن واليه ، وأن يرسم دائرة على ورقة ، ولأن دائرته لم تكن مستديرة ليس الا شعر بأن فى لوحته لطخة . ولكنه استرد جأشه حالا وظن " ان الباهاء وحدهم يستطيعون أن يرسموا دائرة مضبوطة . " وبهذا الظن غلبه النعاس .

وفى تلك الليلة لم يستطع مرشح المقاطعة الناجح أن ينام ، لأنه قد تخاصم مع الضابط . فقط أصر مرشح المقاطعة الناجح أن يسترجع الأشياء المسروقة فان ذلك أهم شيء بينما قال الضابط ان أهم شيء هو أن يعرض على الناس ليكون عبرة لغيره . وكان الضابط فى المدة الأخيرة يعامل مرشح المقاطعة الناجح بازدراء . ولذلك ضرب المنضدة بجمع يده وقال : " عاقب واحدا ترهب مئة ! انظر الآن ! لقد اصبحت عضوا فى الحزب الثورى منذ أقل من عشرين يوما ، غير أن هناك عشر قضايا سرقة ، لم تحل واحدة منها حتى الآن ، ففكر كيف أثر ذلك فى تأثيرا سيئا ، والآن أحاول حل هذه القضية . ولكنك تأتى لتحاول متحذلقا . هذا لا يجوز ! هذا من شأنى . "

وكان مرشح المقاطعة الناجح مضطربا جدا ، ولكنه مازال ماضيا فى اصراره قائلا ان الأشياء المسروقة اذا لم تسترجع فانه يستقيل فى الحال من منصبه كمساعد المدير المدنى فقال له الضابط : "كما

تشاء . "

وبالنتيجة لم ينم مرشح المقاطعة الناجح فى تلك الليلة . ولكن من حسن الحظ انه لم يقدم استقالته فى اليوم التالى .

وجر آه كيو عبر الباب ذى القضبان للمرة الثالثة فى الصباح الذى اعقب الليلة التى لم يستطع فيها مرشح المقاطعة الناجح أن ينام . وحين وصل الى القاعة الكبيرة كان الرجل العجوز ذو الرأس الحليق جالسا فى مكانه كالعادة ، وركع آه كيو على ركبتيه كما سلف .

وسأله الرجل العجوز برقة متناهية : " هل لديك شيء آخر تقوله ؟ "

وفكر آه كيو وقرر أن ليس هناك شيء آخر فأجاب : " لا شيء ! "

ووضع عليه نفر من الرجال ذوو معاطف طويلة وسترات قصيرة ، صدرية بيضاء من قماش أجنبى عليها بعض الحروف السوداء . وشعر آه كيو ببلبال شديد ، لأن هذه تشبه ثياب الحداد ، وارتداء ثياب الحداد شيء منحوس . وفى نفس الوقت اوثقت يداه خلف ظهره ، وجر الى خارج السراى .

ورفع آه كيو الى عربة مكشوفة ، وجلس معه نفر من الناس يرتدون السترات القصيرة . وانطلقت العربة فى الحال . وكان فى المقدمة عدد من الجنود والمليشيا وعلى أكتافهم البنادق الأجنبية ، وعلى الجانبين وقفت جموع المتفرجين فاغرى الافواه . أما ما كان فى الخلف فلم يكن فى ميسور آه كيو رؤيته . ولكن خطر له خاطر

فجأة : " لعلى ذاهب ليقطع رأسى . " واعتراه الذعر ، وتحول كل شيء أسود فى عينيه بينما كان فى أذنيه طنين وكأنه قد أصيب باغماء . ولكنه لم يصب باغماء فى واقع الأمر . وبالرغم من أنه ارتعب بعض الوقت الا أنه كان هادئا جدا فى الوقت الآخر . وبدا له أن من الممكن أن يكون نصيب كل انسان فى هذا العالم ان يقطع رأسه .

وكان ما يزال يعرف الطريق ، وشعر بشيء من الدهشة ، لماذا لا يذهبون به الى ساحة الاعدام ؟ وكان لا يعرف أنه يعرض للناس فى الشوارع عبرة لغيره . ولكنه لو كان يعرف لما تغير من الأمر شيء ، ولا يكون منه الا أن يظن أن من الممكن أن يكون نصيب كل انسان فى هذا العالم فى بعض الأحيان أن يعرض للناس ليكون عبرة .

ثم أدرك أنهم يقومون بدورة متوجهين به الى ساحة الاعدام ، لهذا فلا بد من ان رأسه سيقطع . وتلفت فيما حوله بأسف فرأى الناس يتحركون فى اثره كالنمل ، ووقع بصره على آماه وو بين جمع من الناس فى الطريق دون توقع منه وهذا هو السبب فى أنه لم يرها منذ زمن طويل ، انها كانت تشتغل فى المدينة .

وخجل آه كيو فجأة من افتقاره الى الشجاعة لأنه لم يغن ابياتا من اية اوبرا . ودارت أفكاره كالدوامة . ان « الارملة الشابة على قبر زوجها » لم تكن كلماتها لتحتوى معانى البطولة الكاملة . وكلمات " وأسفاه على قتلى . . . " فى مسرحية « معركة التنين والنمر » فقيرة جدا . وكلمات " سأطعنك بصولجان من حديد " ما زالت هى الفضلى . ولكنه حين أراد أن يرفع يديه تذكر أنهما موثوقتان . فلم يغن : " سأطعنك . "

" فى مدى عشرين عاما سأكون . . . " تفوه آه كيو من اضطرابه
قولا التقطه بنفسه ، ولكنه لم يستخدمه من قبل . وبدأ هدير الناس :
" عظيما ! ! " مثل عواء الذئب .

وسارت العربة الى الامام باستمرار . وخلال الصياح تلفتت عينا
آه كيو بحثا عن آماه وو . ولكنها لم تبد أنها رأته ، فقد كانت
تنظر فى لهفة الى البنادق الأجنبية التى يحملها الجنود .

وألقى آه كيو نظرة اخرى على الصائحين .

وفى تلك اللحظة دارت افكاره مرة اخرى كالدوامة . قبل اربع
سنوات التقى فى سفح الجبل بذئب جائع تبعه على مسافة قريبة ،
وهو يريد أن يأكله . وكان يموت من الرعب ولكن لحسن الحظ
أنه كان يحمل فأسا فى يده مدته بالشجاعة ليعود الى ويتشوانغ .
ولكنه لم ينس قط عينى الذئب الضاريتين والجبانتين معا مثل نورين
وهاجين خادعين ينفذان عبره من بعيد . والآن يرى العيون أشد ارعابا
من عينى الذئب ، عيون كابية ولكنها نفاذة بدت كأنها التهمت
كلماته وما تزال متلهفة الى أن تلتهم شيئا آخر خلف اللحم والدم .
وظلت هذه العيون تلاحقه عن كثب .

وبدت هذه العيون كأنها اندمجت فى عين واحدة تنهش فى روحه .

" النجدة ! النجدة ! "

غير أن آه كيو لم يفه بهاتين الكلمتين ، وقد تحول كل شىء
أسود فى عينيه ، وكان فى أذنيه طنين ، وشعر كأن جسمه كله قد
تبعثر أشبه بذرات النور .

اما الذين تأثروا فى حادث السرقة فكان أشدهم تأثرا هو مرشح

المقاطعة الناجح لأن الأشياء المسروقة لم تسترجع قط . وقد ناحت عائلته كلها بمرارة ، ثم تأتى بعده عائلة تشاو ، لأن مرشح المحافظة الناجح حين نزل الى المدينة ليبلغ عن السرقة ، قص الثوريون ضفيرته ودفع علاوة على ذلك مكافأة قدرها عشرون ألف درهم ، لهذا ناحت عائلة تشاو كلها بمرارة ايضا . ومنذ ذلك الحين بدوا بالتدريج كأنهم احفاد اسرة مالكة قد تداعت .

اما عن مناقشة الحادث فلم يثر أى سؤال عنه فى ويتشوانغ . وطبيعى أن الجميع قد اتفقوا على أن آه كيو رجل شرير ، والدليل على ذلك انه قد قتل رميا بالرصاص ، فكيف يمكن ان يقتل اذا لم يكن رجلا شريرا . اما فى المدينة فلم تعل الوجوه امارات القناعة على ما حدث فمعظم الناس لم يكونوا راضين لأن الرمى بالرصاص ليس منظرا بديعا كقطع الرأس ، هذا محور آرائهم . ثم أى جان هذا الذى يمر فى الشوارع ولا يغنى بيتا واحدا من اوبرا . لقد لحقوه ولكن دون جدوى .

كانون الأول ١٩٢١

كلمة عن المؤلف

لو شيون (١٨٨١ - ١٩٣٦) . . هو اب الادب الصينى المعاصر واسمه الحقيقى : تشو شو رن ، من مواليد شاوشينغ بمقاطعة تشجيانغ . لم

يكن اديبا بارزا فحسب بل كان ثوريا ومفكرا عظيما . ذهب الى اليابان فى سنة ١٩٠٢ لدراسة الطب قبل ان ينهمك فى الابداع الادبى . واشتغل معلما فى مدرسة ثانوية فى هانغتشو وشاوشينغ بعد عودته الى الصين فى سنة ١٩٠٩ . وعين بعد ثورة ١٩١١ عضوا بوزارة المعارف بحكومة نانجينغ الثورية المؤقتة وحكومة بكين . وفى نفس الوقت ، عمل بالتدريس فى جامعة بكين ومعهد المعلمات ببكين .

وفى مايو ١٩١٨ ، نشر تحت اسم لو شيون « يوميات مجنون » . . اول قصة قصيرة كتبت باللغة الحديثة فى تاريخ الادب الصينى الحديث ، وجهت حراب نقد حامية للنظام الاقطاعى آكل لحوم البشر . وفى الفترة التى اذنت بقدوم " حركة الثقافة الجديدة " سنة ١٩١٩ ، ساعد فى تحرير مجلة تقدمية تدعى « الشباب الجديد » . وقد عارض لو شيون ، بكل قوة ، نزعة المثقفين البرجوازيين الميالة الى المساومة والاستسلام ، متخذا موقعه فى الجبهة الامامية من " حركة الثقافة الجديدة " المقاومة للامبريالية والمناهضة للاقطاع .

وفيما بين سنتى ١٩١٨ و١٩٢٦ نشر « دعوة للسلاح » و« القبر» و« الهواء الساخن » و« التائه » و« العشبة البرية » و« زهور الفجر» و« سوء الطالع — الجزء الاول » و« سوء الطالع — الجزء الثانى » ومجموعات اخرى من القصص القصيرة ، اظهر فيها ما يتحلى به من روح وطنية وثورية . ومن بينها : الرواية القصيرة « قصة آه كيو الحقيقية » وتعتبر من عيون الادب الصينى الحديث . وفى هذه الفترة ، بدأ لو شيون يعتنق الماركسية . وفى سنة ١٩٢٦ ، ادرج على قائمة المطلوبين من حكومة امراء الحرب الرجعيين بسبب تأييده لحركة طلاب بكين الوطنية ، فاضطر الى ان يترك بكين الى فوجيان ويدرس بجامعة شيامن . وفى يناير ١٩٢٧ ، توجه الى قوانغتشو وكانت مركزا للثورة آنذاك ، ليدرس بجامعة صون يات صن . وفى ابريل من تلك السنة ،

قدم استقالته من منصبه فى لهجة حادة احتجاجا على خيانة تشيانغ كاى شيك للثورة . ووصل الى شانغهاى فى اكتوبر ١٩٢٧ حيث درس الماركسية هناك . وبعد سنة ١٩٣٠ ، انضم الى " عصبة الحرية الصينية " و " عصبة الكتاب اليساريين الصينيين " و " العصبة الصينية للحقوق المدنية " وغيرها من منظمات تقدمية . وقد ظل لو شيون نشيطا فى الحركة الادبية الثورية التى قدم فيها النظرية الادبية الماركسية برغم ما قامت به حكومة الكومينتانغ الرجعية من تهديد واعمال قمع . وشن نضالات دؤوبة ، تحت قيادة الحزب الشيوعى الصينى ومع ادباء ثوريين آخرين ، ضد كتاب الكومينتانغ المأجورين . وانضم الى جبهة الاوساط الادبية والفنية المتحدة المقاومة للبابانيين بعد ان فرض الحظر على " عصبة الكتاب اليساريين الصينيين " فى اوائل سنة ١٩٣٦ .

وقد ثابر لو شيون يعمل ، برغم معاناته من السل ، الى ان وافته المنية بشانغهاى فى ١٩ اكتوبر ١٩٣٦ .

كتب لو شيون مقالات عديدة من ١٩٢٧ — ١٩٣٦ . كانت هذه المقالات قصيرة غير انها كانت " خناجر " و " حرابا " حادة ضد الحكام الرجعيين . وتبرز هذه المقالات المبدعة ، متخذة الماركسية دليلا لها ، ما يتحلى به لو شيون من بصيرة سياسية جبارة وروح مكافحة عنيدة ، بينما تحلل مختلف المشكلات الاجتماعية .

لقد قدم لو شيون مساهمات كبرى للثقافة الصينية . فقد نظم وقاد " الجمعية المجهولة " و " جمعية زهور الفجر " وغيرهما من جماعات ادبية تقدمية ، واشرف على نشر « السهل الواسع » و « التيار الهادر » و « البراعم » و « التراجم » ومجلات ادبية اخرى . وابدى اهتماما كبيرا بمساعدة الادباء الشباب فى اعمالهم . كما ترجم اعمالا ادبية تقدمية اجنبية ، وقدم للشعب الصينى رسوما ومحفورات خشبية من الخارج . وجمع واعد مؤلفات عديدة من الادب الكلاسيكى ، وصنف « موجز تاريخ القصة الصينية » و « موجز

لآداب اسرة هان » وذلك كي يقدم الثقافة الصينية العريقة .

نشرت « مؤلفات لو شيون الكاملة » (فى ٢٠ مجلدا) لأول مرة فى سنة ١٩٣٨ . وبعد ان تأسست الجمهورية الشعبية نشرت مؤلفات لو شيون تحت عنوان « مؤلفات لو شيون الكاملة » (فى ١٠ مجلدات) ، و « ترجمات لو شيون الكاملة » (فى ١٠ مجلدات) و « مذكرات لو شيون » (فى مجلدين) و « مجموعة مراسلات لو شيون » . كما نشرت له مؤلفات عديدة مستقلة . ففى سنة ١٩٨١ ، ظهرت طبعة جديدة من « مؤلفات لو شيون الكاملة » (فى ٢٠ مجلدا) . وقد صدر عن دار النشر باللغات الاجنبية ببكين ، الطبعة الانجليزية من « مؤلفات لو شيون المختارة » (فى ٤ مجلدات) و « موجز تاريخ القصة الصينية » وبعض المؤلفات الاخرى .

« قصة آه كيو الحقيقية » . . عمل مبدع من اعمال لو شيون اخرجه فى سنة ١٩٢١ . والقصة تدور فى صين سنة ١٩١١ فى ايام الثورة الديمقراطية القديمة . وهى تحكى عن مأساة آه كيو — الفلاح الذى قاسى طوال حياته من الاذلال والاضطهاد وكان يحلم بالثورة وينتهى فى ساحة الاعدام . وتعكس القصة على نحو اخاذ احوال الريف فى الصين شبه الاقطاعية وشبه المستعمرة حيث ساد فيها وضع من التناقضات الطبقية الحادة ، وجماهير الفلاحين تنادى بالثورة . وتحلل القصة شخصية آه كيو الذى يتأثر فكره ويتسمم بالطبقة الحاكمة الاقطاعية التى تستغله وتضطهده . ان الاضطهاد الاقطاعى يؤثر على آه كيو الى درجة الاضطراب العصبى الذى لا يستطيع ، فعلا ، ان يجد منه فكاكا ، وفيه يقنع " بانتصارات معنوية " بينما لا يبدى مقاومة ضد شرور المجتمع . ويبدى المؤلف تعاطفا عميقا مع آه كيو فيما يكشف عن ضعف ارادته . كما ينتقد المؤلف النزعة الضعيفة الى المساومة من قبل البرجوازية الوطنية الصينية فى الفصول الثلاثة الاخيرة من القصة . ويعرب عن امله بأن يهب الفلاحون ، ضحايا الاضطهاد الاقطاعى والعدوان الامبريالى ، الى النهوض للمقاومة .



كو مو جو

مفترق الطرق



استولى عليه الحزن وتملكه . وعاد الى البيت ، يجر قدمين — ليس كمثل مشيته المعتادة ، كلما اقترب من البوابة ، كلما شعر بالوهن . كانت اصابعه قد لمست مقرعة الباب حين اصابه التردد وعاد الى الزقاق .

كانت الاشجار المصطفة على جانبى طريق الدير الهادئ قد تجردت ، منذ زمن طويل ، من اوراقها . والقت الشمس الشاحبة نورا خافتا على وجه الطريق المنبسط ، وعلى الظلال غير المتساوية للمبانى . واسرع الخطى ، وفى يده قبعة ، تحت الاشجار العارية والريح الشمالية الشديدة تنفش شعره الاشعث ، وعيناه الداميتان تحدقان الى الامام . وعلى كل حال ، لم يلحظ الشوارع الغاصة بالبشر ولا المبانى الصقيلة الحمراء الآجر التى اعتاد ان يراها كأنها مصبوغة بالدماء ، تزيد من كآبته . وكان كل ما وقع عليه ناظراه مشهد سفينة مرتحلة وحدها تمخر عباب الامواج الدامية للبحر الاصفر .

وقال لنفسه ودموعه تهطل مدرارا : " يحتمل انهم ينظرون الى من كوات السفينة . "

و" هم " على ظهر السفينة لم يكونوا سوى عقيلته التى تناهز الثلاثين من عمرها واولاده الصغار الثلاثة . فقد غادروا شانغهاى فى ذلك الصباح فى الساعة الثامنة وخمسين دقيقة .

لقد بنى من زوجته وهى ابنة قس يابانى منذ سبع سنوات حين

كان ما زال طالب طب فقيرا ضد مشيئة والديها ، وبالتالى تنكرت لها اسرتها . وقد كدحت بجانبه سبع سنين طوالا ، وانجبت له ثلاثة ابناء ، وصبرت تنتظر الى ان يتخرج من كلية الطب . ولم يعودوا الى شانغهاى الا فى ابريل الماضى . وقد ظنت انه ، حالما تخرج فى الكلية ، حصل على وظيفة فيودعان حياتهما التى اثقلها الفقر الى الأبد . ومهما يكن من امر ، لم تأت الرياح كما اشتهت السفن . وبدا له ، لدى وصوله الى شانغهاى ، انه القى بعناء عشر سنوات من التدريب الطبى فى المحيط الهادى ، حتى انبوبة السماعة قد سدت من قلة الاستعمال . وحينما اقترح عليه الاصدقاء ان يفتتح مشروعا طبيا مشتركا ، اعتذر بقوله انه يفتقد الى الثقة . وقد قدمت اليه وظيفة مدير فى مستشفى الهلال الاحمر بمحافظة سى فى سيتشوان ولكنه رفضها بذريعة بسيطة ، بعدم الرد على الرسالة . ولما كان مولعا بالادب منذ أيام المدرسة نشر مع مجموعة من الاصدقاء من نفس التفكير مجلتين ادبيتين ، لدى عودته الى شانغهاى . وبينما ساعده هذا العمل على ازالة بعض احزانه ، امل ايضا ان ينصلح حال المجتمع بما فيهما من آراء . وبخصوص حياته المادية ، فانها فى بلد كالصين حيث لا قيمة رفيعة للأدب فقد ظلت جرداء كمثل بذرة سقطت على ارض حجرية ، دونما ادنى امل فى مد جذور او نمو صحى . عندما كان طالبا فى اليابان ، كان يحصل وعائلته على منحة دراسية حكومية ما بين ثلاثين الى اربعين يوانا ، ولكنه الآن قد خرج الى المجتمع ووسيلة العون هذه قد قطعت . استأجر غرفة فى زقاق خلفى بفلوس استدانها من اصدقائه ، وكانت زوجته فى غاية القلق كما لو أنها

جالسة على فراش من المسامير ، مع انه لم يشعر بالقلق . قلقت زوجته كثيرا على رزق اولادهما وتعليمهم اذ انهم يكبرون شيئا فشيئا ، فلم يقدر ان يتسلل النوم الى عينيها . وكانت تتناقش معه على الدوام وتريد ان تعرف سبب رفضه مزاولة الطب .

ـ مزاولة الطب ؟ لماذا ؟ كان يمكنني ان اصبح مشعوذا بدون الذهاب الى الكلية . يمكن معالجة الزهرى بحقن من "٦٠٦" ، والملاريا بالكينين ، والدفتيريا بحقن من مصل الدم ، والزحار الأميبى بالامتين والتهاب المفاصل الحاد بالساليسيلات ، وهلم جرا . يمكنك ان تعدى هذه التخصصات على الاصابع العشرة . وليس ثمة فرق فى ان انضم الى فيلق المشعوذين فى شانغهاى الذين يزاولون هذا العلاج ام لا . واذا ما زاد مشعوذ او قل واحد فليس الامر بذى بال .

ـ ما فائدة الطب ! اذا عالجت انسانا ثريا فاننى ازيد له فى عدد ايام استغلاله للفقراء . وان عالجت انسانا فقيرا طالت حياته فى المعاناة . ما فائدة الطب ؟ أفضل الموت جوعا ولا اكسب اموالا بهذه الوسيلة القذرة .

ـ يمكن للطب ان يستأصل شأفة الطفيليات والبكتيريا ، فهل يمكنه ان يدمر النظام الاجتماعى الذى ينتجهما ؟ ان براعة الطبيب الفائقة تستهلك فقط فى وصف حبات سوء الهضم للأثرياء او بتر ساقى معدم بعد ان تدهمه سيارة ! وبعد ان يقضى حملة السلاح على حياة ألوف الناس او يثخنوهم بجراحات ، فما على الطبيب الا ان يقدم لهم المراهم والضمادات . وماذا عن الاخوة والانسانية ! لا ، لا أريد ان ازاول الطب تحت ذرائع مزيفة .

واذا ما كان سريع الهيجان رد على زوجته على هذه الشاكلة بشكل لا يتغير .

وكانت تقول له :

— وجب عليك ان تتحمل الاشياء فى ظل النظام القائم .

— اذن أفضل ان اكون لصا — فاللصوص ينهبون ، على الاقل ، الاغنياء .

وكلما ذكرت زوجته تعليم اولادهم ، القى عليها محاضرة مطولة ينهال فيها على النظام التعليمى بالشتم ، وخصوصا التعليم فى ظل نظام رأسمالى . ولم يكن امام زوجته من خيار . واضطرت بعد ان عاشت معه مدة تقرب من سنة فى شانغهاى ، ان تعود الى اليابان مع اولادها ؛ وقالت له انها ستتمرن على مهنة القبالة هناك لعدة اشهر ، ثم تعود الى شانغهاى ، وقد تتمكن من تدبير الحياة . كان مستحيلا ان تترك اولادها فى شانغهاى — أرادت ان تصطحبهم معها . لقد حزمت امرها ، وكان كل ما فعله ان أقنعها بانتظار صديق كان سيعود الى اليابان فيصطحبها مع اولادها فى الرحلة .

انقضى كل اليوم الأسبق فى الانشغال فى شراء التذاكر واستدانة فلوس لنفقات السفر ، وقضى المساء فى حزم الامتعة ، ولم يذهبا الى الفراش الا فى وقت متأخر . وانطلقوا فى عربتين تجرهما الخيول الى رصيف هويشان فى الساعة الخامسة والنصف . وكانت انوار الشارع لا تزال متوهجة ، وكانت شانغهاى هاجعة فى الاحلام . ولما وصلوا الى رصيف الميناء على نهر هوانغبو كانت السماء فى الشرق قد تلونت بلون الذهب ، وبدأت الشمس عديمة الحس فى رحلة

يومها ، غافلة عن دموع فراق الاسرة . ولشد ما كانت فرحة اولادهما حال رؤيتهم للسفن ، اذ ولدوا فى بلاد بحرية فتولد لديهم حب موروث للماء والزوارق البخارية .

— الى اين هى ذاهبة ؟

— البعض الى اعالى نهر اليانغتسى ، وأخرى الى بلدان اجنبية .

— اوه ! قد زرنا تلك الحديقة من قبل . أ ليس كذلك ؟ ولكن اين السفينة المتوجهة الى اليابان ؟

— لا يمكنك ان تراها من هنا . ينبغى ان نذهب الى رصيف هويشان الذى ما زال على مسافة من هنا .

هذا الحوار جرى بينه وبين ابنه الاكبر ، فى حين قال الابن الثانى وهو بين ركبتى أبيه :

— لا أريد ان اذهب الى اليابان . سأبقى هنا مع أبى .

— لا ، يا ولدى . اذهب والتقط كثيرا من الصدف الذهبى من ساحل البحر لى . اننى سألحق بكم على وجه السرعة .

— مفهوم . . التقط الاصداف . لا بد ان الكثير والكثير منها لا زال هناك .

وبينما هو يتبادل الحديث مع ولديه ، ظل يفكر فيما قد تتعرض له ام شابة من احداث فى السفر ومعها ثلاثة اولاد وكومة من الامتعة الى اليابان عند ركوب السفينة او النزول منها او سيارة الاوتوبيس .

" حتى الموظف فى مكتب التذاكر قد ارتاع حين طلبت منه تذاكر لامرأة وثلاثة اولاد . فكيف اكون ، انا الزوج والاب ، قاسى القلب فأدعهم يسافرون وحدهم ؟ كان ينبغى ان اصطحبهم . وجب

ان افعل ذلك : عشرة يوانات كانت تكفى لتذكرة بالدرجة الثالثة الى ناغازاكى . وما احتاجه للذهاب والاياب ليس سوى ثلاثين الى اربعين يوانا على الاغلب ، بما فى ذلك نفقات الاقامة هناك لبضعة ايام . نعم ، كان يجب ان اذهب واياهم . سأشترى تذكرة على ظهر السفينة . هذا ما سأفعل . . . " ثم تذكر المجلتين اللتين يصدرهما واصدقاؤه والمقالات التى ينبغى اعدادها لكل عدد . فلو ذهب لصعب على اصدقائه معالجة الامر ، كما ان ثلاثين الى اربعين يوانا قد تكفى زوجته واولاده اسبوعين على الاقل فى اليابان . وليس هناك من داع لأن يحدث حادث فى الرحلة فالتنقل فى اليابان اسهل منه فى الصين .

" وعلى اية حال ، هناك السيدت سيعتنى بهم . لا يمكننى ان اذهب . لا ، لست بقادر . " وقلب هذه الافكار مرارا فى مخيلته . فمرة ، قرر ألا يصطحبهم ، وفى اخرى غير فكره حين فكر فى المشقات فى الطريق . بقى هذا ملازما له من طريق آننان الى رصيف هويشان .

كانت زوجته جالسة فى صمت ، طوال هذا الوقت ، الى جانبه ، حاملة ابنها البالغ سنة واحدة ، والذى ارتبك فى بداية الامر بسبب ارتجاج العربة ، وما لبث ان غرق فى نوم عميق بين ذراعى امه مثل فى مهده .

وصلوا ، بعد مسيرة ساعة ، الى رصيف الميناء . وكانت عابرة محيط عملاقة ، وعلى مؤخرها رسمت كلمة " ناغازاكى " ، راسية بالميناء على نهر هوانغبو الذى يدثره الضباب . ولم يكن يلوح امام البصر مسافرون ، عدا عمال التحميل والتفريغ — حتى صديقه لم

يكن هو الآخر هناك — وكان الرصيف مجللا بالهدوء . ولما حدد لهم ارقام المهاجع فى العابرة ، كان لا يزال تعذبه الحيرة والتردد :

ما اعظم ما كانت الفرحة التى غمرت الاطفال الذين صعدوا على الاسرة ينظرون من خلال الكوة الى النهر ، وشدت كنزاتهم بمسامير الجدار ، فقامت الام بتخليصها . وفتح الطفل واغلق كفيه الربيلتين كأنما يودع والده ، وناغاه ومد اليه ذراعيه ليحمله . وما ان وضعه على ركبتيه حتى امسك برقبة ابيه ، وصار يقفز اعلى واسفل بقدميه النحيلتين .

وقال لزوجته ينصحها :

— البيوت اليابانية شديدة البرودة : لا تحاولى ان توفرى فى الفحم ما دمنا قادرين على تحصيله .

اخذت تتحسس يديها ، وتقول كأنما تحدث نفسها انها اذا ما عادت الى اليابان فستنقل الماء وتغسل الملابس وتعد النار وتطهو الطعام ، ومن المؤكد ان تتفلع يداها وتنزفان دما .

— ينبغى ان تستأجرى شغالة فى هذه المرة : فعشرة يوانات قد تكفى لواحدة .

احمرت عيناها قليلا وقالت :

— ربما . سمعت منذ ان وقع الزلزال والشغالات لا يطلبن سوى الطعام والمأوى فى طوكيو . ولكن الامر مختلف فى فوكوكا ، حيث يتوجب تقديم الطعام والمأوى لهن الى جانب دفع الأجرة . ولذا لا تكفى عشرون يوانا لشغالة واحدة .

— سأحاول وأفكر فى وسيلة اكسب بها مزيدا من المال . . .

قال هذا وهو يشك فى قدراته على كسب المزيد . كيف ؟ ببيع مقالة ؟

بفتح عيادة خاصة ؟ ام بالانضمام الى زيغوما * الشانغهائى ويصبح عضوا فى عصابة ؟

– لدى بعض الاصدقاء فى فوكوكا ، يمكننى ان أدبر الامور بمساعدتهم . وعلى كل حال ، يمكننى ان أجد وظيفة . فلست ذاهبة لقضاء عطلة .

– ولكن معك الاولاد . لا يمكنك ان تتركيهم .

– سأحمل الطفل على ظهرى ، والكبيران يمكنهما قضاء الوقت فى اللهو على شاطئ البحر . فالوضع هناك افضل ، على الاقل ، من شانغهاى .

وعندما قرع الجرس الاول ، انحنت زوجته الى الامام ، وناولها قبلة متمهلة كابحا دموعه ، ثم قبل اولاده وناولها الطفل . وما زال السيد ت لم يظهر له اثر . هل تأخر بمحض الصدفة ام انه قرر ارجاء الرحلة ؟ لقد لام نفسه لأنه لم يعرج عليه فى طريقه الى الميناء . وصعد الى سطح الباخرة ليلقى نظرة .

كانت فى يده التذكرة التى اشتراها للسيد ت بالامس ، كان لديه نصف امل ان يجده هنا ، ونصف امل ان لا يطل كيما يصطحب اسرته معه الى اليابان . احتشد جمهور على رصيف الميناء ، بعضهم يلوحون بالقبعات ، والآخرون بالمناديل ، لاصدقائهم على ظهر السفينة . وظهرت من بعد عربة يجرها حصان وقفت عند مدخل الرصيف – كان مأمولا ان يكون السيد ت – قد كان هو نفسه ! حياه بصوت

---

* عصابة مسلحة من الصعاليك كانت شائعة فى مدن امريكا حينذاك .

مرتفع وقدمه لزوجته واولاده . وعندئذ ، قرع الجرس للمرة الثانية .

وقال لنفسه : " ما العمل ؟ أ اشترى تذكرة فوق السفينة ام اعود الى الشاطئ ؟ " وتناهى الى سمعه صوت زوجته يقول :

— ستشعر بتخفيف اعبائك لو غادرنا . يمكنك ان تركز على الكتابة . من الافضل ان تكتب اعمالا طويلة ، ولا تقلق علينا هناك . سنعود فى بحر اشهر معدودة او تأتى الى اليابان ، اذا امكن ، لتشاهد زهور الكرز ساعة ازهرارها حتى ترتاح قليلا .

انصبت هذه الكلمات فجأة فى اذنيه كمثل موسيقى نازلة من السماء : وكان هو ذات الصوت العذب الذى سمعه منذ سبع سنين حين وقعا فى الغرام مع بعض . وطار قلبه من الفرحة .

" اشكرك يا حبيبتى ، يا بياتريستى . كتابات اطول ؟ نعم ، الافضل ان ادبج كتابات اطول . كتب دانتى ' الكوميديا الالهية ' لحبيبته ، وانا سأسطر عملا طويلا لك حتى تعيشى الى الابد . آفا ماريا : انت الانسانة الخالدة . . . " قرر البقاء فى شانغهاى . وصافح السيد ت وطلب منه مرة ثانية ان يقدم يد العون لزوجته فى الرحلة . ثم خرج من القمرة ، رافضا ان يسمح لزوجته بالذهاب الى سطح السفينة حتى لا يراه الاطفال مغادرا فيبكون .

اطلقت صفارة السمينة وماج نهر هوانغبو ! واخذت السفينة تشق طريقها فى بطء الى المحيط . وغادر الرصيف حين لم يعد بوسعه ان يرى السيد ت على ظهر الباخرة .

" نعم . مؤلف طويل . يتحتم ان افعل شيئا فى الشهر او الشهرين القادمين . اعرف ما ينبغي ان يكون العنوان : « النور الالهى» . أ لم

يكن هناك نور الهى بين حاجبيها عندما قابلتها لأول مرة منذ سبع سنين ؟ آفا ماريا ، الانسانة الخالدة ، بياتريستى ، والنور الالهى . "
وبينما هو يصعد الترام ، القى بقليل من القبلات المكتومة نحو نهر هوانغبو !

خيم عليه الهدوء بفضل الرحلة الطويلة بالترام ، وأتاحت له وقتا للتفكير . فكر فى حياته المتقلقلة ومنجزاته الادبية فى السنوات الاخيرة . " آه ! قد كنت غير حاسم كثيرا فى حياتى . ما يراودنى من مثل لا يمكن تحقيقها ، وما قد تحقق فليس مثلى . لقد تشوش ذهنى طويلا وبددت احلى سنوات عمرى . ماذا انجزت فى السنوات العشر السالفة ؟ واضح اننى تخليت عن الطب . كتبت عددا من القصص والقصائد عندما كنت منفعل المزاج ، ولكن هل ذلك يكفى ؟ ما المهارة التى حذقت ويمكننى ان ازهو بها ، وماذا كتبت ويمكننى ان اسعد به ؟ آه ، يا للعار ، كيف أقارن نفسى بدانتى ! لست الا متبجحا ، ويا للعار . من انا ؟ " بدا كما لو انه هوى من اشد الكواكب وهجا الى هاوية حالكة السواد . واصبح تشجيع زوجته له عبأ ثقيلا ، وبدا وعده لها مستحيل المنال . شعر برأسه ثقيلا وقلبه يتقد نارا . لو كان الترام فارغا لصب قلبه من البكاء .

غلب عليه عجزه دوما منذ عدة سنوات . وكلما طالع المزيد من المؤلفات الاجنبية كلما ادرك عجزه القاتل . كانت حياته فى منتهى البساطة ، ولم يستطع ان يعبر عن بنات افكاره بما يكفى من الفصاحة . شعر بالاجهاد والاذلال ، وبدا عاجزا عن كتابة أى شىء ، وبدا ان ما قام به عديم الجدوى — انتقادات أدبية

وترجمات مسلوقة ، كانت بدائل ضعيفة من الاصل .

" ما قيمتها بالنسبة لى ؟ لقد وسمنى المتعاطفون معى والنقاد بالعبقرية ، ولكن اى عبقرى أنا ؟ آه ، ينبغى ان اخجل من نفسى ، فقد تظاهرت على نحو صفيق اننى عفيف النفس وارفع مقاما . والآن ، لا يمكننى ان اعيل زوجتى واولادى ، وتركتهم يدبرون امرهم بأنفسهم . لماذا اخادع نفسى والآخرين ؟ لست انسانا صالحا على اى حال . "

تذكر قصيدة من اشعار جون دافيدسون تدور حول موسيقار عاطل عن العمل ، ينتحب وهو ممسك بجسد زوجته الحبيبة البارد والهزيل .

غرقنا فى لجج النسيان
وفى الأذهان
ما زالت من أرض الأجداد
بنا ذكرى
ما عندى الا
عملى ، زوجى ، ولدى
فأين الله ؟!

القى هذه المقطوعة ليحدث وقعا مع الترام كما لو ان الكلمات نابعة من قلبه . وعندما اخذ يفكر ، ادرك انه ليس تماما كالموسيقار الذى تجوهلت ألحانه ، والذى سوغت له الشكوى ضد العالم وضد الاله . اى حق بيده ؟ كيف له ان يتذمر ضد العالم وضد الاله لأنه ارسل زوجته واولاده بعيدا ؟ لقد لقى الموسيقار نحبه حدادا على زوجته ، بينما اختار وزوجته واولاده طريقهم بمحض ارادتهم . أما زوجته

فهى تمخر عباب البحر المثير للمهالك وهو يحلم بالمستحيل .
وهجم عليه الندم ثانية لأنه لم يشتر تذكرة على السفينة ويصطحبهم
الى اليابان .

" لماذا لم اذهب وأشاطرهم حياة المشقة ؟ اننى انانى وغير
مسؤول . "

استولى عليه الحزن وتملكه . ونقله الترام ، محدثا قعقعة ، عبر
الشوارع النابضة الساطعة ، فى حين ظل صامتا مثل الميت . عزم ان
يعود الى بيته ولكن غرفته كانت مخيفة تبدو كأنها أشد شؤما من الموت
هناك . وعاد وخرج من الزقاق وهام تحت الاشجار على جانبى طريق
للدير الهادئ وعيناه الداميتان تحدقان الى الامام . وقد غفل عن
اصوات ودمدمة السيارات . وتوقف عند ركن فيلا تسانغتشو ، وحماق
فى الانوار الحمراء التى احب اولاده النظر اليها حين كانوا يتمشون
هناك ، ثم عبر طريق شيمو وسار جنوبا باتجاه طريق فوشو الى ان
اقترب من منطقة جامعة شنغتشى . فى ذات مساء من اواخر الصيف
الماضى ، وبينما كان واولاده يتمشون هنا ، شاهدوا سنونوة تسقط
من شجرة سامقة ، فجرى الاولاد وراءها وامسكوا بها . وتذكر ان
قريحته جادت بقصيدة فى ذلك اليوم :

المنجل الذهبى وحيدا يلمع
ونحن نتمشى
فى ظل الشجر الوارف
والنسيم البارد

يلطف حر الشمس الآفلة
من أغصان دوحة
سقط زغلول دورى
راح يسقسق خائفا
وهو يحاول ان يهرب
من أولادى
الذين راحوا يطاردونه
بأذرع مفتوحة ممدودة
ترددت فى صدرى آهة حزينة
" يا أولادى
ما اشبهنا بطير لا عش له
يهيم فى عالم غريب دميم
فأين المفر
من الأذرع الممدودة
ورشقات الحصى"
بابتسام واذرع مفتوحة
يتراكض أولادى خلفه
خليين من مرارة الحياة
فلم لا أنسى مرارة الحياة
وأعود الى عهد الطفولة
ولكن
لماذا تظل زيزان الحصاد
تصرخ بلا انقطاع
مات . . . مات . . . مات

وبينما هو مستند الى شجرة ، قارن حياة اسرته المعدمة الماضية بوحدة العزلة الحالية ، ولم يقدر على مسك دموعه . شعر انه اشبه بروح وحيدة فى عالم معاد حين تذكر كل المقالات البذيئة ضده فى صحف بكين وشانغهاى . وعلى حين فجأة ، ظهر كأنما وجه باسم كئيب استتر تحت عجلات كل سيارة ، جثمان ميت فى الشارع ، لطخت التراب دماؤه وامعاؤه ودماغه ، وخرجت العينان من محجريهما .
" نعم . تلك نهاية سريعة : فليتأمل اعدائى المشهد ، ولكننى لن اعبأ ولن اكترث . ولكن كم من حزن تشعر به زوجتى واولادى وكم من خيبة امل يشعر بها اصدقائى . غادرت مع الاولاد لتخفف العبء عن كاهلى ، وتشجعنى ان اكتب مؤلفات طويلة . ووجب على تزويد المجلات بمقالات فى كل اسبوع مثل افراخ الطائر تنتظر الغذاء . هل يمكن ان اموت الآن ؟ لا ، لا يمكننى ذلك . كم اصابنى الشؤم اليوم ! عندما وصلت الى اليابان قبل عشر سنين كنت جثة حية الى ان بعثت زوجتى حياة جديدة فى روحى . وعلاوة على ذلك ، لم أبدد حياتى سدى فى هذه السنوات القليلة الماضية ، ولم يحن الاوان لأن ادمر نفسى . لابد ان زوجتى واولادى قد عبروا البحر الاصفر الآن . فلأعد الى البيت واحول 'النور الالهى' الى كلمات فى غضون الشهر القادم او يزيد . "

عاد الى البيت بطيئا ، واخذ يفكر كيف فر الى اليابان من زواج فرضته عليه عائلته وكيف لم يعبأ بشىء حتى سقط فى هوى زوجته الحالية واستعاد ثقته بنفسه من خلالها . ووصل الى البيت ، وكانت الساعة فى القاعة تشير الى ما بعد الواحدة . وسألته الخادمة ما اذا





اراد شيئا ليأكل . فهز رأسه وصعد الى غرفته . ولما فتح الباب لفحت هبة باردة وجهه فجفل . وقف فى وسط الغرفة فاغرورقت عيناه بالدموع على مرأى سريرين احدهما عار من اى شئ والآخر ما زالت عليه الالحفة التى استخدمها وتهاوى الى كرسى مجدول عند المكتب كما لو دفع اليه . ففتح درجا معتقدا ان العمل هو وحده الذى قد يطرد وحدته ، فلم يجد غير صفحات ممزقة من مجلة ابنه مجلة الاطفال ودمية بدون ساقين . صارت هذه القطع من النفايات نفيسة ، فأحب ان يحافظ عليها سليمة ، ففتح حقيبة مجدولة ، فلاحظ بداخلها معطفا محشوا بالقطن اعتادت زوجته ان ترتديه . فدفن وجهه فيه ، وآلمه العبير الخفيف المنبعث من جسدها .

اغلق الحقيبة ، وجاس الى المكتب وفرد قطعة ورق امامه ، وغمس فرشاته فى الحبر وكتب " النور الالهى" عليها . وهنا توقف . كيف يبدأ : أ يشرع من البداية مثل كتابة التاريخ ام بوصف المكان والزمان كالمسرحية ؟ استخدام الارتجاع الفنى ام السرد القصصى مباشرة ، ومن وجهة نظر شخصية واحدة ام عدة شخصيات ؟ وبلسان المتكلم ام الغائب ؟ من أين يبدأ فى وصف سنيه العشر الاخيرة ؟ أحنى رأسه ودماغه يغلى ، واسند رأسه على يده اليمنى ، واخذ يتعمق فى التفكير ولكن بلا طائل . لم تأت ومضة الهام من مخه المتعب المشوش الذى بدا متبلدا كمصباح حجرى فى دير خرب . وعلى كل حال ، كان مسمعه حادا على نحو شديد ، كان وقع اقدام جارته تصعد الدرج تشبه وقع اقدام زوجته ، وصياح اطفال الآخرين يشبه صياح طفله تمام الشبه . ولكن اين زوجته واطفاله ؟ لابد انهم عبروا

للبحر الاصفر الآن .

واخذ يتضرع ملقيا فرشاته جانبا : " أرجو ان يصلوا بسلام الى فوكوكا غدا . دماغى لا تريد ان تعمل اليوم ! " وخلع معطفه وهجع الى الفراش وفى اذنيه ترن قعقعة حوافر الحصان وصفارة السفينة وصوت المرساة الضخمة فى الماء . وومضت ، امام عينيه ، صور مريم العذراء تحمل جرة ماء مكسورة ، والبحر الاصفر ، وصدف ، وسنونوة بلا عش ، وبياتريس ، ومعطف محشو بالقطن والنور الالهى . . . .

وتسلل نور بارد فى الغرفة الخالية واخذ دماغه المجهد يفقد الوعى رويدا رويدا .

مارس ١٩٢٤

كلمة عن المؤلف

كو مو جو (١٨٩٢ – ١٩٧٨) : من مواليد سيتشوان . كان شاعرا ومؤرخا وعالما بالآثار وعالما بالبليوغرافيا ونشيطا سياسيا ومناضلا فى حركة السلام العالمية . فى ايام شبابه درس فى اليابان . وبدأ حياته الادبية لدى عودته فى سنة ١٩٢١ ، واسس الجمعية الادبية المشهورة : " جمعية الابداع " . وقد الهمت الاناشيد فى مجموعتيه الشعريتين : « الالاهة » و« السماء المرصعة بالنجوم » وروايته « ثلاث نساء ثائرات » ، كثيرا من الشباب للمساهمة فى النضال الثورى .

تولى كو مو جو منصب نائب مدير الادارة السياسية للجيش الثورى الوطنى فى اثناء حرب الحملة الشمالية (١٩٢٦ – ١٩٢٧) . وفى سنة ١٩٢٧ ، وعندما اتضحت خيانة تشيانغ كاى شيك للثورة ، عارض كو مو

جو جرائم تشيانغ كاى شيك جهارا فى الصحافة . وشارك فى انتفاضة نانتشانغ فى اغسطس ١٩٢٧ ، وهرب بعد فشلها الى اليابان حيث درس تاريخ الصين القديم هناك . ان " دراسات فى المجتمع الصينى القديم " هى اول دراسة تاريخية اجراها عالم صينى من وجهة النظر الماركسية . كما قدم مساهمات عظمى فى دراسة اللغة الصينية القديمة من خلال مؤلفه عن المخطوطات المنقوشة على العظام والنقوش البرونزية .

عاد كو مو جو الى الصين بعد اندلاع حرب المقاومة ضد العدوان اليابانى فى سنة ١٩٣٧ ، ليساهم فى المجهود الحربى . وفى اثناء الحرب اصبح حامل لواء يشار اليه بالبنان بين الفنانين والادباء التقدميين حين كان يعمل فى المناطق الخاضعة لسلطان الكومينتانغ . وكانت روايته « تشيوى يوان » التى كتبت فى سنة ١٩٤٢ ، حدثا تاريخيا هاما ، مظهرة غضبة الشعب فى تعبير شديد القوة فى المناطق التى سيطر عليها الكومينتانغ فى تلك الايام .

ان الكثير من كتابات كو مو جو الادبية والسياسية والخطب المثيرة التى القاها فى مختلف اللقاءات فى اثناء الحرب وبعدها ، قد اكسبته حب الشعب وحقد رجعيى الكومينتانغ . واخيرا ، اضطر فى سنة ١٩٤٧ ان يلجأ الى هونغ كونغ حيث واصل يكتب مقالات هامة حول دراسة المجتمع الصينى القديم وتاريخ الفكر السياسى . ونشرت هذه المقالات ، فيما بعد ، فى مجلدين بعنوان : « عشر مقالات نقدية » و« العصر البرونزى » .

واستمر ، بعد ولادة جمهورية الصين الشعبية فى العام ١٩٤٩ ، منهمكا فى اعمال الابداع الادبى والدراسة الاكاديمية . ونشر كثير من رواياته التاريخية واشعاره . وقد اثنى المؤرخون على « عصر النظام العبودى» الذى كتبه ثناء عظيما لما تضمنه من فكرة جديدة حول مجتمع النظام العبودى والنظام الاقطاعى فى تاريخ الصين .

وهذه القصة « مفترق الطرق » جزء من روايته المبكرة « ثلاثية التائه » التى تحكى حكاية مثقف برجوازى يعترف ، خطوة فخطوة ، بالوجه المريع للمجتمع القديم .

انتخب كو مو جو ، فى سنة ١٩٤٩ ، نائبا لرئيس اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى ، ونائبا لرئيس مجلس الدولة ، ورئيسا للجنة الثقافية والتربوية التابعة للحكومة ، ورئيسا لأكاديمية العلوم الصينية ، وشارك فى مؤتمر السلم العالمى فى سنتى ١٩٤٩ – ١٩٥٠ . وفى المؤتمر الثانى ، انتخب عضوا بمجلس السلم العالمى . ومنذ ذلك لعب دورا نشطا فى كافة اعمال مجلس السلم العالمى . وفى سنة ١٩٥٢ ، جرى له تكريم بمنحه جائزة ستالين الدولية لتعزيز السلام بين الامم .

يه شنغ تاو

السيد بان ينجو من العاصفة



١

كانت المحطة غاصة بالناس ، كل منهم مشغول بهمومه ، واعتراه القلق نوعا ما . ووقف الحمالون ، وأيديهم فى جيوب ستراتهم المرقمة ، بلا حراك كأنما هم نائمون وقوفا على اقدامهم . كانوا يعرفون انه ما زال امامهم وقت طويل ، لم يأت اوان البقشيش الذى كانوا يأملونه ، لذا لم يكن ثمة دلالة على مظهر حيوى فى تلك الآونة . وجعل الجو الخانق التنفس عسيرا نوعا ما ؛ كان اشبه بالجو المطير . وكانت الانوار التى اضيئت وقتا اعتم من المعتاد ، فظهر كل شىء كالغارق فى الضباب .

قال اشعار على السبورة ان القطار القادم من الغرب سيتأخر اربع ساعات . وكان هذا الاشعار قد قرئ منذ ساعات لكنه الآن اصبح مثل الاعلانات المسرحية القديمة المهلهلة التى تلعب بها الرياح دون ان تجذب ولو نظرة واحدة من اى كان . ولما كانت مثل هذه الاشعارات تعلن عن كل قطار يصل هذا الاسبوع فقد صارت شيئا متوقعا .

واخيرا ظهر هذا القطار الذى شغل كثيرا من الناس : وصارت المحطة الكئيبة خلية من نشاط . وهنا لن نتحدث عن اطمئنان المسافرين الذين وصلوا الى خاتمة المطاف فى رحلتهم ولا فرحة مستقبليهم ولا

البقشيش الذى يتقاضاه الحمالون . وما يهمنا هو السيد بان الذى قدم من بلدة صغيرة مجاورة تدعى رانغلى . وقد تمكن من ترتيب كل شىء على هواه قبل ان يتوقف القطار فى المحطة : كان على رأس اسرته الصغيرة ، تحمل يمناه حقيبة جلدية سوداء وتقود يسراه ابنه البالغ ستة احوال . وكانت يد الولد تمسك بيد اخيه ابن الثمانية اعوام الذى بدوره امسك بيد امه . قال السيد بان انه لن يقدر ان يأخذ باله منهم ما لم يمسكوا ببعض على هذه الشاكلة ، لأنهم وأيديهم مشدودة الى بعض يقدرون ان يشقوا طريقهم كالأفعى اينما ارادوا الذهاب . وكرر القول على افراد اسرته ان يشدوا ايديهم باحكام ، وان لا يفكوها مهما حدث . وظل يهز يسراه كى لا ينسوا مذكرا اياهم ألا يسمحوا لأحد بأن يخترق صفهم .

من الطبيعى ان يكون تشكيل الخط جيدا ، ولكنه بلا جدوى ايضا ، فلما ابطأ القطار ليتوقف ، اندفع جميع الركاب ومعهم امتعتهم باتجاه الباب . وفى هذه العجلة ، تعرض الخط الذى شكله السيد بان وافراد اسرته لدفع الثمن بسبب طوله . ولكن السيد بان مستخدما حقيبته الجلدية السوداء لشق الطريق ، دفع بصدره وبطنه فى حيوية ونشاط الى ان صار على بعد من الباب بمقدار شباكين . اما ابنه البالغ ست سنوات فكان على بعد اربعة شبابيك ، منحشرا بشدة بين الركاب الآخرين والمقاعد الخشبية . وشعر الولد ان اوصاله عما قريب ستتفكك ، اذ كان يمد ذراعيه فى اتجاهين ويشدهما بقوة من كلا الطرفين . وصار يندب فى يأس : "آه ، ذراعى ! ذراعى ! " لم يتنبه الركاب الآخرون ان طفلا محشورا بين سيقانهم الى ان وصلت

صرخاته الى مسامعهم . وكانت نظرة عن قرب تكشف ان هذه الاسرة المكونة من اربعة افراد مرتبطة فى خط طويل والايدى محكمة الشد .

وقال راكب بلهجة الآمر : " فك يدك على وجه السرعة ، والا فستمزق الطفل . "

وتمتم آخر ، وكانت نغمته عبقة بالاحتقار ، كان يتقدم باتجاه الباب : " ما هذا ؟ لم لا يحمل الرجل الطفل ؟ "

" لا . " لا يتفق السيد بان معه فى الرأى . ثمة اسباب وجيهة لأن يمسكوا ببعض . وعلى كل حال ، قد ادرك حين فكر من جديد ان لا احد يتمتع بما يكفى من الذكاء ليدرك هذه الاسباب ، وان النقاش معهم لمضيعة للوقت . ولكن ابن الستة اعوام ما زال يصرخ : " ذراعى ! ذراعى ! " ولما لم يكن امام السيد بان من وسيلة للتقدم او الرجوع ، فانه كان اول من ينتهك نصائحه وترك يد الطفل . وقد امر واهتاج وقلق : " لا تبعد عينيك عنى ، لا تحجب ناظريك عنى . "

توقف القطار محدثا ضجة ورجة . واندفع عدد من الناس من باب الحافلة ، وشعر السيد بان بضغط من الامام سرعان ما استرخى لكن الدفع من الوراء وصل الى اوجه ، فحملته ساقاه دون اى جهد من جانبه . اراد ان يستدير ليستجمع قواه الواهنة ، ولكنه اكتشف ان ذلك محال فنادى من وراء الرؤوس امامه : " اتبعونى عن كثب ! اتبعونى ! "

وقذف من الباب فى نهاية المطاف . وسرعان ما استدار ، فاكتشف ان زوجته وولديه ليسوا وراءه ، فقد حشروا فى مكان ما بالقطار .

وبدا له الانتظار بالباب افضل حل ممكن . ونزل مئة راكب او ما يقرب من ذلك قبل ان يظهر وجه ابنه الاصغر المغمض العينين الغارقتين فى الدموع ، تحت نور المصباح . فأسرع السيد بان وشد ابنه من ذراعه اليسرى وانزله من القطار وذلك بعد ان دفع الى الخلف عدة مرات . وان هى الا لحظات حتى ظهرت زوجة السيد بان وابنه صاحب الثمانية احوال . فركضت لاهثة وصدرت منها انات الم ، وحولت نظراتها الكئيبة الى محيا زوجها كمثل طفل يطالب عزاء وساوى .

وفوق ذلك ، كان السيد بان رجلا يتحلى بنوع من الحضور العقلى . وها قد استجمع قواه ، فأصدر امرا آخر : " ينبغى ان نشبك ايدينا مع بعض ثانية . انظروا الجمهور على الرصيف وانظروا الى عنق الزجاجة عند الخروج . ان لم نشبك ايدينا فى بعض فسيفقد كل منا الآخر . "

اخذ التعب من ابن الست سنوات ، فشد ساقى والده وقال : " احملنى يا ابى . "

احتد السيد بان سخطا وقال : " انت ايها المزعج الصغير ! " ولكنه كبح جماح نفسه ، وانحنى وحمل ولده . وقال لابنه الاكبر ان يمسك بذيل جلبابه الطويل بيد وبجلباب امه باليد الاخرى .

لم يسبق لعقيلة بان ان شهدت مثل هذا العذاب ابدا . وان مشهد حشرة كبيرة كان اكبر مما تتحمل بعد عناء الخروج من القطار . وقالت متذمرة : " لو كنت اعرف ان هذا سيحصل لبقيت فى البيت وانتظرت الموت خيرا من الخروج واكون لاجئة . "

واختلط زعل السيد بان بشىء من العاطفة فقال : " ما فائدة

الندم ؟ نحن هنا الآن ، فلماذا الندم ؟ نحن فى امان هنا على الاقل . فلنذهب . حاسبوا على خطواتكم ! " وتهادى الاربعة معا بين الجمهور .

حدث تدافع محموم وظهر السيد بان ، كأنه كان فى حلم خارجا من ممر التذاكر الضيق . لم يكن امامه خيار سوى ان يجرفه الحشد من حوله ، كمثل نقطة ماء فى تيار ، حتى لم تكد قدماه تمسان الارض . وفى لحظة كان قد اجتاز السور الحديدى لمحطة سكة الحديد وعبر خط الترام ووصل الى الرصيف الاسمنتى للشارع بالخارج . التفت مسرعا فلاحظ ما لا عد له من الوجوه الشاحبة تحت انوار المصابيح وما لا يحصى من الحقائب والصرر تتدحرج باتجاهه . وفجأة اكتشف ان اليد الصغيرة التى كانت تمسك بذيل جلبابه الطويل لم تعد موجودة ، لا يعرف اين ذهبت . وطفح قلبه بحزن لا يوصف ، ولف رأسه حوله فى حركة آلية . ولكن لا اشارة على زوجته وابنه . وشعر انه فقد اسرته . وبدأت الانوار والاشكال حوله تسبح كما الدموع ملأت مقلتيه .

ومن يمن الطالع ، كان الطفل الذى معه حاد النظر . فأشار قائلا : " امى هناك . " كان قد دقق النظر وعرف الشرابة على جبين امه .

وما اعظم ما كانت فرحة السيد بان . فرك عينيه اولا بأطراف ملابس الطفل قبل ان يوجه نظره ناحية ما اشار لأنه لم يكد يصدق النبأ السار . وبعد قليل من النظر ، لمح زوجته تتحرك شمالا ويمينا بين الجمهور ويداها تطوقان ابنهما الاكبر . وكانا لا يزالان على الجانب الآخر من خط الترام . فنادى عليهما واسرع تجاههما وعاد

بهما الى حيث كان واقفا على الرصيف وانزل ابن الستة اعوام واطلق تنهيدة تنم عن الراحة . ثم قال وهو يمسح وجهه : "كل شيء على ما يرام الآن ! " والحق ، كان كل شيء على ما يرام ، لأنهم اذا ما عبروا ذلك الحاجز السلكي فقد يأمنون من الحرب والنيران واعمال السطو . وعلاوة على ذلك ، وجد ابنه وزوجته المفقودين ، وكأنه قد انقذ اربعة ارواح وحقيبة سوداء من بين فكي مصيبة . كان كل شيء على ما يرام حقا . ونادى السيد بان بابهجة الآمر : " ركشة ! " فتوقف عدة رجال من جاري الركشة وسألوه الى اين يذهب . فرفع رأسه فى خفة كما لو انه يضيف الكبرياء الى كلماته ولوح باصبعين : " اثنتين فقط ، نريد اثنتين فقط . " ثم استطرد يقول بعد هنيهة من تفكير : " عشر قطع نحاسية . من يرغب فى توصيلنا الى الشارع الرابع بعشر قطع نحاسية ؟ " قد يكون فعل ذلك ليريهم انه يعرف طريقه فى شانغهاى .

اتفقوا على ركشتين فى مقابل اثنتى عشرة قطعة نحاسية ، بعد مناقشة طويلة نوعا ما . وركبت السيدة بان وابنها الاكبر فى واحدة ، وركب السيد بان وابنه الاصغر والحقيبة السوداء فى الاخرى .

وسدت الطريق ذراع ممتدة لشرطى هندى على كتفه بندقية ، حالما هم صاحب الركشة بالمسير . وبسبب هذا المظهر المرعب خبأ ابن السيد بان رأسه فى احضان ابيه .

فقال له ابوه : " لا شيء يخيف . ما هو الا شرطى هندى . انظر الى عمامته الحمراء . جئنا الى هنا بسبب عدم وجود شرطة من امثاله فى موطننا . وسيستخدم بندقيته لحمايتنا . انظر الى لحيته المثيرة


公司
減價
拍賣
小丁 82.



فهى مثل لحى الكهنة فى المعابد . "

اشتد فزع الطفل فلم يستطع النظر الى لحية مثل لحية الارهت . ولم يرفع ناظريه الا حين صك مسمعه رنين الترام ، فرأى غرفة شديدة الانارة انسلت فى ومضة طرف . وعلى الجانب الآخر من الشارع ، بيوت ساطعة ايضا مليئة بحاجيات تزغلل العيون . واخيرا رفع رأسه عن صدر ابيه .

ولما وصلوا الى الشارع الرابع ، بحثوا عن غرفة فيما لا يقل عن ستة فنادق علق كل منها لافتة تحمل "كامل العدد" . وكانت تكفيهم نظرة واحدة انه لا طائل من وراء ملاطفة المدير فى ان يقدم لهم غرفة لأن السرائر المؤقتة قد وضعت حتى فى قاعة الانتظار . ومن الواضح ان الفنادق كانت كاملة العدد حقا . واخيرا قابلهم موظف فى فندق ، تشدق متكاسلا :

— تريدون غرفة ؟

— نعم . نريد غرفة . هل لديك واحدة ؟

وراود السيد بان شعاع من امل جعله يحس انه قد وصل الى بيته هو .

— لدينا غرفة اخلاها النزيل الاخير منذ لحظات فقط . فقد استأجر منزلا . ولو كنت تأخرت بضع دقائق لكان اختطفها نزيل آخر !

— فلنأخذ تلك الغرفة .

ثم انزل السيد بان ابنه الاصغر ، واستدار ليساعد زوجته وابنه الاكبر على النزول من الركشة . وقال لهما : " لقد حالفنا الحظ .

فقد وجدنا غرفة فى نهاية الامر . " وعندما حان وقت الدفع لصاحبى الركشتين ، تكارم فدفع قطعة نحاسية زيادة عما اتفق عليه . وكان يعتقد انه اذا ما احسنت فى معاملة الآخرين عندما يصادفك حسن الطالع ، استمر الحظ حليفا لك . ولكن بدا على صاحبى الركشتين انهما غير ممتنين . فقد قالا انهما قضيا وقتا طويلا فى نقلهم من فندق الى آخر ، فوجب على السيد بان ان يدفع لكل منهما خمس قطع نحاسية اخرى . وفى النهاية ، جاء عامل الفندق للتوسط ، ودفع السيد بان اربع قطع نحاسية زيادة .

كانت الغرفة فى الطابق الارضى . ولم يكن فيها مع السرير والمصباح والمنضدة وكرسيين سوى الدخان . ولما دخل السيد بان مع افراد اسرته ، عبق انفه برائحة كريهة من السمك المحمر مختلطة برائحة بول نتنة . فتمتم السيد بان فى ضيق : " ما انتنها رائحة ! " ومن الباب المجاور ، وصل اليه طشيش طعام مقلى فى زيت حار ، فمن الواضح ان المطبخ كان على قرب منه . وعلى كل حال ، رأى السيد بان انه مهما كانت الرائحة المنتنة لا تبعث على الارتياح ، فهذا افضل من ان يموت ، او لا يجد سقفا يستره ، وسرعان ما هدأت نفسه وانسدح على مقعد مرتاحا .

وسأله عامل الفندق وهو يضع الحقيبة السوداء :

ـــ أ تريدون عشاء ؟

فرد الابن الاصغر ماصا اصابعه :

ـــ اريد حساء فخذ خنزير مع الارز .

ورمقته امه بنظرة حادة وقالت :

ـ تريد حساء فخذ خنزير مع الارز حقا ! نحن لاجئون ، وقد اسعدنا الحظ ان نجد ما نأكل ، فكيف تسأل عن هذا وذاك !

ولم يكن حال الابن الاكبر بأحسن من حال اخيه . وتوسل الى ابيه يقول :

ـ ما دمنا الآن فى شانغهاى ، فأنا اريد بعضا من طعام غربى .

امساك الغضب الآن بتلابيب السيدة بان . ونظرت الى ابنها الاكبر وقالت له فى قسوة :

ـ على فكرة ! انت تستحق ألا تأكل شيئا . ببساطة : ينبغى ان تموت جوعا . . .

وتبلل السيد بان بالحرج . وقال محاولا تلطيف الامور :

ـ هؤلاء اطفال .

ثم قال للعامل :

ـ اكلنا فى القطار . احضر طبقين من الارز المفلفل مع البيض كفاية .

هز النادل رأسه هزة لم توح بالموافقة ولا بالنفى ، وغادر . وما كاد يخرج من الباب حتى استدعاه السيد بان ، وقال :

ـ احضر لى كاتى * من نبيذ شاوشينغ وبعشر فنات سمكا مدخنا .

وما ان تلاشى وقع اقدام العامل حتى قال السيد بان لزوجته وقد بدا عليه الارتياح وارتفاع فى المعنوية : " علينا ان نرتاح قليلا

---

* الكاتى : وحدة وزن صينية .

الآن ونشرب لأننا قد ابتعدنا عن مكان محفوف بالاخطار الى هذا المأوى حيث لا يصيبنا أذى . هذا شيء ينبغي الاحتفال به . كنتما انتما الاثنين مفقودين وقد مررت بلحظات عصيبة حتى وجدتكما . كنت على وشك ان يتملكني الاهتياج من القلق . ولكن الابن الثانى كان حاد الذهن . " وجذب السيد بان ابنه قريبا منه ومسح على رأسه بلطف ، وقال : " لقد لمحكما فورا فاستطعت ان اجدكما . وهذه مناسبة اخرى للاحتفال . كل شيء رائع فلنرتح ونتمتع بقليل من الاقداح . " ورفع كأسا وهميا الى شفتيه مشرقا بالسرور .

لم تنبس زوجته ببنت شفة . كانت تفكر فى بيتها . حقا ، قد حزموا ما لديهم من نفائس ووضعوها فى مكان امين فى كنيسة ، ولكن ما زال عدد من الاشياء متروكة فى البيت . وكانت غير موقنة ما اذا كانت وانغ ، الشغالة ، اهلا للثقة . ولا تدرى ايضا ما اذا كان جيرانهم البائسون يدرون ان كل افراد اسرتهم قد غادروا ولم تبق الا الشغالة ترعى البيت . ولا تدرى ان كانت الشغالة ستتذكر ان تغلق كل الابواب والنوافذ ليلا . كما تذكرت دجاجاتها الثلاث السمان فى الفناء الخلفى والبنطال الذى لم تكمل عمله لابنها الاصغر وسلطانية البطة المطهوة فى المطبخ .... هذه الافكار التى ومضت فى ذهنها جعلتها فى ضيق اى ضيق . وقالت متنهدة : " لست ادرى اى مصيبة سيجلبونها الى البيت . "

وسرى ، فى الطفلين ، احساس بخيبة الامل : فقد شعرا على نحو مبهم ان شانغهاى هذه التى وصلاها منذ قليل ليست مثيرة ولا آسرة كمثل شانغهاى سمعا كثيرا عنها من ابويهما .

وتسللت نقط المطر من النافذة . وصاح السيد بان واقفا بقرب النافذة : " الدنيا تمطر فعلا . من حسن حظنا انها لم تمطر قبلا . " وفجأة وقع بصره على اعلان للفندق فوق الجدار كان نصف مستتر بالنافذة المفتوحة . فتذكر اهم شئ وثبت عينيه دهشا على قطعة الورق .

وصاح صيحة مروعة : " يا لهف نفسي ! يوانان ، لا اقل من ذلك . " واستدار ينظر الى عيني زوجته ، لاهثا بسبب ما اكتشف .

٢

وعندما بزغ فجر اليوم التالى ، كان عمال الفندق يغطون فى سبات عميق على بضعة مقاعد مجموعة الى بعض فى الرواق . ولم يسمح المنور الضيق بكثير من النور . وكانت المصابيح الصفراء القاتمة ما تزال مشتعلة فى عدد من غرف الفندق . وكان السيد بان وزوجته يتبادلان الحديث . وقد استيقظ الولدان منذ وقت ، يراودهما امل فى ان تكون شانغهاى اليوم افضل من شانغهاى الامس . وطلب منهما والداهما ان يناما قليلا ، فبقيا فى الفراش يداعبان بعضا .

قالت السيدة بان وقد اعتراها قلق شديد :

— ارى من الافضل ان لا تعود . كيف تثق ان ما يقولونه فى الصحف صحيح ؟ ومذ مررنا بمثل هذه الصعاب الجمة فى تشردنا فلا معنى لعودتك .

— فى الواقع ، تراودنى فكرة قد تقع . فالمدير قو ليس بالانسان

الذى يدع الامور تجرى كما تشائين : " طالما ليس هنا قتال فمن الطبيعى ان تبدأ المدارس اعمالها المعتادة . " نعم ، هذا هو كلامه كما يبدو . انى اعرف هذا المراسل ايضا . فقد كان يعمل فى مديرية التعليم . لذا ، لا مجال للشك فى صحة تقريره . ومن هنا لا بد ان اعود .

وقالت السيدة بان وفى صوتها نغمة الم :

– ألا تعلم ان العودة خطر ؟ قد ينشب القتال فى غضون يومين او ثلاثة فى مناطقنا . ولنفرض انك عدت ووجدت المدرسة قد فتحت ابوابها ، فهل ترى ان الطلاب سيداومون ؟ الى جانب ذلك ، وحتى لو لم ينتشر القتال الى مناطقنا ، فان لديك جوابا لمدير التعليم اذا رغب ان يعرف عدم حضورك للتدريس . وما عليك الا ان تسأله : ايهما اهم : المدرسة ام حياة البشر ؟ وهو نفسه ليس بخالد ولا اظن انه سيعاتبك على عدم عودتك .

وقال السيد بان بنوع من الازدراء :

– انت لا تفهمين . هذا النوع من الحديث لا يستخدمه الا النساء السخيفات من امثالك ، وهن آمنات فى البيوت او فى الفراش . انت لا تتوقعين منى ان اذهب واتفوه بشيء مثل هذا ؟ لا تحاولى ان تمنعينى الآن .

وحملت لهجته استرضاء نوعا ما :

– لا بد ان اعود . لن يحدث ما فيه ادنى خطر : وانى اعرف كيف اتفادى الاخطار .

وابتسم السيد بان لدبلوماسيته الجديدة ، واضاف :

ــ والى جانب ذلك ، ألم تقلقى الآن على ما خلفناه وراءنا فى البيت ؟ فمتى عدت امكننى ان احفظ اشياءنا ، ومن ثم لا يعتورك اى قلق . وعندما تهدأ الامور قليلا سأعود فورا لأعود بك والولدين الى البيت .

ادركت السيدة بان انه لا وسيلة تجدى ابدا لمنع زوجها من العودة . ما اروع ان يعود الى البيت ويسهر على ممتلكاتهم ، ولكن اذا ما غادر فى مثل هذه الاوقات غير المضمونة فسيكون اشبه بلؤلؤة القيت فى بحر ، ولن تقدر على اعادته اليها . وتملكتها آلام الفراق والخوف من الموت . ولسعت الدموع جفنيها واوشكت تتهاطل فلم تقدر على النظر الى زوجها . وطرق ذهنها ان الدموع فى هذه اللحظة نذير شؤم ؛ لم تحدث مأساة وعليها ألا تبكى . فكبحت دموعها بكل ما لديها من عزم ، وقالت لتعزى نفسها فضلا عن الجدية الحقيقية :

ــ اذن ، عد وانظر كيف تجرى الامور . وان لم تقل مديرية التعليم شيئا عن بدء الدراسة وفق الموعد المحدد فعليك ان تعود فى قطار بعد الظهر ان استطعت ، وان لم تتمكن ففى قطار الصباح التالى . انت تعرف . . .

وهنا لم تستطع ان تتمالك نفسها ونزلت دمعة على ظهر يدها فمسحتها على وجه السرعة :

ــ اننى قلقة عليك كثيرا !

واحس السيد بان بارتباك شديد . ولما كان مدير التعليم يريد ان تبدأ المدارس كالمعتاد ، فليس من سبب مهما كان فى ان يصر على ان تبقى مغلقة . وكان من الطبيعى ان يعود . ولكن كيف لا

يقلق على اسرته فى هذا المكان ؟ لحظ مسحة الحزن على محيا زوجته . وبدا له ان من الظلم ان يترك زوجته وطفلين ، ضعيفة وعاجزة ، دون احد تركن اليه . كيف يتأكد ان شيئا ما لن يحدث لهم ؟ جعله كل ذلك يغلى غضبا . لقد غضب ممن يرساون الجنود لقتال هذا الجيش او ذاك ، وغضب من مدير التعليم الذى تحدث عن بدء الدراسة دونما تأخر ، وغضب من نفسه لأن ليس لديه ابن كبير يساعده .

وعلى كل حال ، ليس هو بامرأة ، وعليه ان يتطلع الى الامام . وعرف ان العودة هى اسلم شىء يفعله . واومأ برأسه ليظهر لها انه يوافق على رأيها ، متناسيا غضبه وبدون ان يظهر اثرا لقلقه الداخلى ، وقال يهدئها :

— ان تبين لى ان مدير التعاليم ليست لديه نية فى بدء المدارس فعلت كما قات وعدت فى قطار بعد الظهر .

رنت الجملة الاخيرة فى آذان الطفلين . كان رأس الولد الاصغر نصف مدفون فى الوسادة ، وقال متلعثما فى لهجة طفولية :

— انا اريد ان اعود ايضا .

فرد عليه اخوه الكبير بتعبير خاص من وجهه :

— ماما وبابا وانا سنعود وسنتركك هنا وحدك .

وبدأ الولد الاصغر يبكى بأعلى صوته ، ويفرك عينيه بشدة ولم تنزل منهما دمعة واحدة .

فقال الاب رافعا صوته :

— ستبقيان هنا مع ماما . لا نريد سخافات اخرى الآن . هيا ارتديا ملابسكما واستعدا لتناول الفطور .

وانطلق السيد بان الى المحطة بعد ان تناول بضع كلمات مع زوجته .

وفى الطريق ، سمع المارة يعلقون على عدم مسير القطارات . " توقف القطارات يحل المسألة لى ، وحتى لو قرروا طردى لأننى اقمت بعيدا ، فلست ملوما . " خبر مريح لأول وهلة ، ولكنه على اى حال خيبة امل وسيكون محظوظا لو انه كان مجرد اشاعة . وتمنى ان يسرع صاحب الركشة حتى يجد النبأ اليقين .

وصادف ان كان حظه حسنا . فليس من اشارة معلقة بالمحطة تقول ان القطارات قد توقفت . اما الاعلان على اللوحة فقال ان قطار الليل سيتأخر اربع ساعات . كما ان القطار ليس متواجدا بالمحطة . ولم يكن ثمة زحام على شباك التذاكر . ومن آن لآخر ، كان يتقدم شخص او اثنان لشراء تذاكر . وكان نصف الجمهور بالمحطة مستقبلين ، والنصف الآخر من المتفرجين . وحمل البعض آلات تصوير بانتظار التقاط صور للصخب المرافق لوصول قطار الليل ، فلربما تستخدم الصور مستقبلا فى كتاب « تاريخ الحروب والتبدلات » . وكانت غرفة الامتعة مليئة بأصناف من الحقائب والصناديق المكدسة فوق بعض حتى كادت تلمس السقف .

وشعر بالارتياح والكآبة . وبعد ان تردد قليلا ، اشترى تذكرة درجة ثالثة وصعد الى القطار . وعبقت العربة بضوء الشمس الصافى ، ولكنها لم تكن حارة . وكان هناك مقاعد كثيرة بلا ركاب . ولو اراد لتمدد فى يسر . وقال لنفسه : " هذا غير مألوف . لو كان مزاجى افضل لكانت هذه الرحلة شديدة المتعة . "

توقف القطار فى اماكن كثيرة ليفسح الطريق للقطارات العسكرية ولما حط فى رانغلى كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر . واسرع السيد بان الى بيته فوجد بابه محكم الغلاق . فخف ما فى نفسه من توتر قليلا لأن هذه الحيطة هى اشد ما حاول ان يؤكدها على وانغ ، الشغالة ، قبل الرحيل .

طرق الباب مرات قبل ان تظهر الشغالة . فقالت وقد ادهشها مرأى السيد بان :

— هل عدت يا سيدى ؟ ألم تبق حاجة الى الرحيل الآن ؟

وتمتم السيد بان بجواب غامض وهو مندفع يتطلع حوله . ثم فتح باب غرفته ودلف الى داخلها وتفحصها بعناية . لم يتبدل شيء . لم يتغير شيء على الاطلاق . كان كل شيء على حاله كما تركه فى اليوم الاسبق . وهدأ قلبه الخافق نوعا ما ولكنه لم يكن على يقين تماما . واقفل الغرفة ثانية واستدار ليخرج . وقال للشغالة :

— انظرى ما اذا كان الباب محكم الغلق .

كانت الشغالة فى اشد حيرة : اغلقت الباب وعادت وبدأت تفكر : لا بد ان يكون سيدى وسيدتى فى مكان ما بالمدينة . ربما خشيا ان اصطحبهما فتظاهرا بالرحيل الى شانغهاى . والا فلماذا عاد السيد بهذه السرعة ؟ السيدة والولدان ليسوا معه . اين اختبأوا ؟ لماذا لا يريدوننى معهم ؟ بالطبع ، ليس من مكان لهذا العدد الكبير . من المحتمل انهم فى تلك العمارة الحمراء التى تخص الاجانب . فهؤلاء الجند جميعا يعرفون انهم لن يمسوا العمارة الحمراء حتى لو نشب القتال . كان عليهم ان ينبئونى بالحقيقة لأننى لست متحمسة

فى الذهاب ولو طلبوا منى ذلك . لست رعديدة ولو قليلا . وحتى لو نشب القتال ها هنا ، فان كفنى جاهز طول الوقت . ولمع فى عينيها حذاء القبر المطرز الجميل الذى اهدته اياها ابنة اختها ، وانتابها احساس ان ذلك سيجعل ملك جهنم يعاملها بكل احترام حين تذهب الى العالم السفلى . وسبب لها هذا التفكير فرحة غامرة ألهت فكرها عن مكان وجود سيدها وسيدتها .

ذهب السيد بان يزور المراسل وهو بدوره موظف بمديرية التعليم ، ليسأل عما اذا نوى المدير فعلا ان تبدأ المدارس كالمعتاد . واجابه الرجل : " بالتأكيد . وقال ايضا ان بعض المدرسين انشغلوا فى الابتعاد عن الضرر واهملوا واجباتهم . وهذا يدل على انهم غير اكفاء للعمل فى حقل التعليم ، وهذه فرصة ملائمة للتخلص من بعضهم . " ونهض السيد بان على هذا القول ليكتب اشعارا ، وعلى الفور ، هنأ نفسه على حكمته لعودته من شانغهاى . وتوجه فورا الى المدرسة ، وتناول فرشاة كتابة ، وحرر مذكرة لأولياء امور الطلاب ، قال فيها : ان الحرب والقتال من الامور المقلقة حقا ولكن التعليم للشباب بمثابة الغذاء والكساء ، لا يمكن تأجيله ولو ليوم واحد . وها قد انتهت العطلة الصيفية وستبدأ الدراسة كالمعتاد . فى ايام الحرب الكبرى فى اوربا ، فردت شبكة فى الهواء لمنع القصف حتى يستمر التعليم بلا تشويش . واضافت المذكرة تقول : هذا النوع من البطولة ينبغى ان لا يمر مرور الكرام . ويؤمل من اولياء الامور ان يتفهموا الامر وان يرسلوا اولادهم بهذه الروح الى المدرسة كما لو ان شيئا لم يحدث . كل هذا فى مصلحة المدرسة والطلاب وكذلك فى سبيل رفعة المدينة والوطن .

وبعد ان قرأ المسودة ثلاث مرات ، قنع بأن لا شيء يمكن ان يضيفه اليها . ولو اطلع مدير التعليم على المذكرة ، لكان اقل ما يمكن ان يتوقع قوله : " انه يفكر مثلي . " وفى حالة من الرضا الذاتى ، نسخ السيد بان على الاستنسيل ما يزيد على مئة نسخة سلمها الى حاجب المدرسة . اما وقد انهى واجبه بهذا العمل فقد عاد ذهنه الى شؤونه الخاصة . وما دامت الدراسة ستبدأ فالذهاب الى شانغهاى امر عسير . ولكن زوجته وولديه سيجتاحهم وقت عصيب فى الفندق . وليس فى وسعه ان يفعل شيئا حيال ذلك ، وما عليه الا ان يوصيهم بالاهتمام بأنفسهم وان يبقوا هناك بدون قلق واستخدم ما تخلف من حبر بعد ان حرر المذكرة ليسطر رسالة الى زوجته بهذا المعنى .

وفى اليوم التالى ، وصلته انباء موثوقة وهو فى المقهى مفادها ان خطوط سكة الحديد قد قطعت فغاص قلبه . وخيل اليه ان احباءه ، زوجته وولديه ، قد ساقتهم الرياح بعيدا عن متناول يده . وقام يتخطى الى المدرسة مهموما حزينا ، حيث انبأه الحاجب بمهمته فى اليوم الاسبق . " عندما حملت المذكرة وجدت عشرين بيتا او يزيد موصدة الابواب باحكام وليس من مجيب على طرقاتى . فتحتم ان ادخلها من كوة بالباب . وهناك ما يقرب من ثلاثين بيتا كان بها خدم ، وقد فر اسيادهم الى شانغهاى ومعهم بالطبع اولادهم . ولا احد يعرف متى يعودون للمدرسة . وقد استلم الباقون المذكرة ولكن قاة قالت ان من الافضل تأجيل مسألة الدراسة فى الوقت الحالى ما داموا غير متأكدين كم سيعيشون . "

" مفهوم . " قال السيد بان وذهنه ليس مركزا على هذه المسائل

على الاطلاق بل تشوشه افكار قاتمة . وبعد ان دخن سيجارة ، توصل الى قرار . ذهب الى المكتب الفرعى لجمعية الصليب الاحمر .

وافصح عن رغبته فى ان يكون عضوا بالصليب الاحمر ويدفع الرسوم . وقال بأن مدرسته بها حجرات واسعة نسبيا واراد من الصليب الاحمر ان يستخدمها كمأوى للنساء اللاجئات فى ساعات الطوارئ . مثل هذا العرض الكريم يلقى قبولا حارا بلا ريب . والى جانب ذلك ، كان السيد بان شخصية معروفة وموقرة فى المدينة . وقدم له المكتب الفرعى راية الصليب الاحمر لرفعها على مدخل المدرسة وشارة الصليب الاحمر ليظهر انه عضو فى هذه الجمعية .

حمل السيد بان العلم والشارة فى يديه كما لو انهما تعويذة ، ضمانة للحياة والامن . وتسلل شعور غامض من الرضا الى قلبه . "كل شئ آمن الآن . ولكن . . . . " عاد وعلى شفتيه ابتسامة الى الرجل فى المكتب الفرعى .

— اعطنى علما آخر وعددا من الشارات . أ تسمح لى بذلك ؟

والسبب ان للمدرسة بابا خلفيا ، واما الشارة الصغيرة فيمكن ان يفقدها بسهولة ، ولذا من الافضل ان يكون لديه احتياطى منها .

وقال الموظف فى مكتب الصليب الاحمر ضاحكا :

— ليس هذا شيئا يؤكل . ومن الصعوبة ان تستخدمه كشيء يلهى به ! وحتى لو اخذت اكثر من شارة ، فما انت الا عضو . اذن : لماذا تطلب اكثر من واحدة ؟

وفى الاخير ، ناول السيد بان علما وعددا من الشارات ليدخل السعادة الى قلبه .

وما لبث علما الصايب الاحمر ان خفقا فى النسيم الخفيف فى اوائل الخريف ولكن لم يكن اى منهما قريبا من مدخل المدرسة الخلفى . فالعلم الثانى وضع فوق باب السيد بان . وتلألأت شارة الصليب الاحمر بنور مهيب من الاحسان على صدر السيد بان ، واهبة حاملها نوعا جديدا من الشجاعة . وبالنسبة للشارات الاخريات ، فحفظها بكل عناية فى جيب قميصه ملفوفة فى ورقة . وقال لنفسه : واحدة لها ، واخرى للولد الكبير والثالثة للصغير . ومع انهم ما زالوا فى شانغهاى ، فى منأى عنه ، فان الشارات ستوفر لهم شيئا من الاطمئنان وتزودهم بشجاعة جديدة .

٣

فتح الجيشان النار فى بيتشوانغ .

وقلة قليلة جدا من البيوت بقيت ابوابها مشرعة ، اما المتاجر فكان من الطبيعى ان تظل موصدة الابواب . وظل الجنود يقطعون الشوارع ، فسيتوجهون ، عما قريب ، الى ميدان القتال ، وقد شعروا انهم مغلوبون على امرهم من السلطات الاعلى ، ولا شيء بدا فى عيونهم له قيمة . وكانوا يدوسون كل ما وصلت اليه اقدامهم . هكذا بدأت كتيبة التجنيد . كان المجندون مقيدين ، وساروا فى طابور يخفرهم جنود ، لمنع المرغمين على الجندية من الفرار . فخشى الناس ان يخرجوا الى الشوارع . ومتى اضطروا للخروج من منازلهم رأيتهم يسلكون ممرات ضيقة ودروبا فرعية . وحتى الناس ، من امثال

السيد بان ، الذين تسلحوا بشارات الصليب الاحمر ، اعتراهم القلق ايضا فلم يجسروا ان يتبختروا علانية . وبدت شوارع رانغلى يخيم عليها الهدوء ومهجورة تماما .

ومضت عدة ايام ولم تصل الصحف الشانغهائية . وعلى كل حال ، كانت القيادة العسكرية المحلية تعلن انباء المعارك التى افادت دائما ان قوات العدو قد استؤصلت شأفتها وان قواتنا تقدمت عدة كيلومترات . وكلما ظهرت نشرة جديدة على ناصية الشارع تجمعت جماعة صغيرة العدد فى بطء لتقرأها فى عناية . ولم يقتنع الجميع بما كانوا يقرأون لأنهم احسوا ان كثيرا من الاشياء لم تقل . وكانوا يتفرقون حاملين احساسات هواجس الشر ، مقطبى الجبين .

خيم الاكتئاب على السيد بان فى الايام القليلة المنصرمة . كان قلقا على زوجته وولديه البعيدين والذين لم تصله عنهم اية انباء . وقد بدا انه لن يتمكن من الاتصال بهم ثانية . ثم ثارت مسألة سلامته . " انها مسألة مسيرة مئة لى او ما يقرب من ذلك من بيتشوانغ . ومع ان شارة الصليب الاحمر قد تخدم غرضا ما ، فلا احد كتب لى ضمانة بذلك ، فمن اسأله للتعويض اذا ما كانت عديمة الفائدة بعد كل ذلك ؟ الرصاص ، القذائف ، السطو ، النيران ، ليس فى ذلك مزاح . ينبغى ان أستفسر واجد وسيلة اخرى لضمانة سلامتى . " فأخذ يسأل هنا وهناك عن انباء جبهة القتال ، وايقن ان ثمة ذرة من صدق فيما حصل عليه من اخبار مختلفة عن الاشاعات الجارية . ثم صار يحسب تأثيرها على مصلحته الخصوصية . وكان منظر اى انسان يسير مندفعا فى الشارع وعليه مسحة من ذعر يسبب له ارتباكا

لأنه كان متأكدا ان ذلك الانسان قد عرف انباء موثوقة ولكنها مفزعة .
ولم يمنع السيد بان من مبادأته بالكلام والاستفسار منه سوى حقيقة ان ذلك الانسان غريب تماما .

ارسل الصليب الاحمر اناسا الى ميدان القتال للعناية بالجرحى ، وقد عاد بعضهم مرارا فى وسائط نقل عسكرية . ومن الطبيعى ان يكون الصليب الاحمر المصدر الاوثق للأنباء ولم يذهب السيد بان الى هناك لتلقط الانباء ، مع انه انتمى الى الصليب الاحمر ، بسبب انه خجل من الاعتراف بخوفه جهارا . ومع ذلك ، كان الصليب الاحمر مصدرا موثوقا للأنباء ، ومن السخافة السؤال عن انباء فى مكان آخر . وحاصل الامر ، ذهب السيد بان فى غسق كل يوم الى منزل وو ، الذى يعمل فى مكتب الصليب الاحمر . وكان وو يخبره ان لا انباء او ان هذا الجانب ادى جيدا فى ميدان القتال ، وبعد ذلك يعود السيد بان زافرا تنهيدة بالراحة .

وفى مساء يوم ، ذهب السيد بان الى منزل وو حيث انتظر طويلا قبل ان يعود وو .

وسأل السيد بان فى لهفة :

ـ ألا من جديد ، ايه ؟ جاء فى النشرة ان قواتنا شنت هجوما عاما بالأمس .

قالها وو وقد بدا عليه القلق واخذ يعبث بشاربه .

ـ الأمر مؤسف .

ـ ماذا !

ففز قلب السيد بان وشعر كأنما زهقت روحه .

ورد عليه وو فى صوت خفيض كما لو كان خائفا ان يسمعه أحد :

— تقول الانباء الموثوقة ان بلدة تشنغآن التى تبعد ثمانية لى عن بيتشوانغ ، قد سقطت فى يد الطرف الآخر هذا الصباح .

واطلق السيد بان صرخة يائسة وتوقف قليلا واستدار ليغادر متمتما وهو يمشى : " انا ذاهب . "

بدت مصابيح الشارع قاتمة فى ذلك المساء على وجه الخصوص . وشعر السيد بان كما لو ان احدا يطارده من الخلف . وعاد مرتبكا بأسرع ما يستطيع الى البيت يغشيه الفزع والقلق ، وقال للشغالة : " اقفلى الابواب ونامى . سأنشغل فى هذه الليلة ولن اعود خلالها . "

ولمح جلبابا حريريا مبطنا بالقطن فى الدولاب ، نسوا ان يضعوه فى الحقائب التى حفظوها فى مكان امين . ومن الخسارة فقدانه . وكانت ثمة سترات للولدين . ومن نظرة دقيقة تبين انها ما زالت صالحة للبس . كما كانت هناك تنورة حريرية قديمة قد لا تحب زوجته تركها . وربطها جميعا فى صرة وحملها وخرج .

— يا صاحب الركشة ! الى العمارة الحمراء فى زقاق فوشينغ . عشرة فنات فقط .

قال صاحب الركشة متشدقا :

— من سمع بعشرة فنات ؟ كم من الركشات تعمل فى هذه الايام ! من سيخرج مجازفا بحياته من اجل حفنة فنات ما لم يكن بحاجة اليها تبقيه على قيد الحياة ؟ ثلاثون فنا . لك ان تقبل او ان ترفض .

هرع السيد بان وركب الركشة وقال :

ــ اذن ، ثلاثون فنا . ولكن عليك ان تفعل ما اطلب ، اسرع .

ورآه زميل له يدعى هوانغ ونادى عليه :

ــ هاى ، يا سيد بان ! الى اين انت ذاهب ؟

ــ اوه . . . . الى هناك . . . .

قالها السيد بان دون ان يعرف وهو فى حالته المسعورة تلك مع من يتكلم . وفجأة ، ادرك انها مضيعة للوقت ان يرد على السؤال لأن صاحب الركشة كان فى غاية السرعة فلم يوفر للرجل وقتا ليسمع الجواب . فابتلع بقية كلماته .

كانت العمارة الحمراء غاصة بالناس ، ومعظمهم جاءوا اليها منذ عشرة ايام . كان الاطفال يصرخون والناس يتحدثون والمصابيح مضاءة فى كثير من الغرف ، فكان هناك جو من الضجيج والصخب . وقال صاحب العمارة للسيد بان :

ــ لا مكان فارغ هنا . ولكن ما دامت كل اشيائك هنا فمن الصعب ان اردك . فالآن فقط ، وصل آخرون على غير المتوقع ، وحيث اننى لم استطع ان ارفضهم ، انزلتهم فى غرفة جانبية تستخدم ، فى العادة ، كمطبخ . سأذهب وانظر ما اذا لم يقبلوا احدا آخر .

وشعر السيد بان بالارتياح :

ــ اوه ! نعم . من المؤكد ان يقبلوا واحدا آخر . وعلاوة على ذلك ، لا انوى ان انام طول الليل ، يكفينى مكان للجلوس .

ولما خطا نحو الغرفة الجانبية حاملا فى يده صرته ، ظن فى البداية ان كل مخاوفه وما انتابه من ذعر قد سببت له هلوسة . فأغمض

عينيه وفتحهما ولكن لم يتبدل ما رأى . ولم يكن هناك سوى مدير مديرية التعليم جالسا بالقرب من النافذة يتراقص شاربه الكثيف فوق شفته العليا وهو يتكلم الى شخص قبالته .

تردد السيد بان ، واهتزت القدم التى خطت فوق العتبة ، وهم ان ينسحب ، ولكنه ادرك ان ذلك لا يصلح . فقد رآه ايضا المدير الذى قال مبتسما لتغطية ما اصابه من احراج :

– آه ، انت هنا يا سيد بان . تفضل واجلس .

ولما ادرك المضيف انهما يعرفان بعضا انسحب ليدبر بعض شؤونه .

– وانت هنا ايضا يا مدير . أ يمكنكم ان تقبلوا واحدا زيادة فى الغرفة ؟

– نحن ثلاثة هنا فقط . وبالطبع يمكننا ذلك . احضرنا معنا حصيرة يمكننا ان نرتاح قليلا بالدور . الشىء الرائع ان الجو ليس باردا بعد .

احس السيد بان ان المدير لطيف المعاشرة الى حد بعيد فى تلك الليلة ، ولم يظهر عليه صرامته ولا وقاره وخطا الى الداخل متناسيا ما انتابه من تحفظ . " اسمحوا لى ، اذن ، ان ادخل وامضى الليلة برفقتكم . "

لم تكن الغرفة واسعة . وكان رجل متوسط العمر على عينيه نظارة جالسا على حصيرة مفروشة على ارض الغرفة . وقد بدا على وجهه التعب ولكنه لم يظهر ميلا للنوم . وكان الموقد والاوانى والحلل موضوعة بجانب جدار . وبقرب النافذة ثلاثة مقاعد فى صف واحد ، جلس

المدير على احدها ، وشغل الآخر ابن عم المدير ، شاب فى عشرينات عمره صقيل الشعر ، وكان الثالث فارغا . وكان فى ركن من الغرفة حقيبة صفصافية وثلاث صرات .. من المحتمل انه متاع الرجال الثلاثة . وحولت طبقة الغبار على المصباح الكهربائى كل ما فى الغرفة الى لون ضبابى .

وضع السيد بان صرته مع الاخريات . واتخذ مقعده على الكرسى الخالى مقدما اعتذاراته ، وبعد ان قدمه المدير الى صاحبيه ، سأله :

— هل سمعت شيئا عن انباء تشنغآن ؟

— نعم . اصبحت بيتشوانغ ، بعد سقوط تشنغآن ، فى خطر ماحق .

— لا بد ان جيشنا قد اهمل الاستعداد من جهة الجنوب ، فسقوط تشنغآن امارة على ذلك . وانه لأسهل شيء للطرف الآخر ان يصل الى بيتشوانغ من تشنغآن . وقد يكون وصلها فى هذه اللحظة . ولو حصل ذلك ، لا ادرى ما قد يحدث هنا !

— لو حصل ذلك ، سادت الاضطرابات .

— ولكن القائد دو على هذا الجانب ليس بالمغفل كما تعرف ، فهو استراتيجى قدير . من المحتمل انه قد ادرك ذلك ولديه خطط ليحبط اجراءات الطرف الآخر . قد يقلب الطاولات فى اللحظة الحرجة ويبادر بالهجوم ، ويضرب العدو فى عرينه .

— لو حدث هذا لتوقفت الاشتباكات وهذا انجاز عظيم . ويمكننا ، نحن العاملين فى حقل التعليم ، ان نبدأ الدراسة ونعمل كالمعتاد .

وعاد المدير الى وعيه بوقاره فورا عند ذكر كلمة " تعليم " .
وبينما هو يعبث بشاربه الكثيف ، قال متنهدا :
ـ هذا القتال سبب ، ولا ريب ، خسارة للطلاب من مختلف الاعمار ناهيك عن الناس الآخرين .
ونسى وضعه المحشور وغير المريح فى الغرفة الضيقة ، وشعر كما لو انه عاد الى مكتب مديرية التعليم الوقور .
وقال الرجل المتوسط العمر المتمدد فوق الحصيرة ، فى سخط :
ـ القائد تشو ، قائد الطرف الآخر ، هو بغيض حقا . لماذا توجب ان يقاوم حين هاجم هذا الطرف . لا بد ان تكون الهزيمة من نصيبه . لو كان عاقلا ولم يبد مقاومة لما حدث كل هذا القتال .
فوافقه ابن عم المدير بقوله :
ـ انه لأحمق . لن يستسلم حتى الرمق الأخير . وعلينا ، فى نفس الوقت ، ان نعانى الحشرة فى هذه الغرفة الضيقة المعتمة ! .
لم يكن فى لهجته ما ينبئ عن الجد .
وطارت افكار السيد بان الى زوجته وولديه فى شانغهاى . ولا يدرى ان كانوا بخير ، ولم تمسهم المتاعب . هل هم نائمون فى هذه اللحظة ؟ ولما لم يقدر ان يشعر انه قريب منهم ، وان خياله التقى صورة ضبابية فقط ، شعر ان القتال قد آلمه اكثر من أى من الآخرين . وسرحت عيناه تنظران فى حزن الى الفناء الصغير خارج النافذة وبقى صامتا .
ثم انتقلت افكاره الى الانباء المزعجة التى سمعها من وو والتهديد بالخطر اللاحق . وقال بلا ارادة :

ـ لست ادرى حقيقة ما يحدث !

وقال المدير فى ترو :

ـ التكهن صعب ! فى الحرب ، كل شئ يتوقف على الاستف
من الفرصة المناسبة . قد يتحول التيار فى اى وقت وقد لا تحد
الامور كما تفكر . ربما فى هذه اللحظة ... نحن ....

وابتسم فى وجه الرجل الكهل .

وادرك كل من فى الغرفة ، الرجل المتمدد على الحصيرة وابن
المدير والسيد بان ، مغزى ابتسامته . وابتسموا هم ايضا برضا لكو
آمنين فى مكانهم .

كان الفناء الصغير الذى عششت فيه الاعشاب مأوى ملا
للبعوض والحشرات الصغيرة من كل لون . وجذب المصباح فى الغ
الحشرات اسرابا ، ومر الرجال الاربعة المرتعدون هلعا بوقت عصيب
فقد هاجمت الحشرات الصغيرات وجوههم ، لسعة فجائية من بعو
سامة جعلت هذا او ذاك يقفز من مكانه . وكانوا من آن لآخر يتوقف
عن الحديث ويرهفون اسماعهم مذعورين ليتأكدوا مما اذا كان هـ
اصوات اطلاق الرصاص وصخب الناس الذين ركبهم الهلع . وبالطبع
كان النوم خارج المطلوب . فقد تبادلوا التمدد قليلا على الحص
كما توقع المدير .

وفى صباح اليوم التالى ، كانت عينا السيد بان منتفختين احمرارا
واصابته قشعريرة من برد . وتسالى الى الخارج بمفرده ، متلهفا ـ
معرفة جريان الامور بالخارج . بدت الشوارع هى هى كما كا
كل صباح عادى . وكان عدد من كلاب ضالة رافعة ذيولها تتش

مرحة هنا وهناك . ورجل لا يزال النعاس فى عينيه يمر من حين لآخر .
واتجه السيد بان الى ناصية شارع فما رأى ولا سمع شيئا خارقا للعادة .
وبالكاد كبح ابتسامة حين تذكر ما انتابه من ذعر فى الليلة الماضية ،
ولكنه احس لدى تفكيره من جديد انه لا يوجد ما يدعو الى الضحك
هنا . وعلى كل حال ، الحيطة افضل من مجازفات لا لزوم لها .

وتوقف القتال بعد ثلاثة اسابيع او يزيد . وصار الناس يهزون رؤوسهم ويطمئنون بعضا : "كل شئ على ما يرام الآن . سنكون فى مأمن ما دام لا يحدث قتال ." ومع ذلك ، لم يكن السيد بان سعيدا تماما لأن القطارات لن تستأنف سيرها ، وبالتالى لن يقدر ان يحضر زوجته ووالديه من شانغهاى . وقد وصلته رسالتان شديدتا الايجاز ، جعلتاه يحن اليهم اكثر بدلا من تهدئة قلقه عليهم . لقد امتطته الهموم لتعاسته فى التنبؤ بما يجرى . كان يمكنه ان يدخر كل النفقات الزائدة التى دفعها لأسرته للذهاب الى شانغهاى ، ومن ثم لا داعى لحياة العزوبية التى امتدت عدة اسابيع .

وتوجه الى مديرية التعليم لمعرفة الاخبار ، موقنا ان مسألة بدء الدراسة ستؤخذ بعين الاعتبار . وما ان عتب غرفة الاستقبال حتى رأى عددا من الموظفين يقطعون قصاصات ورق كبيرة ويعدون الحبر وبدا كما لو انهم يتهيأون لاحتفال ما .

وصاح احدهم :

ــ ها هو السيد بان . انه هو الذى نريد : انت صاحب خط رائع بأسلوب يان . هذه هى المهمة الملائمة لك .

وقال الباقون فى صوت واحد :

ـــ نعم . انه السيد بان حقا القادر على ان يكتب خطا جيدا بهذا الحجم .

ـــ ماذا اكتب ؟ لا اعرف شيئا عما يدور .

نحن نتهيأ لاستقبال العودة المظفرة للقائد دو : وستقام اربعة اقواس للنصر عند محطة سكة الحديد ترحيبا بقطار القائد دو . ونحن بحاجة الى الخط على الأقواس الأربعة .

ـــ ومن انا لأكتب لهذا الحدث الهام ؟

ـــ اتفقنا جميعا على انك انت الافضل !

وترددت صيحات من كل الأجناب فى حين وضعت الفرشاة فى يد السيد بان :

ـــ لا تتواضع .

وارتبك السيد بان ايما ارتباك . وتناول فرشاة الكتابة وغمسها فى المداد . وبعد صمت كئيب ، كتب : " افعاله بزت الآخرين جميعا " ، وعلى قصاصة الورق الثانية : " قوته اكتسحت جنوب الشرق " ، وعلى الثالثة : " الفضيلة والاحسان غزيران " . ولما اكملت فرشاته كلمة " غزيران " طرق ، مخيلته ، المجندون والقذائف المتفجرة والبيوت الملتهبة والمغتصبات من النساء واللاجئون الصفر الوجوه والجثث المتعفنة .

وصاح احد الرجال المتفرجين مطلقا تنهيدة اعجاب : " هذا الوصف يظهر امتنان الشعب القلبى ! والخط ، ايضا اكثر جمالا . "

وعلق آخر يقول : " لننتظر حتى نرى ماذا سيكتب فى الرابعة . "

٢٧ نوفمبر ١٩٢٤

كلمة عن المؤلف

يه شنغ تاو (او يه شاو جون) : من مشاهير ادباء الصين فى الفترة التى اعقبت حركة الرابع من مايو .

ولد يه شنغ تاو فى سنة ١٨٩٤ فى مدينة سوتشو ، مقاطعة جيانغسو . وقبل ان يصل الى السادسة من العمر ، ارسله ابوه الى " مدرسة عائلية " خاصة للدراسة ، وعندما بلغ الثانية عشرة تحول الى مدرسة من طراز حديث انشئت هناك .

وفى سنة ١٩١١ ، انهى دراسته بالمدرسة المتوسطة ، ولكنه لم يستطع ان يواصل دراسته بسبب ما عانته اسرته من ضائقة مالية . وفى سنة ١٩١٢ ، بدأ يعمل مدرسا فى مدرسة ابتدائية ، وظل على هذا المنوال ما يقرب من عشر سنين . بدأ يه شنغ تاو ، وهو ما زال فى المدرسة المتوسطة ، يكتب روايات باللغة الكلاسيكية التى كانت شائعة فى ذلك الحين . وظهرت كتاباته فى مجلة القصة « السبت » التى ذاع صيتها ، آنذاك ، فى شانغهاى .

وفى سنة ١٩١٩ ، وفى ايام حركة الرابع من مايو ، بدأ يه شنغ تاو يكتب باللغة العامية تماما ، وصار يكتب لـ « المد الجديد » ، وهى من اكثر المجلات الدورية تقدمية ، اصدرها طلاب جامعة بكين . وفى سنة ١٩٢١ ، نظم بالاشتراك مع الاديب المشهور ماو دون والناقد الادبى تشنغ تشن دوه ، جمعية للبحوث الأدبية .

وبعد سنة ١٩٢١ ، دعى لالقاء محاضرات فى المدارس الثانوية والجامعات بسبب شهرته ، ولكن اهم عمل تولاه كان كمحرر فى دور النشر ، وظل يعمل لما يزيد على العشر سنوات فى دارى نشر بشانغهاى : المطبعة التجارية

ومطبعة كايمينغ .

كانت العشرينات من هذا القرن فترة هامة فى اعمال يه شنغ تاو الادبية الابداعية . فقد شهدت تلك السنون نشر عدد غير قليل من قصصه القصيرة مثل « سوء التفاهم » (١٩٢٢) و« الحريق » (١٩٢٣) و« تحت الافق » (١٩٢٥) و« فى المدينة » (١٩٢٦) و« لا يعرف الكلل » (١٩٢٨) وغيرها . ومن رواياته الطويلة « الناظر نى هوان تشى » ، بدأها فى سنة ١٩٢٨ ونشرت مسلسلة فى « المجلة التربوية » فى شانغهاى . ونشرت كاملة فى سنة ١٩٣٠ . وباختصار ، نشر المؤلف مجموعتين شهيرتين من قصص الأطفال : « رجل من القش » (١٩٣٢) و« تماثيل الابطال القدامى » (١٩٣٣) .

وبعد ان اندلعت حرب المقاومة ضد العدوان اليابانى فى سنة ١٩٣٧ ، غادر يه شنغ تاو سوتشو الى سيتشوان التى كانت وراء مؤخرة العدو حيث واظب على اعماله التعليمية والتحريرية . وكتب عددا من الاعمال الوطنية تشجيعا للمقاومة ضد اليابانيين . وقد جمعت فى « شيتشوان » (١٩٤٤) . وعاد بعد الانتصار على اليابانيين فى سنة ١٩٤٥ الى شانغهاى للعمل فى مطبعة كايمينغ وظل بها الى سنة ١٩٤٨ .

وبعد ان تأسست جمهورية الصين الشعبية فى سنة ١٩٤٩ ، انتخب يه شنغ تاو عضوا باللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى ، وكان فى وقت من الاوقات مدير هيئة النشر ونائب وزير التربية والتعليم . وهو حاليا عضو اللجنة الدائمة للمؤتمر الاستشارى السياسى الخامس للشعب الصينى وعضو اللجنة الدائمة للمؤتمر الوطنى الخامس لنواب الشعب .

« السيد بان ينجو من العاصفة » من اروع قصصه القصيرة . فهى تصور جبن وانانية مثقف يقنع بكل سهولة ، تصويرا حيا . يفعل السيد بان كل ما وسعه من جهد لتجنب مأساة الحرب والبطالة ، اذ عاش فى فترة الاضطراب من اقتتال امراء الحرب . وكلما هبت صعاب تملكه الذعر ، وكلما انفرجت

فترة من سلام استخدم فكره فى مديح الرجعيين . انه يعيش دوما فى جو غوغائى بلا مبادئ ما عدا سعيه فى سبيل حياة خسيسة لوقاية نفسه . والسيد بان صورة صارخة لبعض المثقفين فى المجتمع القديم .



بينغ شين

الفراق



انطلقت اول صرخة من فمى حين امتدت يد عملاقة اختطفتنى مما كنت فيه من آلام خانقة .

وفتحت عينى فرأيت اليد العملاقة تشدنى من عقب قدمى فتدليت متأرجحا مقلوبا ، وقبضتاى القرنفليتان تهتزان فوق رأسى فى الهواء .

ثم جاءت عملاقة اخرى سندت ظهرى بيدها الضخمة . والتفتت الى امرأة مستلقية فى فراش ابيض وقالت لها وعلى شفتيها ابتسامة : " مبروك ! ولد كبير . " وفى نفس الوقت وضعتنى فى سلة مبطنة بملاءة بيضاء .

حركت رأسى لأنظر ما بخارج السلة . فرأيت ممرضات فى ثياب فضفاضة بيضاء ومعتمرات قبعات ، ويحمن حول امرأة شاحبة تتصبب عرقا ، تتنهد كما لو افاقت لتوها من كابوس ، وكان جفناها المتورمان نصف مغمضين . ثم اغمضت عينيها مرتاحة بعدما سمعت كلام القابلة .

وتمتمت بكلمات تقول : " شكرا يا طبيبة . لقد امضيت معنا وقتا عصيبا . "

ثم صرخت صرخة مدوية : " لا ، يا اماه . نحن اللذان واجهنا وقتا عصيبا — لقد نجونا من الموت . "

نقلت الممرضات المعممات بالبياض والمنشغلات ، ولكن صامتات ، امى على عربة خارج الغرفة ، اما انا فحملت الى الممر حيث كان

رجل يقف بالطرف الآخر ، ينظر كما لو انه افاق من كابوس ايضا ؛ ولوحت له الطبيبة، فجاء اليها . ومد الرجل ذراعيه كما لو اراد ان يحملني ولكنه تراجع الى الوراء مخلوع الفؤاد . وحنى وجهه المذهول ووقى وبدت عيناه حنونتين دهشتين .

وقالت الطبيبة :

ـــ ألا يبدو وسيما ؟

فقال الرجل متلعثما :

ـــ ار ـــ ولكنه طويل الرأس !

وصرخت ثانية ، على حين فجأة ، اذ كان رأسي يؤلمني : " ابتاه ! ليس لديك فكرة كم كان رأسي مضغوطا . "

قالت الطبيبة : " يا الهى ! ما اعلى صوته ! " ثم ضحكت وناولتني الى ممرضة بشوشة الوجه قربها .

ثم وضعوني فى غرفة مشمسة فسيحة . وكانت سرائر الاطفال ، وفيها الاطفال ، مصطفة على جوانب الجدران . وقد نام بعضهم واكفهم الرقيقة على جانبي رؤوسهم . وكان آخرون يصرخون " عطشان ! " او " جائع ! " او " الدنيا حر ! " او " انا مبتل ! " وبدا على الممرضة التى حملتني انها لم تسمع ايا منهم . فقد خطت فى هدوء الى حمام بالطرف الآخر من الغرفة ووضعتني على منضدة حجرية قرب حوض غسيل ووجهي قبالة الحنفية . وتدفق ماء فاتر ازال المادة المخاطية القرنفلية من على رأسي وبدني .

اصابتني رجفة ولكنني افعمت نشاطا . وادرت رأسي لأتطلع عبر الحوض الى المنضدة المقابلة فرأيت طفلا آخر برأس مستدير

وعينين واسعتين وبشرة قاتمة وبدن قوى ، كانت تحممه ممرضة . كان مستيقظا وينظر من الشباك فى هدوء ؛ وفى هذا الوقت كنت قد انتهيت ولبست ملبسا فضفاضا ابيض طويلا ، وكذلك كان هو ؛ نظرنا الى بعض عبر حوض الغسيل . وكانت ممرضتى تتحدث الى زميلتها :

— طفلك كبير وشديد حقا ، ولكن طفلى وسيم ورشيق ؛

ولما سمع الطفل الآخر هذا الكلام ، رفع رأسه ورمقنى مبتسما كما لو يواسينى .

وبادرته بالسؤال خجلا :

— كيف حالك ؟

فأجابنى فى ود :

— وكيف انت يا صديقى ؟

وهنا وضعتنا الممرضتان فى سلتين الى جوار بعض وتركتانا .

وقلت له :

— اوه ، ينتاب الالم كل بدنى . كانت الساعات الاربع الماضية عسيرة حقا بالنسبة لى وانا احاول ان اشق طريقى للخروج . فكيف كان الحال معك ؟

فشد كفيه وابتسم وقال :

— قد اختنقت لنصف ساعة او ما يقرب من ذلك ، ومع ذلك لم يكن الحال سيئا ؛ كما لم تقاس امى كثيرا .

لم ازد على ذلك ، بل تنهدت وشعرت بالتعب . وبينما كنت انظر حولى ، قال مهدئا :

— يبدو عليك التعب : عليك ان تنام ؛ وانا سأفعل نفس الشئ .

وبينما انا فى نوم عميق ، حملت من سلتى ونقلت الى الباب الزجاجى : وكان عدد من الصبيان والبنات ، انوفهم وراحات ايديهم تضغط مستوية على الزجاج ، ينظرون الى فى اعجاب بنفس الطريقة التى ينظرون بها الى اللعب المعروضة فى نافذة متجر . فأشاروا واومأوا قائلين ان حاجبى يشبهان حاجبى عمتى اخت ابى ، وانفى كأنف اخيه ، وعينى مثل عينى خالى اخى امى ، وفمى مثل فم خالتى اخت امى . كانوا كما لو انهم يقسموننى فيما بينهم .

اغلقت عينى وهززت رأسى ثم ادركت كم تؤلمنى رقبتى ؟

وبكيت عالى الصوت : " انا هو انا . لا اشبه احدا سواى نفسى : اتركونى لأنام . "

وعلت ابتسامة شفتى الممرضة : ولما حملت بعيدا ، رأيت الصغار يغادرون ، يتدافعون ويتضاحكون ، ويتلفتون ليلقوا نظرة اخرى . ونقلت الى الغرفة الكبيرة .

وهنا استيقظ جارى ، وقال :

ـــ استيقظت . من جاء يزورك ؟

فأجبته وانا اوضع فى السلة :

ـــ لا اعرف . من المحتمل عماتى واعمامى ـــ عدد من الشباب يبدو انهم جميعا يحبوننى .

وصمت لحظة . " يا للروعة . مضى على يومان هنا ولم ار حتى ابى . "

لم ادرك اننى نمت طويلا . ولم يعد ظهرى ولا رقبتى يؤلماننى كثيرا ، ولكننى كنت مبتلا . وصرخت مقلدا الاطفال الآخرين :

" تبللت : تبللت . قد تبللت . "

وكما توقعت ، جاءت ممرضة وحملتنى . ففرحت : ولكن قدمت لى ماء .

وفى المساء ، جاءت ثلاث او اربع ممرضات مسرعات الى غرفتنا ، فى ثياب منشاة تحدث حفيفا ، وحملننا وبدلن غياراتنا . وما اشد ما كانت فرحة زملاء الغرفة .

" نحن ذاهبون لرؤية امهاتنا . مع السلامة . "

وضع صديقى الصغير فى سرير كبير مع الآخرين وذهبن بهم ، فى حين حملتنى ممرضة عبر الباب الزجاجى الى الغرفة الاولى على الجانب الايمن من الممر . كانت امى مستلقية على سرير مرتفع تراقبنى فى لهفة وانا محمول . ولما وصلت بين ذراعيها كانت فى اوج سعادتها . بدت انها اصغر سنا وكان شعرها الاسود الفاحم معقوصا وراء اذنيها ، وكان حاجباها مقوسين مثل الهلال . وبدت فى الانعكاس القاتم بجانب المصباح كتمثال بوجهها الشاحب الذى يكاد يخلو من الدم وعينيها السوداوين الواسعتين .

بدأت ارضع وامى تتحسس شعرى بوجنتيها ، قبلت اصابعى ونظرت الى تغمرها البهجة والفرحة :

مضت عشرون دقيقة وانا ارضع ولم اجد اى حليب . ولدغنى الجوع وكان طرف لسانى جافا ، وفتحت فمى وتركت الحلمة وصرخت ، فهزتنى امى مذعورة ، وقالت فى ود وحب :

— آه ، يا غالى . لا تبك .

وقرعت الجرس فجاءت الممرضة .

وقالت لها امى :

— آسفة لازعاجك . ليس لدى حليب ، وهو يبكى . . .

— لا تقلقى . سيأتى الحليب اخيرا . وهو ما زال صغيرا ليفهم ذلك .

وحملتنى الممرضة ، وتركتنى امى على مضض .

حينما وضعت فى سلتى كان صديقى فى نوم عميق فى سريره ، وكان يبتسم من حين لآخر راضيا فى احلامه . وتطلعت حولى . كان اغلب زملاء الغرفة سارحين فى نوم عميق : قليل منهم نصف مستيقظين يتمتمون او يطلقون صرخات متقطعة . هاجمنى الجوع ولا ادرى متى يصلنى حليب امى . لقد فهمت مع ان احدا لا يدرك ذلك . وشعرت بالغيرة والخجل من نفسى وانا ارى الآخرين جميعا نياما وفى اطيب ما يكون من التغذية ، فصرخت مدويا على امل ان يرانى احد . وظللت اصرخ لنصف ساعة حتى جاءت الممرضة . كانت عذبة التبويز ، وربتت على مطمئنة ، وتظاهرت بالغضب من امى :

— لم تغذك امك كما ينبغى . خلاص ، خلاص ، ما رأيك فى قليل من الماء ؟

والقت حلمة زجاجة الارضاع فى فمى . واخذت امصها فى نهم ، وعدت الى النوم تدريجيا .

وبينما كنا نستحم فى اليوم التالى ، تبادلت اطراف الحديث وصديقى عند حوض الغسيل . وهز رأسه وعيناه نصف مغمضتين كأنما

هو فى غاية المتعة بالاستحمام ؟

وقال جذلا :

ــ قد تناولت حليبا رائعا فى يوم امس ؟ وامى ذات وجه اسمر مستدير وفى غاية الجمال . وانا ولدها الخامس . وقد قالت للممرضة ان هذه هى المرة الاولى تضع فى مستشفى . وقد احضرتها ، الى هنا ، مؤسسة خيرية . ووالدى انسان فقير . وعمله ذبح الخنازير وسلخها .

وفى هذه اللحظة ، عصرت فى عينيه نقط من حامض البوريك . صرخ قليلا مشمئزا ؛ وجاهد ليفتح عينيه ، واضاف يقول :

ــ أ ليس سلخ الخنازير مريعا ؟ تغمد فيه سكين حادة وتخرج تقطر دما . سأكون جزارا مثل بابا حين اكبر ، لا اسلخ الخنازير فحسب ، بل اولئك الذين يأكلون كالخنازير والذين يرفضون العمل . . .

استمعت اليه صامتا . وعندما وصل الى هذه النقطة اقفلت عينى وبقيت هادئا .

ــ وماذا عنك انت ؟ هل حصلت على ما يكفيك من طعام بالامس ؟ ماذا تشبه امك ؟

اهتجت مرة ثانية وقلت :

ــ لا ، لم احصل على ما يكفى مساء امس ــ ليس لدى امى حليب . قالت الممرضة انها ستدر حليبا فى غضون يومين . امى لطيفة وتعرف القراءة . هناك اكوام من الكتب على الطاولة بجانبها ، والغرفة مليئة بالزهور .

ــ وماذا عن ابيك ؟

— لم يكن هنا : كانت وحدها ولم تتكلم مع احد . لا اعرف شيئا عن ابى .

وقال صديقى :

— هذا هو جناح الدرجة الاولى . وليس فيه سوى سرير واحد . الجناح الذى نزلت به امى ملىء بالضجة ، فيه عشرة سرائر او ما يقرب من ذلك . وكثير من الاطفال هنا امهاتهم هناك ، ويتلقون جميعا غذاء طيبا مثلى .

وفى اليوم التالى ، رأيت ابى حين نقلت لتناول الغداء . كان مضطجعا على وسادة امى . كان وجهها والدى متوترين ونظرا الى نظرة عميقة . وجه ابى نحيف مسطح اهدابه طويلة وعيناه رحيمتان . وكان دائما متجهما قليلا كما لو انه يفكر طول الوقت .

وقال ابى :

— اما وقد نظرت اليه الآن نظرة جيدة — فانه جميل الشكل مثلك :

وابتسمت امى وتحسست وجهى فى رفق :

— عيناه واسعتان كمثل عينيك .

قام ابى وجلس الى جوار السرير : وامسك بيد امى وداعبها فى لطف ، وقال :

— لن نكون وحدنا بعد الآن . سأساعدك فى الاهتمام به وسألعب معه بعد انتهائى من الدروس . ويمكننا ان نصطحبه معنا فى ايام العطلة الى الجبال والى شاطئ البحر . ينبغي ان نهتم بصحته كي

لا يصبح مثلي ؛ ومع ان لا شيء لي فلست شديدا كما ينبغي .

واومأت امي برأسها وقالت :

ـ نعم . وجب ان يتعلم العزف على آلة موسيقية والرسم ؛ لا يمكنني ان اؤدي ايا منهما فأشعر ان الحياة ليست كاملة كما ينبغي ؛

ـ ماذا تريدينه ان يكون ـ اديب ؟ موسيقى ؟

ـ اى شيء يمكن ان يكونه : وعلى كل حال ، طالما انه ولد والصين بحاجة الى العلوم فقد يكون من الافضل ان يكون عالما :

لقد مللت اذ لم احصل على اى حليب ، ولم يمنعني من الصراخ سوى محادثتهما الشيقة .

ـ وجب ان نشرع في الادخار لتعليمه ؛ كلما بكرنا كان ذلك افضل .

وقالت امي :

ـ نسيت ان اخبرك ان اخي وعد ان يهديه دراجة حين يبلغ السادسة .

كان ابي مزهوا بكل هذا ، وقال :

ـ الولد عنده كل شيء . ألم تشتر اختي له مهدا ؟

وتمتمت امي وهي تقبل رأسي :

ـ أ ليس لطيفا ، يا ولدي ، ان كثيرا من الناس يحبونك ؟ كن لطيفا حين تكبر . . . .

عدت الى سلتي طافحا بالسعادة ناسيا انني جائع . ومهما يكن من امر ، وجدت صديقي سارحا في افكاره .

ــ مرحبا . رأيت ابى اليوم . انه مدرس وكان يتناقش مع امى حول تعليمى فى المستقبل . وقد وعد انه سيفعل ما فى وسعه بالنسبة لى ؛ وقالت امى انه ليس مهما ان كان ليس لديها حليب ، لأننى عندما اعود الى البيت سأحصل على حليب البقر وبعد ذلك عصير الفاكهة واشياء كثيرة اخرى . . . .

قلت كل هذا على نفس واحد .

ابتسم صديقى بما يشبه الرأفة او ربما الازدراء ، وقال :

ــ ما اسعدك ! اذا ما عدت الى البيت فلن احصل على حليب لأن امى تعمل ظئرا بعيدا عن البيت . سمعت هذا من ابى . وسأغادر هنا فى بحر يومين ، وعندئذ سترعانى جدتى لأمى التى تنوف على ستين حجة . وستطعمنى حساء الارز المغلى والارز المجروش ومسحوق فول الصويا . وعلى كل حال ، لا اعبأ بذلك .

قد خرس لسانى ، وتبخر احساسى بالاطمئنان وشعرت بالخزى ؛

واستطرد يقول وعيناه تلمعان بالزهو والشجاعة :

ــ ستكون دائما كنبتة فى اصيص فى دفيئة لا تمسها الرياح ولا المطر وفى درجة حرارة ثابتة . واما انا فسأكون كورقة عشب ملقاة على جانب الطريق يدوسها البشر والحيوان على حد سواء ، وتعبث بها الرياح والامطار . وقد ترانى من نافذة دفيئتك وتأسى لحالى . ولكن لا داعى لذلك . فسأتدثر بالقبة الزرقاء الواسعة والهواء النقى ، وستشدو الجداجد والفراشات ويرقصن لى . وسأحظى بصحاب متواضعين وبواسل ، لن يؤثر فيهم قتل ولا حريق ، سيزخرفون العالم بالخضرة نقطة فنقطة .

اصابنى الحرج لدرجة ان نزلت دموعى . وتمتمت :

— لم يكن بيدى ان اكون مرهفا . . . .

ولما ادرك ما انا فيه من هموم ، لطف كلامه واكد لى يقول :

— حقا ، لا احد منا يريد ان يكون مختلفا عن الناس الآخرين ، ولكن كل شيء يفرقنا عن بعض . سنرى ما يحدث لنا مستقبلا .

كان الثلج يتساقط خارج النوافذ كمثل الكرات القطنية ، متكوما فوق السطوح القرميدية المزججة باللون الاخضر . وتوجب ان اعود وامى بمناسبة رأس السنة الجديدة ، وكذا حال صديقى وامه لأنها يتحتم ان تباشر العمل قبل رأس السنة . ولم يبق لنا غير نصف يوم . ثم سنغوص فى بحر الحياة الشاسع . هل سيتسنى لنا وقت ننام فيه جنبا الى جنب تحت سقف واحد ؟

نظرنا الى بعض فى حنان . واصبح بوجهه الحازم وشفتيه المحكمتى الاغلاق وحاجبيه المقطبين وعينيه الحالمتين وذقنه المائلة قليلا ، غير واضح فى نور المساء .

وقلت لنفسى مغلقا يدى تحت الملاءة وشاعرا بضعة بسبب تفاهتى :

" سيسلخ خنازير — واناسا ايضا . . . . "

وعندما عدنا من والدتينا فى المساء ، تبادلنا الانباء . سيعود كلانا فى يوم العام الجديد بدلا من عشية رأس السنة . فقد ظن ابى ان الدنيا ستكون مشغولة وعاجة فى عشية رأس السنة ، وامى سينال منها الاجهاد ، بينما سيترك والد صديقى بيته ليختفى من الدائنين الذين يأتون فى العادة لتسوية الامور بنهاية السنة ، ولا يريد ان يتعب زوجته . اذن ، لدينا يوم آخر نقضيه معا .

ومنذ منتصف الليل ، حدث سيل لا ينقطع من الالعاب النارية .

وبدا نباح الكلب المتقطع فى الثلج الغزير يقول لنا ان سنة اخرى من حيلة الحب والكراهية اوشكت على نهايتها الحزينة . وقبل ان توضع اقنعة التواضع والسعادة مرة ثانية فى غد ، اراد الناس ان يندموا او يشكوا او يلعنوا او يبكوا الليلة لأن ذلك كل ما يستأهلون . وفى شوارع وازقة المدينة الكثيبة ، تنبض كثير من المشاعر الغارقة فى فرقعة الالعاب النارية .

اعترتنى ارتجافة والتفت لأجد صديقى يقضم شفته السفلى فى صمت . واخذ الليل يمضى شيئا فشيئا . واظن سمعته ، قبيل الفجر يتنهد .

وفى الصباح ، جاءت ممرضتان مشرقتان بابتسامات العام الجديد ، لتحمماننا . والبستنى احداهما " فانيلا" داخلية وكنزة خضراء اللون وكابا وجوارب ، تناولتها من حقيبة صغيرة . وقالت وانا بين يديها تتفحصنى :

— وسيم . عرفت امك كيف تهندمك .

كانت الملابس ناعمة ومريحة ، ولكنها جعلتنى اشعر بالحرارة وسرعة الانفعال ، واردت ان اصرخ .

وفى نفس الوقت ، كان صديقى بين يدى ممرضة . فدهشت اذ صعب ان اتعرف عليه . كان ملفوفا من تحت خصره بقطعة قماش زرقاء ذاوية . وارتدى معطفا ازرق مبطنا بالقطن ، والكمان طويلان عليه وكانا متيبسين كأن ذراعيه التصقتا ، على نحو اخرق ، كمثل طيارة ورقية كبيرة . نظرنا الى نفس الملابس الفضفاضة البيضاء التى خلعناها لتونا ، ثم جفلت عارفا اننا سنفترق فراقا دائما ، ماديا

وذهنيا :

لمحنى صديقى ، وابتسم ابتسامة فيها مزيج من الكبرياء وقليل من الحياء ، وقال :

— تبدو وسيما فى ملابسك الانيقة . قد ارتديت درعى كى اصارع من اجل العيش فى ساحة الحياة .

واسرعت الممرضتان ، ملقيتين الملابس الفضفاضة البيضاء فى سلة الغسيل ، وحملتانا بين اذرعتهما . لم اقدر على كبح نفسى من الصراخ عاليا حين وصلنا كلانا الى الباب الزجاجى ، ولم يستطع صديقى ان يحبس دموعه هو الآخر . لوحنا بأيدينا فى هيجان ، وهتفنا :

— مع السلامة يا صديقى العزيز .

وذهب كل منا فى طريق ، وذوت صيحاتنا عند طرفى الممر :

كانت امى على اهبة الاستعداد ، واقفة فى الغرفة مع ابى الذى حمل فى يده حقيبة صغيرة . حملتنى بين ذراعيها ومسحت دموعى وقالت تهدئنى :

— لا تبك يا حبيبى — نحن عائدون الى البيت ، ماما تحبك وبابا يحبك .

واحضر كرسى متحرك ، جلست عليه امى وانا بين يديها ملفوف فى بطانية خضراء ومن خلفنا ابى . ونزلنا بالمصعد بعد ان قدمنا شكرنا الى الطبيبة والممرضات اللائى جئن لوداعنا .

كانت سيارة واقفة امام منتصف الباب الزجاجى . وما ان فتح ابى الباب هبت داخله نفثة باردة فأسرعت امى بتغطية وجهى بالبطانية . وما لبثنا ان تركنا الكرسى المتحرك ودخلنا السيارة واغلقنا بابها . ازالت امى

الغطاء عن وجهى فرأيت الزهور حولنا فى السيارة ووجهى ابوى الحنونين .

كانت الطريق غاصة بعربات الركشة عند بوابة المستشفى .

وبينما نحن بانتظار ان تخلو الطريق رنوت بنظرى من نافذة السيارة فلمحت صديقى ابن العشرة ايام بين يدى والده ، تتبعه امه حاملة صرة صغيرة ملفوفة فى قماش ازرق . وضع ابوه قبعة لبادية زرقاء على رأسه وارتدى معطفا محشوا قطنا ، وكان رأس وليده مستلقيا على كتفه الصلبة تحت حافة القبعة العريضة ورأيت وجه صديقى — نتف من الثلج حطت على حاجبين ووجنتين ، وكانت عيناه محكمتى الاغلاق ، وظهرت على شفتيه ابتسامة شاحبة من كبرياء . لقد بدأ يخوض معركته لحظة خروجه من المستشفى .

وانطلقت سيارتنا بين الثلج المتطاير والاصوات المكتومة لصنوج واجراس العام الجديد . وقربتنى امى اليها وهمست :

— حبيبى ! انظر ! اى عالم لطيف نظيف لدينا !

وانفجرت فى الصراخ .

• اغسطس ١٩٣١ ، بكين

كلمة عن المؤلفة

بينغ شين : اديبة صينية معاصرة اسمها الحقيقى شيه وان ينغ ، من مواليد ١٩٠٠ بمحافظة تشانغله ، مقاطعة فوجيان . فى سنة ١٩١٨ ، التحقت





اولا بالقسم الاعدادى لجامعة شيخه للنساء ببكين ثم بقسم الآداب بجامعة يانجينغ . وفى العام التالى ، اشتركت فى حركة الرابع من مايو الطلابية الوطنية وبدأت حياتها الادبية . وانضمت الى جمعية الدراسات الادبية التقدمية فى سنة ١٩٢١ . وبعد ان تخرجت فى سنة ١٩٢٣ ، درست فى الولايات المتحدة حتى سنة ١٩٢٦ ، عندها عادت الى الصين لتدرس فى جامعة يانجينغ وكلية الآداب للبنات بجامعة تشينغهوا . وفى اثناء حرب المقاومة ضد اليابان ، من ١٩٣٧ - ١٩٤٥ ، انجزت اعمالا ادبية فى كونمينغ وتشونغتشينغ وذهبت الى اليابان فى سنة ١٩٤٦ ، تدرس " الادب الصينى الجديد " بجامعة طوكيو وعادت الى الصين فى سنة ١٩٥١ ، لتواصل كتابة ادب الاطفال والاعمال النثرية . وقد انتخبت نائبا فى المؤتمر الوطنى لنواب الشعب وعضو اللجنة الدائمة للمجلس الاستشارى السياسى للشعب الصينى ، ونائب رئيس اتحاد الاوساط الادبية والفنية لعموم الصين ، وعضو مجلس اتحاد الكتاب الصينيين .

تتضمن كتابات بينغ شين القصص القصيرة والشعر ، ولكنها اشتهرت اكثر بأعمالها النثرية . وتشتمل كتاباتها المبكرة القصتين القصيرتين : « عائلتان » و « الضعيف والشاحب » والمجموعة الشعرية : « النجوم » و « المياه فى الربيع » ، والاعمال النثرية : « للقراء الشباب » و « الماضى » . وهذه الاعمال تفضح الحكم المظلم لأمراء الحرب الاقطاعيين وتعكس القلق والهموم لدى بعض المثقفين الشباب ، وتبرز القضايا الاجتماعية وتظهر التعاطف مع العاملات المضطهدات . وفى الثلاثينات نشرت « الفراق » و « الفتاة دونغ أر » وغيرهما من القصص القصيرة ومجموعة نثرية « حول النساء » ظهرت فى اثناء حرب المقاومة ضد اليابان . وبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية ، توجهت الى النثر اساسا . فقدمت من جملة ما قدمت : « ثناء على الكرز المزهر » و « قد ايقظنا الربيع » وقصصا للاطفال من مثل : « مذكرات تاوتشى فى العطلة الصيفية » و « مرة اخرى للقراء الشباب » و « مصباح برتقالى صغير » .

وفى سنة ١٩٥٤ ، نشرت دار نشر الادب الشعبى ببكين مجموعتها النثرية التى تصف الحياة فى المجتمع الجديد . لقيت اعمال بينغ شين وخصوصا النثرية ، اقبالا جماهيريا لما تتصف به من اسلوب فريد ، وتعبر بعمق عن المشاعر من خلال اللغة الطبيعية والرشيقة .

« الفراق » من كتابات بينغ شين المبكرة . ومن خلال حياة وليدين : " انا " ابن مثقف و" الصديق " ابن عامل . . تصور القصة ان الناس يفترقون عن بعض ليس بمحض ارادتهم بل بتأثير الضغوط الاجتماعية والخلفية العائلية .

وانغ تونغ تشاو

طفل على ضفة البحيرة



ندر ان اهتممت بزيارة البحيرة الشهيرة مع اننى عشت فى مدينة تربض على شاطئها . وقد بدت البحيرة ضيقة تعج بالفوضى بأدغال القصب وتكتظ بالمراكب الكبيرة . وكنت اتردد الى هناك مع اصدقاء للتجديف فى بعض الامسيات . وكان يسودها الهرج والمرج فى كل ليلة ، وكانت تدوى اصوات الصنج والطبول ، والغناء المقيت ، وصرخات الرجال الغليظة وهتافات الاغراء من النساء المتجملات بأدوات الزينة ذوات الشعر الصقيل الدهان ، وصراخ الباعة المتجولين على القوارب الصغيرة . . . يجرف كل ذلك سطح البحيرة الهادئ كمثل موجة عاتية .

ومتى ما ذهبت الى البحيرة ، اقفلت عينى وصممت اذنى عما حولى ، واهيم فى افكارى . ومن وقت لآخر ، كنت اتمشى ، حين تنعكس الوان شمس الغروب ، على ضفة البحيرة يظللها السكون ، لأستمتع بالنسيم . واصغى الى نقيق الضفادع فى الاعشاب الخضرة بعد هطول المطر ، وارقب الطيور المغردة تتطاير بين الاغصان . وكنت اشعر اننى مثار نوعا ما ، يحركنى احساس بالطبيعة عميق وتثيرنى افكار بعيدة النطاق لا تعد ولا تحصى .

وذات يوم ساعة الغروب ، انارت شعاعات بنفسجية وارجوانية اشجار الصفصاف الندية بعد نزول المطر . وقد نمت فى بركة الى جوار معبد ورقات لوتس هائلة اعلى من قامة الانسان . ومع ان هذه

اللوتسات قد ازهرت ، زهورها نقية كاليشم الابيض المنحوت ، الا انها اغلقت بتلاتها بعد الظهر ، وهناك نحلة او نحلتان ما زالتا تحومان وقد اغراهما العبير ، عازفتين عن الرحيل . وهناك على المياه الخضراء القاتمة ، سحابات قرمزية تتلألأ كالذهب ، والاشعة المتدلية فى سرعة فى وسطها تميزت بألوان متدرجة . ولمعت طبقة فوق اخرى من الالوان ، متمازجة ومتفاعلة ، ببريق يزغلل النظر .

وكانت السماء قد صبت ماءها غزيرا نحوا من ست او سبع ساعات فى الليلة الماضية . وها هى القبة الزرقاء الآن صحو ، فدلفت وحيدا على طول الضفة الغربية من البحيرة مستمتعا بالمنظر الفتان وقد خلف حذائى الجلدى آثارا حادة على البلاطات المغطاة بالطحلب التى تفرش الممر .

وكان الناس فى وسط البحيرة ، يتصايحون ويتشاجرون فى عنف . وابطأت فى السير ناحية الطرف القاصى من الممر الحجرى . وكانت اغصان الصفصاف ترسل حفيفها ونبتات الفلفل المائى التى اخرجت زهورها بجانب القصبات المهتزة تتراقص فى النسيم على حافة الماء . ربما كان هذا المكان الاكثر عزلة فى كل البحيرة . وكانت تغاريد العصافير الصغيرة بين الاشجار تحيى المساء ، ما عدا وقع اقدام شخص او اثنين من المارة احيانا . وكانت الضفادع فى الاعشاب متشابكة فى ايقاع متناغم .

ولم تكن بى رغبة ان استعيد المشهد الذاوى سريعا مع انه اشعرنى باحساس من البهجة اكثر من المعتاد ، لأنه ذكرنى بعبارة : " غسق الشمس الميتة " — عبارة وجدتها مثيرة للاكتئاب .

وغرق رأسى فى التفكير ، وسرت حاملا اجهادا شديد الوطأة . وكانت شعاعات الشمس القرمزية والارجوانية تزداد قتامة ، واصبح نور الشمس غارقا اكثر من نصفه فى الماء . ادركت ان الوقت متأخر ومع ذلك لم ارغب ان اعود الى البيت . جلست على صخرة بيضاء وضخمة على طرف البحيرة واخذت اعبق من هواء الخريف فى السديم الذهبى ينساق على سطح الماء ، مرخيا السمع الى آخر ازيز لزيز الحصاد فى اواخر ليلة صيف . وجلست وحدى تحت اشجار الصفصاف وراقبت ضوء الغسق يذوى فى البعد ، ولمحت الوهج الضئيل النائى لمصابيح المساء الاولى . لم يعد الطقس حارا فى اثناء النهار ، واتى المساء بنوع من الرطوبة الناعمة . وفى ذات الوقت ، اثارنى وعلى نحو مبهم اهتياج غير محدد ، ربما بسبب هذه البرودة .

وبينما انا جالس اسبح فى افكار لا معنى لها ، سمعت خشخشة وراء شجرة الصفصاف . فارتبكت قليلا لأن ذلك حدث على نحو غير متوقع فى الظلام الذى اكتنفه السكون . وبعد لحظة ، سمعت وقع اقدام خفيف تخلو فى ادغال القصب فقفزت ، ولففت حول شجرة الصفصاف ووصلت الى الجانب الآخر من الادغال . وكان الظلام قد ارخى ستائره . فلم اتبين شيئا واضحا . وتهيأ لى اننى المح خيالا صغيرا على الضفة الموحلة بجانب الدغل .

وصحت : " من هناك ؟ "

ولكن الخيال لم يرد جوابا .

اعتاد هذا المكان ان ينعم بالهدوء الشديد . وكان اكثر ما يكون خاليا من الناس بالليل . وها حبال الظلام تشتد اكثر فأكثر ، والقصبات

والصفصافات يخبو حفيفها . وداهمني قليل من خوف . وصحت للمرة الثانية : "من هناك ؟" وبينما اهم لأغادر المكان اجاب الشبح الداكن الصغير على الضفة الموحلة بصوت واهن خافت :

— انا ، الصغير شون . . . انا هنا . . . اصطاد سمكا .

فى حقيقة الامر ، كان قد ابتلع الكلمة الاخيرة ، وارتجف صوته قليلا . وقد رن الصوت كصوت غلام فى الحادية عشرة او الثانية عشرة . وانتابتنى شكوك كثيرة .

وسألته :

— كيف تصطاد بعد نزول الظلام ؟ كيف ترى ؟

ولم يرد الخيال الضئيل مرة اخرى .

— اين تسكن ؟

— فى زقاق "رأس الحصان" . . . .

ثمة ما وراء هذا الصوت الواهن الذى بدا مألوفا لى . فتقدمت خطوة نحوه وسألته :

— هل اقمت هناك على الدوام ؟

فرد الغلام الصغير فى اسرع ما يكون :

— لا . كنت اقيم فى شارع "السلام" . . . .

وفجأة تذكرت .

— اوه ! انت ابن آل تشن . . . . أليس ابوك حدادا ؟

وسحب الغلام عود البامبو الذى يصطاد به وجاءنى راكضا حافى القدمين على الضفة الموحلة .

— بلى . . . . ابى حداد . ولكن من انت ؟

اقتربت من الغلام ودققت فى وجهه النظر . وتعرفت عليه بعد عناء . ماذا قد حدث لشون الصغير المحبوب ابن الخمس او ست سنوات ! كان وجهه قد علاه السواد — اما من الوحل واما من السناج . وكان رداؤه ملبسا ازرق قصيرا من صنع بيتى ، علا ركبتيه ، وكان يتقطر وحلا ويتفصد عرقا . وما ان سمعنى اناديه باسمه حتى حماق فى دهشا . لم يعرف من اكون .

تذكرته حين كان ابن اربع او خمس سنين — كنت مغرما باللعب مع الاطفال آنذاك . وكلما مررت ببيته لمحته قابعا فى حضن امه تحت ظل شجرة دردار كرت عليها السنون . وكان دائما ما يشدو لى اغنيته عن الديك الصغير .

وها قد مر ما يربو على ست سنين ، غالبا ما كنت بعيدا فيها عن المنزل . وانبأنى افراد اسرتى ان شون الصغير قد انتقل ولا احد يدرى اين هو بالضبط . ولما مررت ببيته ورأيت اسم انسان آخر على بابها اصابنى الم كما لو اننى فقدت صديقا وفيا !

وقابلته اليوم مرة اخرى فى الظلام الرطب بجانب البحيرة ، فكيف لا اندهش ؟ والاغرب ، كيف اصبح شون الصغير المتورد الوجنتين ذو اليدين البيضاوين النظيفتين كالمتسولين الصغار القذرين على قارعة الطرق ؟ كان ابوه حدادا محترما قادرا على تدبير شؤون اسرته ماليا .

قدت شون الصغير الى صخرة واجلسته الى جوارى : وحكيت له انى طالما رأيته وهو صغير وكيف لعبت معه وجعلته يضحك ، فنظر الى محتارا . واخذت اسائله :

ــ اين ابوك الآن ؟

ــ يمكنك ان تقول انه بالبيت . . . .

بهذا اجابنى شون الصغير مترددا . وادركت من تعابيره انه ظن بصديقه القديم امرا غريبا .

ــ أ لا يزال يعمل ؟

ــ ماذا . . . يخرج فى كل صباح ولكن لا يعود الى البيت . . . ومعه فلوس ولو مرة واحدة . . . أ يعمل ؟ . . . لست ادرى .

ــ وماذا بخصوص امك ؟

فرد الغلام باختصار :

ــ ماتت .

لقد صدمنى ذلك . ولكن ذلك ما كان ينبغى ان يحدث . فأم شون الصغير قد كانت امرأة ضئيلة واهنة . وقال الناس انها قد وضعت سبعة اطفال فى غضون ثلاث عشرة سنة . ولم يتبق منهم على قيد الحياة سوى شون الصغير . ولكن لم يخطر على بالى ان يأتى اجلها سريعا !

ــ من ايضا فى داركم ؟

ــ عندى ام ، ام جديدة . . . .

ــ اوه ! هل عائلتكم ابأس مما سبق ؟ يبدو عليك . . . .

شون الصغير متميز بالذكاء دوما . وما كان منه عند سؤالى الفظ هذا الا ان اشاح يحملق بنظره فى الفضاء البعيد المدثر بالضباب . ثم اخفض رأسه . وبعد برهة طويلة قال فى صوت خفيض :

ــ لا نجد احيانا ما نأكل . وغالبا ما يكون ابى خارج البيت . . . .

ــ الى اين يذهب ؟

ــ لست ادرى . . . لا يعود الا بعد الفطور . . . . سمعت انه يعمل فى وكر افيون . . . لا اعرف اين هو .

وكان صوته الخفيض فى غاية البطء . وبدأت اعى المسألة : وشعرت اننى مكره ان اواصل السؤال .

ــ كم . . . كم عمر امك الجديدة ؟ هل هى حسنة معك ؟

ــ سمعت انها فى الثلاثين من عمرها . وهى من اسرة بداخل البوابة الشرقية . . . .

وتسالل الى وجهه تعبير مشوب بالقلق . وسألته :

ــ هل تضربك ؟

فأجاب على نحو حاسم :

ــ هى ؟ لا . ليس عندها وقت .

اذا كانت المرأة الشابة هى المعيل الوحيد لأسرة كأسرته ، فبطبيعة الحال ليس عندها وقت تستغنى عنه !

ــ واى عمل تزاوله ؟

ــ عمل ؟ هى لا تعمل . ولكنها تنشغل كثيرا فى وقت متأخر من بعد ظهر كل يوم . ولهذا السبب لا اقدر ان ابقى بالبيت . . . اخرج فى كل مساء الى ادغال القصب هذه ، هنا فقط . . . فقط هنا . . . .

ــ ماذا ؟ . . .

تعلم شون الصغير كيف يسلك مسلك الكبار . جعد انفه الصغير وشخر :

– لا ينقطع الضيوف عن بيتنا ! يأتى اثنان او ثلاثة احيانا فى ليلة واحدة . واحيانا لا نرى احدا منهم . : :

هزنى هذا الامر ايضا . ولكنه اضاف :

– . . . تكسب امى مالا لتطعمنا . . . عندما يتوافدون تطردنى خارج البيت . ولا تسمح لى بالعودة الا فى وقت متأخر من الليل . ابى يعرف جلية الامر . وهو الآخر لا يعود الى البيت ليلا . . .

اتضحت الآن امام ناظرى اى بيئة نشأ فيها شون الصغير . كان هذا اشبه بما فى الروايات : طفل اشعث الشعر ، شاحب ، هزيل ، عيناه غائرتان ، تحتم ان يهيم على وجهه فى كل ليلة بين الادغال حافى القدمين . واذا ما عضه الجوع بأنيابه تحدث الى اصدقائه – الطيور والضفادع ، او يستمع الى الموسيقى التى تعزفها الرياح بين الادغال .

كان ابوه نادلا فى وكر افيون . وامه – وبالاحرى زوجة ابيه – تبيع لحمها – تفعل اقسى ما يكون من المرارة للمحافظة على رزق الحياة .

وليس لشون الصغير من رفيق لدى عودته الى البيت فى الليل الساكن المهجور سوى النجوم . وفى اليوم التالى ، كان الامر على نفس الشاكلة مرة اخرى . فقد كان يشبه فصلا من رواية الى حد كبير . لم استطع ان اصدق . فقد تذكرته طفلا نظيفا محبوبا . كيف وصل به الحال الى هذا الحد ؟

وسألته :

– اى صنف من الناس هؤلاء الذين يتوافدون الى بيتكم فى

كل ليلة ؟

وكان رده :

— لا اراهم دائما . وان حصل فذلك للحظة . يرتدى بعضهم سترات عسكرية رمادية ، بقبعات عسكرية مائلة على العيون . وترشح من بعضهم رائحة الكيروسين ، وعلى صدرياتهم سلاسل ساعات فضية سميكة . وقلة منهم ترتدى جلابيب طويلة . ويكون الزوار ، فى العادة ، ثلاثة واربعة فى كل ليلة . وفى بعض الاحيان ، لا يسمع بابنا بأحد منهم .

— ولماذا كل هذا ؟

شعرت ان سؤالى الملحاح ليس رقيقا للغلام . ولكننى لم استطع ان اكتمه .

ضحك شون الصغير وقال :

— ألا تعرف ؟ كل البيوت فى زقاق " رأس الحصان " مفتوحة للزائرين فى كل ليلة ! . . .

وضحك ثانية يهزأ منى ظانا اننى المثقف لا يعرف الا القليل :

لم يتبق ما يمكن سؤاله عنه . ولم افرض نفسى لأجعل هذا الطفل البرىء يحكى مزيدا عن قصته المأساوية . وبدا ان فى عقله شيئا ما ، فحماق شارد الذهن فى النجوم اللامعة فى شحوب عبر الظلام .

لو ان امه ما زالت على قيد الحياة فاربما تغيرت الامور — استغرقت فى التأمل . فحياة هذه المرأة البائسة التى تقوم مقام امه حاليا ليست بأفضل من جهنم !

آه ، انها الاسرة ! التنظيم الاسرى وضغط الزمن والحاجة الماسة

لتدبير الحياة ! جئت اتمشى متسكعا على ضفة البحيرة بعد هطول المطر . فانتهت فسحتى بالجم من القضايا المتعبة التى جثمت على صدرى ، بدلا من العثور على الراحة .

واخذت اقلب فى الامر . طفل يعانى من الجوع ويقاسى من القلق ، جاء الى ادغال القصب فى الظلام وقضى نصف الليل هناك . وينبغى ان تتحمل امه ما لا نهاية له من اسوأ حالات الاذلال بسبب العبء الملقى على كاهلها فى اعالة الاسرة بكاملها . هذه الحياة دون حياة الانسان ! ولا ينتهج البائس فى مجتمعنا الحالى الا هذه الدرب اليائسة ذات النهاية القاضية !

واكلتنى الوساوس . واحسست بالاهتياج عاجزا عن الجلوس فى سكون . وها قد ابتاع الظلام ما زودنى به مشهد البحيرة من انطباع مفعم بالنشاط والهدوء .

لم يطاوعنى قلبى ان اترك شون الصغير يرقب وحده ضوء النجوم على الشاطئ ، لعلمى انه لن يجسر على العودة . فجلست الى جواره تحت شجرة الصفصاف . وراودنى احساس بالاستزادة من سؤاله ولكننى شعرت ان فى ذلك قسوة . وفى هذا السكون ، فكرت فى حقيقة ان الطفل قد شكلته بيئته . . . واهتززت لشون الصغير وكل الاطفال الآخرين من امثاله !

وعلى حين فجأة ، تسلل نداء مثير من الضفة المقابلة : " يا شون الصغير . . . اين انت ؟ . . . " فنهضت قافزا على قدمى . وكان الطفل قد ركبه الذعر والقى بعصا الصيد فى الماء وركض مسرعا فى درب ضيق . وطوقتنى حيرة تامة ، ولم اعرف ما قد حدث . وهنا

بزغ رجل متوسط العمر بين القصبات واخذ شون الصغير من يده ، وانطلق مسرعا واياه . وسمعت الرجل يقول :

" اعتقلت الشرطة اباك فى الليلة الماضية . . . فقد هاجمت وكر الافيون . . . لم نقدر ان نخبر امك . فالسيد وو فى زيارتها . ومن يجسر على ازعاجه ! انت الوحيد الذى يمكننا نحن الجيران ان نبلغه . . . . "

واخذت ظلالهما تذوب فى الليل تدريجيا ، وذوى صوت الرجل .

وعدت مجهدا ، على مهلى ، الى البيت . وكان اناس قليلون بالخارج فى ضباب الليل الكثيف . وكان ثمة عبء على صدرى كأن الضغط الجوى فى تلك الليلة خانق على غير العادة . وكانت النجوم التى قادتنى شديدة الشحوب ليست ساطعة كما اعتادت ان تكون .

اغسطس ١٩٢٢

كلمة عن المؤلف

وانغ تونغ تشاو (١٨٩٧ - ١٩٥٧) : روائى وشاعر مشهور فى الصين المعاصرة ، ولد فى محافظة تشوتشنغ بمقاطعة شاندونغ . وقد التحق بمدرسة يوييغ الثانوية فى جينان ، مقاطعة شاندونغ ، فى سنة ١٩١٣ . ودخل الجامعة

الصينية ببكين فى سنة ١٩١٨ ، واشتغل محاضرا جامعيا ومعلما بمدرسة بعد التخرج ، وفى نفس الوقت زاول الكتابة الادبية . وقد لعب دورا نشطا فى الحركة الادبية الجديدة فى سنة ١٩١٩ . ومن كتاباته المبكرة : « بعد سقوط الثلج » و« التأمل » . وفى سنة ١٩٢١ ، اسس جمعية الدراسات الادبية بالاشتراك مع ماو دون وتشنغ تشن دو ويه شنغ تاو وادباء تقدميين آخرين ، وبدأ فى سنة ١٩٢٢ يتصل بالاديب لو شيون . وذهب الى اليابان فى سنة ١٩٢٧ وتتضمن اعماله فى هذه الفترة المجموعتين الشعريتين « الصباح المثلج » و« الطفولة » ، والقصص القصيرة : « ليلة ممطرة فى الربيع » و« نداء النفير» و« اثر الصقيع » ، والرواية القصيرة : « اوراق النبات » . ونشر مجموعة تقارير صحفية بعنوان : « الربيع فى شمال الصين » ، بعد جولة فى شمال شرقى الصين قام بها فى سنة ١٩٣٠ . وفيما بعد ، اشترك فى النشاطات الادبية التقدمية فى شانغهاى ، وكتب « مطر الجبل » التى تعد من افضل رواياته المشهورة وهى تصف كيف هرب فلاحو شاندونغ رغم تشبثهم الشديد بالارض الى المدن فرارا من الضرائب الباهظة فى سنة من سنوات الكوارث الطبيعية والقتال ، وانضموا الى صفوف العمال الذين كانت حياتهم محفوفة بالمخاطر . وفى نفس السنة ، ارغم على مغادرة شانغهاى بسبب حظر فرض على روايته وذهب الى اوربا لدراسة الآداب والفنون القديمة . وعاد الى الصين فى سنة ١٩٣٥ وانضم الى جمعية انقاذ الوطن للاوساط الثقافية بشانغهاى . وفى سنة ١٩٣٦ ، نشر رواية « زهرة الربيع » التى تعكس الاتجاه الايديولوجى للمثقفين الشباب بعد حركة الرابع من مايو والطرق المختلفة التى سلكوها . ونقل اسرته الى شانغهاى فى سنة ١٩٣٧ ، واشتغل معلما فى كلية شانغهاى للفنون الجميلة . وبعد ان اندلعت حرب المقاومة ضد اليابان ، ذهب يعلم فى جامعة جينان . وعاد الى تشينغداو فى سنة ١٩٤٥ ليصبح استاذا بشعبة اللغة الصينية بجامعة شاندونغ . وبعد ان تأسست جمهورية الصين الشعبية ، انتخب نائبا فى المؤتمر

الوطنى لنواب الشعب وعضو اللجنة الشعبية بمقاطعة شاندونغ وعضو الاتحاد الصينى للاوساط الادبية والفنية وعضوا دائما بمجلس الادارة لاتحاد الكتاب الصينيين و رئيس اتحاد الادب والفن بمقاطعة شاندونغ وعضو العصبة الديمقراطية الصينية . وفى سنتى ١٩٥٧ و١٩٥٨ ، نشرت دار نشر الادب الشعبى ببكين « قصص مختارة » و« اشعار مختارة » لأديبنا .

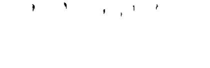
« طفل على ضفة البحيرة » قصة قصيرة خطها يراعه فى سنة ١٩٢٢ ، تصور حياة اسرة بائسة من خلال طفل .



شيوى دى شان

الأخت ليو الكبرى







كان الصيف لاهبا على غير العادة فى بكين فى تلك السنة . ومع ان المصابيح قد انارت الشارع ، الا ان بياع عصير التفاح البرى على ناصية الزقاق ما زال يعلن عن بضاعته فى رنين ايقاعى من سلطانيتين نحاسيتين صغيرتين ، كمثل منشدات الاغنيات الشعبية . ومرت امرأة وعلى ظهرها سلة كبيرة من فضلات ورق ، من امام بائع العصير . وقد حجبت وجهها قبعة قشية بالية ، ولكنها عندما حيته لمح وميضا من اسنان بيضاء . وقد اثقل كاهلها ما تحمله من عبء . وكانت تمشى واضعة قدما فى وقار امام الاخرى كمثل جمل الى ان دخلت بوابة بيتها .

وكان وراء البوابة فناء صغير تصطف على جانبيه بيوت من طابق واحد تهدم معظمها . وكانت المرأة تعيش فى غرفتين خربتين على جانب من الفناء . وكان الركام يملأ اغلب الفناء ، وامام بابها تعريشة خيار وعدد من نبتات الذرة الطويلة . ونما مسك الروم تحت نافذتها . وكانت بعض الاخشاب المتهرئة تحت تعريشة الخيار ، من الواضح انها استخدمت مقاعد . وما ان اقتربت من بابها حتى خرج رجل وساعدها فى انزال سلتها الثقيلة .

ــ تأخرت اليوم ، يا زوجتى .

فنظرت اليه المرأة فى دهشة ، وقالت :

ــ ماذا تقصد ؟ هل خبل عقلك ، فتريد زوجة ؟ قلت لك

لا تنادني بذلك ؟

دخلت الغرفة وتناولت قبعتها القشية البالية وعلقتها وراء الباب ؟ ثم غرفت ماء من زير طيني عدة مرات متتالية بنصف قطعة من البامبو ، وشربت بسرعة حتى انها لم تقدر ان تلتقط انفاسها . وبعد ان لهثت للحظة ، ثم تقدمت تجاه تعريشة الخيار ، وجذبت السلة الكبيرة الى جانب وأخذت مقعدها على خشبة بالية .

وكان الرجل يدعى ليو شيانغ قاو . وكان عمره مقاربا من عمرها — حوالى ثلاثين سنة . وكان اسم عائلة المرأة ليو ايضا . ولم يعرف احد باستثناء شيانغ قاو ان اسمها تشونتاو او خوخة الربيع . وكان الجيران جميعا ينادونها باسم الاخت ليو الكبرى جامعة فضلات الورق . ذلك بسبب مهنتها التى تمارسها — تفتش فى اكوام القمامة على نواصى الشوارع واطراف الازقة لتكسب ما يقيم اودها ، تشترى مواد كتابية قديمة تدفع فى مقابلها علب كبريت . وكانت تقطع الشوارع من ظهور النور فى الافق الشرقى الى ان يرخى الليل ستائره ، تحت الشمس الحارقة او العواصف الثلجية ، وقد نالت نصيبها كاملا من الغبار . ولكنها كانت مولعة بالنظافة . فقد كانت تغسل وجهها وتحمم بدنها ساعة عودتها فى كل يوم ، صيفا كان او شتاء . ولم يتأخر شيانغ قاو فى ان يعد لها جردل ماء .

تخرج شيانغ قاو فى مدرسة ابتدائية ريفية . وقبل اربع سنين كان العساكر يجوسون فى منطقته ينهبون ويسلبون ، مما اضطر اسرته ان تفر ويتفرق شملها . وقد التقى تشونتاو ، وهى الاخرى لاجئة ، فى الطريق ، وسارا معا مئات الاميال ثم افترقا .

كانت قد ذهبت مع جماعة من الناس الى بكين وعثرت على وظيفة مربية اطفال لدى اسرة من الاجانب ؛ كانت سيدة الاسرة تفتش عن فتاة ريفية عديمة الخبرة . وقد احبتها سيدتها لنظافتها وظرفها ؛ ولكن الريفيين لا يحسنون اعمال الخادم ، اذ لا يمكنهم ان يعتادوا على التوبيخ والتعنيف . فتركت تشونتاو عملها فى اقل من شهرين ؛ ولما لم يكن فى حوزتها مال ، عزمت ان تجمع نفايات الورق . فتمكنت من كسب ما يكفى لسد الرمق .

اما حكاية شيانغ قاو ، بعد ان افترق عن تشونتاو ، فكانت فى غاية البساطة . فقد توجه الى تشوتشو يفتش عن قريب له ، ولكن الرجل كان قد اختفى . ولم يقابله اصدقاء الاسرة فى ود وترحاب حين سمعوا انه جاء لاجئا خاوى الوفاض . فانتقل الى بكين حيث قدمه احد الناس الى وو العجوز الذى كان يبيع عصير التفاح البرى فى الشارع ، واعاره العجوز وو مسكنه الحالى فى الفناء المتهدم ، على اساس ان يخليه اذا ما تقدم احد لاستئجاره . كان شيانغ قاو خالى عمل ، فأخذ يمد يد العون لبائع العصير العجوز فى بيع العصير وتسوية حساباته . لم يكن يدفع ايجارا ولم يقدم له العجوز وو شيئا فى مقابل عمله ، سوى وجبتى طعام يوميا . ولم تكن تشونتاو سيئة الحظ كثيرا فى جمع الورق ، ولكن من كانت تقيم عندهم لم يسمحوا لها بتخزين سلعتها . فذهبت تفتش عن مكان عند سور المدينة الشمالى ، وما ان طرقت باب بيت ، خرج شيانغ قاو . واستأجرت الغرفتين من العجوز وو ، وابقت على شيانغ قاو مساعدا لها ، موفرة على نفسها كثيرا من الشكليات .

جرى ذلك قبل ثلاث سنين . ولما كان شيانغ قاو يعرف قليلا من القراءة ، اخذ يفرز الاوراق التى تجمعها تشونتاو ويلتقط القطع القيمة نسبيا مثل الرسوم او الرسائل او اللفيفات التى خط عليها مشاهير بأقلامهم . وتحسن العمل مع تعاون الاثنين . ومن آن لآخر ، حاول شيانغ قاو ان يعلم تشونتاو القراءة والكتابة ولكنه لم يتوفق فى ذلك . لم يكن يحسن القراءة ، وكانت الصعوبة اشد فى ايضاح الكلمات للآخرين .

وكانت حياتهما معا ، بكل مقياس ، عامرة بالبهجة كمثل سنونوتين ، حتى ولو ليست كمثل حياة البطة المندرينية والعلجوم ، وهما مثالان شهيران لنعيم الحياة الزوجية .

ولنعد الى الحاضر . فما ان دخلت تشونتاو الغرفة حتى تبعها شيانغ قاو بدلو الماء .

فقال طافحا بالسعادة :

— اغسلى يا زوجتى ، اننى اتضور جوعا ، لنتناول شيئا رائعا الليلة — كعك بالبصل ، أويمكن ذلك ؟ ان وافقت خرجت واشتريت اللوازم .

فقالت له وقد عيل صبرها :

— زوجة ، زوجة ! لماذا لا تتوقف عن مناداتى بذلك ؟

فتوسل اليها :

— لو تجاوبت مرة واحدة فقط — مرة فقط — فسأشترى لك من غد قبعة قشية ممتازة من سوق الادوات المستعملة . أ لم تقولى انك بحاجة الى واحدة جديدة ؟

ــ لا احب ان اسمع هذا .

رآها متضايقة قليلا ، فغير الموضوع ، وقال :

ــ حسنا . ماذا تحبين ان تأكلى ؟

ــ اى شىء تريد اشتر وانا اعده لك .

وعاد شيانغ قاو بعد فترة حاملا بصلا وسلطانية طحينية ، ووضعهما على المنضدة . وكانت تشونتاو قد انتهت من الاغتسال . وجاءت حاملة بطاقة حمراء كبيرة .

ــ من المؤكد ان هذه وثيقة زواج مسؤول كبير . لا تبعها فى السوق الصغير هذه المرة . ومن الافضل ان يحملها شخص الى فندق بكين . فسنحصل على نقود اكثر هناك .

فأجابها شيانغ قاو مازحا :

ــ هذه وثيقة زواجنا . والا بأى حق اناديك زوجتى ؟ لقد امضيت ما يقرب من عامين اعلمك القراءة وما زلت لا تعرفين اسمك .

ــ من يقرأ كلمات كثيرة كهذه ؟ وكفاية من حكاية الزوجة هذه . فلا احب سماعها . دعنا للجد الآن ، من كتب هذا ؟

ــ انا الذى كتبت . فقد جاء شرطى فى هذا الصباح يتفحص احوال السكان هنا . وقال ان الاحكام العرفية قد اصبحت اشد فى اليومين الفائتين . وينبغى لكل اسرة ان تقدم تقريرا دقيقا عمن يقيم معها وما نوع العلاقة بينهم . وقال وو العجوز اننى اذا قلت اننا زوج وزوجة فسينقذنا ذلك من كثير من الورطات . كما قال الشرطى انه ليس مقبولا اذا سجل ان رجلا وامرأة غير متزوجين يعيشان تحت سقف واحد . فتناولت وثيقة الزواج الفارغة هذه التى لم نستطع بيعها

فى المرة السابقة وملأتها بأننا متزوجان فى سنة ١٩١٩ :

— ماذا سنة ١٩١٩ ؟ اننى لم اعرفك فى سنة ١٩١٩ : انك ستؤدى بنا الى مهلكة مريعة . لم نعبد السماء ولا الارض معا ، ولم نرشف من كأس واحد سويا فكيف تقول اننا زوج وزوجة ؟

خرجت الكلمات من فم تشونتاو هادئة مع انها وقفت ضد الفكرة . وغيرت بنطالها الازرق وارتدت بلوزة بيضاء . وبدا محياها حتى بدون مستحضرات تجميل ، ينفح جمالا طبيعيا نضرا . ولو كانت قد رغبت فى الزواج ، ودبرت امرها الخاطبة المحلية على انها ارملة شابة فى الثالثة او الرابعة والعشرين من عمرها ، فلربما تستحق تشونتاو مئة او ثمانين يوانا على الاقل حسب الاحوال السائدة فى المجتمع .

ضحكت وهى تطوى الورقة من الوسط ، وقالت :

— لا تكن سخيفا . وثيقة زواج ؟ لنصنع الكعكة ونأكل .

ورفعت غطاء الموقد والقت البطاقة فى السنة اللهب . ثم توجهت الى المنضدة واخذت تعجن .

وقال شيانغ قاو عابسا :

— يمكنك ان تحرقيها كما تشائين : فقد سجلنا الشرطى على اننا زوجان . واذا ما فحصوا الامر رسميا فسأقول اننا فقدنا الوثيقة فى طريق لجوئنا . وسأناديك ، من الآن فصاعدا ، على انك زوجتى . العجوز وو يعترف بزواجنا ، وكذلك الشرطى . سأدعوك زوجتى سواء شئت ام ابيت . زوجة ، زوجة . وسأشترى لك قبعة جديدة فى غد . واخشى ان لا اقدر ان اقدم خاتما .

— امسك عليك لسانك والا جننت .

ـ يبدو انك لا زلت تفكرين فى لى ماو ؟

لم يكن شيانغ قاو عالى المعنوية كما كان فى لحظة من قبل . فقد قال ذلك فى صوت خفيض ولكن تشونتاو سمعته .

ـ افكر فيه ؟ زوج وزوجة لليلة واحدة تم انفصال لما يقرب من خمس سنين ولا من نبأ عنه طوال هذه المدة . ما فائدة التفكير ؟

لقد اخبرت شيانغ قاو بما حدث ليلها فى يوم زواجها . فعندما حملتها المحفة الأنيقة الى عش الزوجية ، جاء رجل مندفعا ، قبل ان يتسنى للضيوف ان يأخذوا مقاعدهم ساعة وليمة الفرح ، ليعلن ان حشدا من الجند قد وصلوا الى القريتين المجاورتين . وكانوا يقبضون على الرجال لحفر الخنادق ، وكان كل شخص يولى هاربا . فأسرع العريسان بحزم امتعتهما وفرا باتجاه الغرب مع باقى القرويين . وفى ليلتهما الثانية فى الطريق ، سمعا فجأة صياح الناس امامهم : " قطاع الطرق قادمون . اختبئوا . سارعوا بالاختباء ! " وحدث تدافع على نحو متهور فى محاولة للاختفاء ولم يكن لاحد ليفكر فى آخر سوى نفسه . ولما اشرقت الحسناء فى صباح اليوم التالى ، كان قد اختفى بضعة عشر انسانا بينهم لى ماو زوج تشونتاو .

وقالت :

ـ اظن ان قطاع الطرق قد اختطفوه ، وربما قتلوه منذ امد بعيد . انس ذلك . دعنا لا نتكلم عنه .

انتهت من اعداد الكعكة ووضعتها على المنضدة . وغرف شيانغ قاو سلطانية من حساء الخيار من الاناء الفخارى . وجلس الاثنان واكلا صامتين .

ولما انتهيا من الطعام جلسا تحت التعريشة وصارا يتبادلان اطراف الحديث . وجلب النسيم العليل يراعات صغيرة تحط على التعريشة كمثل آلاف من النجوم الهاوية ، فى حين ومضت نجوم حقيقة لا حصر لها وتلألأت بين اوراق تعريشة الخيار . وفتحت مسك الروم المزهرة ليلا بتلاتها وملأت الحديقة بأريجها .

وقال شيانغ قاو :

ــ ما الطف الرائحة !

وقطف زهرة ووضعها فى شعر تشونتاو .

ــ لا تخرب زهورى . وضع زهور فى الشعر ليلا ! ــ انا لست عاهرة .

وتناولت الزهرة واستنشقت عبيرها ووضعتها على المقعد الخشبى بجوارها .

ــ لماذا تأخرت اليوم ؟

ــ هوه ! كان العمل رائعا اليوم : مررت وانا فى طريقى الى البيت بقنطرة هومن فرأيت بعض منظفى الشوارع يدفعون ملء عربة من نفايات الورق . فسألتهم عن مصدرها . فقالوا انها من بوابة شنوو بالقصر الامبراطورى القديم . ورأيت انه ملىء بالوثائق الحمراء والصفراء التى تبدو انها رسمية . وسألتهم ان كانوا يودون بيعها لى . كانوا فى غاية الادب . وقالوا لى اننى اذا اردتها فسيعطونها لى بسعر خاص ، ويمكننى حملها .

واشارت تشونتاو الى السلة الكبيرة تحت نافذة البيت ، واضافت قائلة :

ــ كل ذلك بيوان واحد ! ربما ذلك اسراف ، لست ادرى . يمكننا ان نفحصه غدا ونرى ما فيه .

ــ لا خطأ فى جمع الاشياء المتروكة من القصر . واخشى ان اجمع اشياء من المدارس والشركات الاجنبية . فورقهم ثقيل ردىء الرائحة . ولا تستطيع التأكد من قيمتها .

ــ كل اصحاب المتاجر يستخدمون الورق الاجنبى ورق لف منذ السنوات القليلة الفائتة . ولا اتخيل من اين يأتى هذا كله . ولا احد من جامعى الورق يتعاطاه . فوجب ان يبذل جهدا اكثر فيه لأنه ثقيل ، وحين يبيعه يحصل على القليل .

ــ يزداد الدارسون لغات اجنبية . فكل واحد يرغب فى قراءة صحف اجنبية حتى يتمكن من التعامل مع الاجانب .

ــ فليفعلوا . وسنظل نجمع ورقا اجنبيا .

ــ يبدو ان كل ما سنحصل عليه سيحمل سمة اجنبية من الآن فصاعدا . فلدينا ملابس " اجنبية " ، وقبعات " اجنبية " ، وقماش " اجنبى" . وبالتالى سنستخدم جملا " اجنبيا " !

قهقهت تشونتاو ، وقالت :

ــ ينبغى الا نتكلم عن الآخرين . لو كان لديك نقود فاربما اردت ان تدرس كتبا اجنبية ايضا ، وتتزوج من امرأة اجنبية .

ــ اله السماوات يعرف اننى لن اكون غنيا . وحتى لو حصل ذلك فلست ارغب فى الزواج من اجنبية . ولو كان لدى قليل من مال لذهبت الى الريف واشتريت ارضا زراعية جيدة ، وفلحناها معا .

ومنذ ان ارغمت تشونتاو على الهرب من بيتها وفقد زوجها وكلمة

" ريف " ليست على ما يرام معها . وسألته :

ــ أ هذا ما تريد ؟ قبل ان تشترى الارض ، تكون انت ومالك قد اختطفتما . الريف بمثابة جهنم . اننى لن اعود حتى لو مت جوعا هنا .

ــ اود ان ارى محافظتنا ، محافظة جينشيان ، مرة ثانية .

ــ الريف هو الريف اينما ذهبت . فان لم يكن هناك جند يمارسون السلب والنهب فهناك قطاع الطرق وغاراتهم . وان لم يكن هناك قطاع الطرق فهناك اليابانيون . فمن يجرؤ على العودة ؟ نحن هنا افضل بكثير ، نلتقط نفايات الورق . وليس ما نحتاجه سوى شخص آخر يعيننا . لو كان لدينا من يقوم مقامك فى البيت فى اثناء التقاط الورق ، لأمكنك ان تفتح كشكا فى اثناء النهار وتبيع مواد جيدة للزبائن مباشرة . فلا نتعرض لخسارة كالسابق من السمسار .

ــ ثلاث سنين اخرى فى هذه المهنة وسأكون على ما يرام . وان اهملنا مواد جيدة فالخطأ ساعتها خطئى ليس غير . لقد تعلمت كثيرا فى بحر الشهور القليلة الماضية . طوابع البريد المستخدمة ــ بعضها يستحق مالا وبعضها لا يستحق ــ اعرفها جميعا . وبدأت ادرك مميزات كتابات المشاهير . فمنذ يومين ، وجدت شيئا يخص كانغ يو وى * . خمنى بكم بعته اليوم .

فرفع شيانغ قاو ابهامه وسبابته :

ــ ثمانون فنا !

---

* عالم ورجل دولة من اسرة تشينغ .

— أ رأيت ! لو قدرنا ان نلتقط ثمانين فنا من كوم نفايات الورق فى كل يوم فليس ذلك بالامر السيئ . فلماذا نعود الى الريف ؟ أ ليس ذلك بحثا عن المتاعب ؟

كانت كلمات تشونتاو الممزوجة فرحة اشبه بالنغمة الخارجة من حلق صفارية فى اواخر الربيع . واضافت :

— أخمن انك ستجد مادة طيبة وفيرة فى الورق الذى احضرته اليوم : وسمعت ان مزيدا من الورق سيخرج من القصر فى غد . وقد طلب منى منظف الشارع ان انتظره عند الباب الخلفى فى الصباح . وقال ان كل الاشياء فى القصر توضع فى صناديق وترسل الى الجنوب ، ولا احد يريد الورق القديم . ولقد رأيت الكثير منه خارج بوابة دونغهوا بالقصر ايضا . وهم ، ببساطة ، يرمونه — اكياس كاملة منه . اذهب غدا الى هناك وتحر الامر ؟

وقبل ان يعرفا كم مضى من الوقت ، كان الليل قد انتصف تقريبا . فنهضت تشونتاو وتمطت ، وقالت :

— قد حل بى التعب . فلنذهب ونسترح :

وتبعها شيانغ قاو الى الغرفة . وكان هناك سرير مبنى من الآجر قبالة النافذة يكفى لينام عليه ثلاثة . وكانت الصورتان على الجدار قاتمتى الرؤية على ضوء خفيف لسراج الزيت . واحدى الصورتين "الحوريات الثمانى يلعبن المهجونغ" ، والاخرى اعلان سجائر وفتاة ساحرة . وتهيأ لشيانغ قاو ان تشونتاو لو خلعت قبعتها القشية البالية ، ولبست جلابية لائقة — ليس بالضرورة من محل ملابس انيقة ، وحتى او كانت مستعملة من سوق الجسر السماوى — وجلست

على ارض معشوشبة فلن تبدو مختلفة كثيرا عن الشابة الانيقة فى اعلان السجائر . لهذا يقول لتشونتاو دائما ان صورة الحسناء على الاعلان هى صورتها بالذات .

خلعت تشونتاو ملابسها ولفت نفسها بملاية رقيقة واستلقت على الفراش على وجهها . وقام شيانغ قاو ، حسب عادتهما فى الليل ، بتدليك ظهرها وساقيها . وكالمعتاد ، استراحت تدريجيا ، وعلت شفتيها ابتسامة باهتة ، بينما شيانغ قاو يدلك عضلاتها المنهكة على ضوء سراج الزيت الخافق قليلا .

وتمتمت تقول وهى شبه نائمة :

ـ نم انت الآن ولا تعمل الليلة . اذ عليك ان تستيقظ مبكرا غدا .

وما لبثت ان صارت تصدر شخيرا خفيفا . واطفأ شيانغ قاو السراج .

ونهضا فى الفجر تماما ، وانطلقا الى اعمالهما كغرابين غادرا عشهما بحثا عن طعام . وما ان دوى مدفع الظهر ، ودقت الطبول والصنوج فى السوق على ضفاف بحيرة الاديرة العشرة ، خرجت تشونتاو من باب القصر الخلفى ، حاملة سلة من الورق على ظهرها ، وتوجهت غربا ناحية جسر شيبيا . وما ان اقتربت من السوق ، نادى عليها رجل من جانب الطريق :

ـ تشونتاو ! تشونتاو !

وحتى شيانغ قاو ، نادرا ما ناداها باسمها . ولم يسبق فى الاربع او الخمس سنين منذ غادرت الريف ، ان ناداها احد بهذا اللقب .

ـ تشونتاو ، ألا تتذكريننى ؟

التفتت لترى متسولا جالسا على قارعة الطريق . وقد انطلقت الصيحة البائسة من فمه . واكتسى وجهه بلحية كثة . وعجز عن الوقوف لأن ليس له ساقان . وعلا الصدأ الازرار المعدنية البيضاء بزيه العسكرى الرمادى البالى ، وظهر بدنه من خلال الفتحات على كتفيه . وكانت قبعة عسكرية خالية من اى شارات ، تعتلى رأسه مائلة .

ودققت تشونتاو فيه النظر بكماء عن الكلام .

ـ انا لى ماو يا تشونتاو !

وتقدمت خطوتين نحوه . وكانت دموع مكسوة بالسخام تسيل من وجنتيه على لحيته المتشابكة . اشتد خفقان قلبها وظلت عاجزة عن الكلام عدة دقائق .

وفى الاخير ، قالت :

ـ أ انت متسول يا ماو ؟ كيف فقدت ساقيك ؟

وتنهد وقال :

ـ حكايتى حكاية طويلة . كم مضى عليك فى بكين ؟ وماذا تبيعين ؟

ـ ابيع ؟ اجمع نفايات الورق . نتكلم بعد ان نعود الى البيت .

ونادت تشونتاو على ركشة واسندت لى ماو الى العربة ووضعت سلتها فيها . جر صاحب الركشة ركشته وجرت هى وراءها وتدفعها . ورآها العجوز وو الواقف على رأس الزقاق قرب الجدار الشمالى يرن بسلطانيتيه النحاسيتين ونادى عليها :

— عدت مبكرة اليوم ايها الاخت الكبيرة ؛ لا بد ان العمل كان موفقا !

فردت عليه :

— قريب جاء من الريف :

وصلوا الى بوابة الفناء وساعد صاحب الركشة فى انزال لى ماو ؛ وفتحت تشونتاو البوابة بمفتاحها ثم ادخلت لى ماو الذى زحف على يديه مثل دب فى المسرح ، جارا ساقيه المبتورتين .

واحضرت بدلة من ملابس شيانغ فاو ، وسحبت دلوين ماء من البئر ، كما كان يفعل لها شيانغ فاو فى كل يوم . وصبت الماء فى حوض خشبى وطلبت من لى ماو ان يستحم . وبعد ان انتهى ملأت حوضا آخر حتى يمكنه ان يغسل وجهه . وفى الاخير ، ساعدته فى الجلوس على السرير ثم دخلت الغرفة الاخرى لتستحم .

— بيتك نظيف يا تشونتاو . هل تعيشين وحدك هنا ؟

فردت عليه دون تردد :

— يقيم شريكى هنا ايضا .

— هل تعملين ؟

— أ لم اخبرك اننى اجمع نفايات الورق ؟

— تجمعين نفايات الورق ؟ كم تكسبين فى اليوم من وراء ذلك ؟

— لا تسألنى . اريد ان اسمع منك اولا ؛

القت تشونتاو ماء الحمام ودخلت الى الغرفة تمشط شعرها ؛ وجلست قبالة لى ماو . وبدأ لى ماو يقص حكايته :

– تشونتاو ، آه ، حكايتي طويلة . سأقص عليك ابرز الامور – بعد ان اسرني قطاع الطرق فى تلك الليلة ، كرهتهم لأنني فقدتك بسببهم . وانتظرت الفرصة ، وخطفت بندقية من بنادقهم ، فأرديت اثنين منهم وارخيت لنفسي عنان الفرار . وتمكنت من الوصول الى شنيانغ عندما كانوا يجندون الناس ، والتحقت بالجيش . وظللت احاول طوال الثلاث سنوات اللاحقة ان التقط عنك انباء . وقال الناس ان قريتنا قد سويت بالارض ، ولا احد عرف ما حدث لصك تمليك قطعة ارضنا . فقد نسيت ان احمله معي حين فررنا . ولذا لم اطلب مطلقا ان اعود الى البيت لالقاء نظرة هناك . خشيت ، ان طلبت اجازة ، ان افقد حفنة اليوانات التي اتقاضاها فى كل شهر .

وظللت جنديا اعيش على مرتبي اليومي . ولم يكن عندي امل ان اكون ضابطا . ثم حدث شيء فى العام الماضي – لا بد ان قدري سوء الحظ . اصدر عقيد الفوج امرا مفاده ان كل من يصيب الهدف تسع مرات من عشر يضاعف له فى المرتب او يرقى . ولم يستطع جندي واحد فى كل الفوج ان يصيب الهدف بأكثر من اربع مرات من عشر ، وحتى هذه الاصابات لم تكن فى الوسط . ولكنني اصبت الكرة الحمراء بتسع رصاصات ، واحدة وراء الاخرى . ثم ادرت ظهري الى الهدف لابراز مهارتي ، وانحنيت واطلقت الرصاصة العاشرة من بين ساقي . فأصابت نقطة الهدف فى الوسط تماما .

وما اشد ما سعدت حين طلبني العقيد . فقد كنت على يقين انه سيطريني . ولكن الخنزير هاج هيجانا شديدا . فأقسم انني كنت قاطع طريق واراد ان يضربني بالنار . وقال انه لا يجيد الرماية

بهذا الشكل سوى قطاع الطرق . وتدخل لصالحى كل من الرقيب والملازم واكدا اننى لست انسان سوء . وفقدت رتبتى مع انهما اقنعاه بأن لا ينهى حياتى . وقال العقيد ان من المحتم ان يؤذى الضابط مشاعر جنوده فى بعض الاحيان وقد يقتل فى معركة برصاص من الخلف يطلقه رام ماهر مثلى ، يفقد حياته ليس الا بسبب الانتقام . لم يكن ثمة جواب لدى احد على ذلك وما كان من آخرين الا ان حثونى ان اترك الجيش وابحث عن مهنة اخرى .

ولم يمض طويل وقت على تركى الجيش حتى سمعت ان اليابانيين قد احتلوا شنيانغ ، وان ذلك العقيد الكلب قد استسلم بكامل قواته . فغلى فى عروقى الغضب . واقسمت ان اعاقب الوغد . فانضممت الى صفوف المتطوعين ، وخضت غمار الحرب فى خارج هايتشنغ لعدة اشهر . وفقدنا مواقع شيئا فشيئا وتراجعنا جنوبا باتجاه السور العظيم . ومنذ شهرين كنا شمال شرق بينغقو وكنت اقوم بأعمال الدورية . والتحمت مع العدو واصبت فى ساقى . كنت ما زلت قادرا على السير آنذاك . واختبأت خلف رابية وقتلت اثنين منهم ولما لم استطع ان اقاوم فى نهاية الامر ، القيت بندقيتى وزحفت فى الحقول . وهناك اختفيت يوما ، يومين — ولا خبر عن حاملى النقالات . كان ساقاى يتورمان على نحو سيئ . ولم اقدر على الحركة . لم يكن لدى ما آكله ولا ما اشربه . وارتميت هناك منتظرا مصيرى . ومن حسن الحظ ، جاء رجل ومعه عربة كبيرة فحملنى ونقلنى الى خيمة الاسعافات الاولية ، حيث لم يفحصونى واسرعوا بنقلى الى مستشفى ميدانى ببكين . وكان ذلك فى اليوم الثالث . وقد انتهى امر ساقى . وما كان

على الطبيب الا ان يبترهما :

اقمت فى المستشفى لما يزيد على شهر . تحسنت حالتى ولكن ضاع ساقاى . وقلت لنفسى — ليس لى قريب ولا صديق فى هذه المدينة ولا استطيع العودة . وحتى لو استطعت فكيف افلح الارض بدون ساق ؟ وتوسلت الى المستشفى ان ابقى هناك وان توكل لى مهمة صغيرة — اى نوع . فقال الطبيب ان المستشفى يعالج الناس ولكنه لا يعيلهم وليس من مهمته ان يبحث عن عمل لهم . وهذه المدينة ليس بها مصحة للجند الجرحى ، وما كان امامى سوى التسول فى الشوارع . وهذا اليوم هو الثالث بالضبط . وقد فكرت مؤخرا اننى لا استطيع ان افعل ذلك ومن الافضل لى ان اشنق نفسى وانهيها .

كانت تشوئتاو مصغية فى انتباه . وتبللت عيناها ولكنها لم تنبس ببنت شفة . وتوقف لى ماو يمسح العرق من جبينه .

وسألها :

— وماذا عنك ؟ مع ان هذا البيت ضيق مقارنة ببيتنا الريفى الواسع ، الا ان ما فيه يدل على انك على ما يرام .

— من على ما يرام ؟ مهما ساءت الامور فعلى الانسان ان يعيش . يمكنك ان ترى الناس مرسومة على وجوههم الابتسامات حتى على ابواب جهنم . لقد امضيت السنوات القلائل الماضية فى جمع نفايات الورق من اجل معيشتى وشريكى ، ويمكنك ان تقول انى وهو نشارك كل شيء . يمكننا ان نجتاز هذه الشدة .

— تعيشين انت وهو معا ؟

— نعم . كلانا ينام على هذا السرير .

هذا ما ردت به تشونتاو بلا ادنى تردد كما لو ان لديها وجهة نظر محددة حول الموضوع منذ وقت طويل :

— اوه ! اذن تزوجته .

— لا . نعيش معا فقط .

— فى هذه الحالة : اما زلت زوجتى ام لا ؟

— كلا . لست زوجة احد .

لقد مست كبرياء لى ماو كزوج ولكنه لم يحر شيئا ليقوله . تثبتت عيناه بالارض ، لا يرنو الى شىء بالطبع ، ولكنه خجل ان يتطلع الى وجه زوجته .

واخيرا ، نطق فى صوت خفيض :

— سيهزأ منى كل انسان على اننى ديوث ؟

— ديوث ؟

تحجر وجه المرأة قليلا لدى سماع الكلمة ، ولكنها تكلمت بلا حقد ولا ضغينة :

— لا يخشى ان يكون ديوثا الا صاحب المال والجاه . ان انسانا مثلك — من كان يعرف انك على قيد الحياة ؟ ومع ذلك ، ديوث ام لا ، فما الفرق ؟ انا الآن مستقلة . مهما عملت فلن يؤثر عليك .

— ولكننا مازلنا زوجين . وكما يقول المثل: "ليلة زواج مئة يوم من البركات" .

وقاطعته تشونتاو :

— لا اعرف شيئا عن مئة يوم من البركات ، لقد فاتت بضع مئات الايام من البركات منذ ذلك اليوم . قد مر ما يقرب من خمس

سنين ولا كلمة . انى على يقين انك لم تحلم اننا سنلتقى ثانية . كنت هنا وحيدة وكان لا بد ان اعيش . احتجت الى شخص يساعدنى . وانني بعد ان عشت معه طوال هذه السنين ، لم اعد اشعر بالطبع بنفس المشاعر حيالك . وقد احضرتك الى البيت اليوم لأن ابوينا كانا صديقين ، ولأننا من نفس القرية . يمكنك ان تدعى انني زوجتك ولكنني سأنكرك . وحتى لو رفعت المسألة الى المحكمة فأنا موقنة انك لن تربحها .

وتحسس لى ماو جيب حزامه كأنه يفتش عن شيء . ولكنه توقف وحدق فى تشونتاو ، وتراجعت يده على الحصيرة فوق الفراش .

بقى لى ماو صامتا . وبكت تشونتاو . واستطالت الظلال على ارضية الغرفة .

وقال لى ماو فى ادراك واع :

ـ حسنا . اذن انت صاحبة الكلمة الاخيرة يا تشونتاو . انا الآن مقعد . وحتى لو عدت الى فلن اقدر على اعالتك .

ونطقت تشونتاو بكلمات نبعت من قلبها :

ـ لا يمكنني ان ارميك لأنك مقعد . ولكنني لا يمكنني الاستغناء عنه ايضا . لماذا لا نعيش نحن الثلاثة هنا ، وينبغى ان لا يفكر احد فيمن يعول من . ما رأيك ؟

وقعقعت معدة لى ماو .

ـ اوه ! مضى كل هذا الوقت ونحن نتحدث ولم اسألك ماذا تحب ان تأكل . لا بد ان الجوع يلدغاك .

ـ اى شيء . لم يعرف فمى الطعام منذ الليلة الفائتة . ما تذوقته

كان ماء فقط .

ــ سأشترى شيئا .

وما ان خرجت تشونتاو من الغرفة مسرعة ، حتى دخل شيانغ قاو جذلا الى الفناء . واصطدما تحت التعريشة .

فسألته :

ــ ما الذى يبهجك ؟ ولماذا عدت مبكرا ؟

ــ توفقت فى العمل اليوم . فقد فتشت فى هذا اليوم فى كمية الورق الذى احضرته بالأمس ، فعثرت على استرحامات من اسرة مينغ ارسلها ملك كوريا الى امبراطور الصين ــ عشرة منها ، كل واحد قيمته خمسون يوانا على الاقل ! وقد عرضت الاوراق على محلات لأعرف كم قيمتها وسأعرض غيرها . كما عثرت على قصاصتى ورق مدموغتين يقول الخبراء انهما تعودان الى اسرة سونغ . وقد دفع لى فيهما ستون يوانا ، ولكننى خشيت من بيعهما بأقل من ثمنهما ، فعدت بهما لتريهما . انظرى . . .

فتح لفة القماش من صرته واخرج الاسترحامات والقصاصات المدموغة . واشار الى دمغة الختم :

ــ هذا هو الختم الامبراطورى .

قالت تشونتاو :

ــ لا ادرى شيئا على هذه الورقة سوى هذه العلامة . الورق الاجنبى الناعم افضل بكثير . وموظفو القصر هؤلاء عميان مثلى انا .

فضحك شيانغ قاو وقال :

ــ لو لم يكونوا عميان قليلا فكيف يتسنى لأناس مثلنا ان يربحوا

يولنين من حين لآخر ؟

واعاد ربط صرته وقال :

— اقول يا زوجتى . . .

ورمقته تشونتاو بنظرة حادة :

— قلت لك لا تنادنى بذلك .

وتجاهل شيانغ قاو كلامها وقال :

— انت عدت مبكرة ايضا . لا بد ان العمل ليس سيئا .

— احضرت سلة اخرى مليئة ، مثل امس .

— ألم تقولى ان هناك كثيرا ؟

— ارسلوه كله الى سوق الصباح لاستخدامه فى اكياس الفول السودانى !

— لا بأس . عملنا على خير ما يرام اليوم . وهذه اول مرة نجنى فيها ما يزيد على ثلاثين يوانا فى يوم . اقول ، لم يحدث اننا كنا نحن الاثنين معا فى البيت بعد الظهر . لماذا لا نتمشى عند شاطئ بحيرة الاديرة العشرة فالجو لطيف ورطب هناك .

ودخل فى البيت والقى بصرته على المنضدة . وتبعته تشونتاو وقالت :

— لا نستطيع ، عندنا ضيف اليوم .

ورفعت ستارة باب الغرفة الداخلية واومأت الى شيانغ قاو :

— تفضل هنا .

وسار الى الغرفة وتشونتاو وراءه . وقالت لشيانغ قاو :

— هذا زوجى السابق .

ووجهت كلامها الى لى ماو :

ـ هذا شريكي الحالي .

وتقابلت عيون الرجلين . ولو افترقت بآبيْ عبنيهما بالتساوى لتوازت خطوط الرؤية تماما . ولم يتحرك لسان اى منهما ، وحتى الذبابتان على عتبة النافذة ظلتا فى سكون . وبقيت الغرفة ساكنه للحظات .

وسأله شيانغ قاو فى دماثة خلق :

ـ ما اسمك يا سيدى ؟

فى الحق ، كان يعرفه تمام المعرفة : وبدأوا يتبادلون الحديث .

وقالت تشونتاو :

ـ وجب ان اخرج واشترى شيئا .

وقالت لشيانغ قاو :

ـ من المحتمل انك ايضا لم تتذوق الطعام . فهل تكفيك الكعكات ؟

ـ قد أكلت . ابقى هنا . انا سأشترى .

ودفعته تشونتاو ليجلس على الفراش . واصرت وعلى شفتيها ابتسامة :

ـ ابق هنا واعتن بالضيف .

ثم خرجت .

وبقى الرجلان وحدهما فى الغرفة . وفى وضع كهذا الوضع ، اذا لم يعجبا ببعض من مجرد النظر فلربما اقتتلا حتى الموت . ومن حسن الحظ ، انهما قد نميا ودا متبادلا . ولا حاجة ان نظن انهما لن يقدرا على الاقتتال بسبب ان لى ماو فقد ساقيه . وينبغى ان نضع

فى الذهن ان ما تمرس عليه شيانغ قاو فى الاربع او الخمس سنين الفائتة هو استخدام القلم . وكان لى ماو شديدا بما فيه الكفاية ليقضى عليه . ولو كان معه بندقية لهان الامر . فضغطة واحدة على الزناد وكان شيانغ قاو سيعبر الجسر الى العالم الخارجى .

وقال لى ماو لشيانغ قاو ان اباه تعود ان يمد يد العون لوالد تشونتاو فى الزراعة فى اثناء المواسم المشغولة ، وكان الاثنان صديقين حميمين . ولما كان لى ماو راميا بارعا ، خشى والد تشونتاو ان يجندوه . وقد زوج العجوز ابنته من لى ماو كى يضمن بقاءه لحماية الفلاحين المحليين . هذا شيء لم تتفوه به تشونتاو الى شيانغ قاو ابدا من قبل . ثم حكى له لى ماو عما دار من حديث مع تشونتاو ، وان الحديث تطرق الى السؤال الذى اثر عليهما على نحو قاتل .

وقال شيانغ قاو على مضض :

ـ اما وقد التأم شملكما كزوجين فانى طبعا سأرحل .

ـ لا . لقد غبت عنها طويلا . وانا الآن مقعد . لا يمكننى ان اعيلها . لا فائدة من ذلك . لقد عشتما معا طوال هذه السنين . فلماذا تنفصلان ؟ يمكننى ان اذهب الى دار المقعدين . فقد سمعت ان هنا واحدة . ويمكننى ان ادخلها لو قدرت على اجراء الاتصالات السليمة .

ذهل شيانغ قاو . اذ لم يتوقع مثل هذا المسلك الشهم من انسان اعتبره عسكريا فظا . ولكنه واصل الرفض مع ان قلبه وافق . هذه هى المما لقة الدمثة التى يجيد معرفتها كل من له ادنى اطلاع على الكتب .

ورد عليه شيانغ قاو :

ـ ليس هذا عدلا . لا أريد ان يعرف اسمى خاطف زوجة .

وعليك ، من زاوية تفكيرك ، ألا تدع زوجتك تعيش مع انسان آخر .

وقال لى ماو مبتسما :

ــ سأكتب ورقة اننى اتبرأ منها ، او اعطيك مذكرة مبيع .

وكانت نغمته جادة تماما .

ــ كيف تتبرأ منها ؟ لم تأت امرا خاطئا . ولا اريدها ان تفقد ماء وجهها . اما بخصوص شرائها ــ فمن اين لى بالمال ؟ على كل حال ، كل مالى ملك يديها .

ــ لا اريد مالا .

ــ ماذا تريد ؟

ــ لا اريد شيئا .

ــ لماذا ، اذن ، تكتب مذكرة مبيع ؟

ــ لأننا اذا اتفقنا شفويا فلن يكون لديك دليل . قد اندم فيما بعد واغير رأيى ، وهذا مما يزيد الامور سوءا . اعذرنى لصراحتى فى الحديث ، فهذه وسيلة لحل المسألة . ويمكننا ان ندخر اللغو المهذب لاحقا .

وعادت تشونتاو بكعك من السمسم . ولشد ما كانت سعادتها لدى رؤيتها الرجلين يتحدثان فى حرية .

وقالت لشيانغ قاو :

ــ قد فكرت كثيرا فى الآونة الاخيرة فى العثور على شخص آخر ليساعدنا . والآن قد ظهر لى ماو ، وهذا من محاسن الصدف . انه لا يقدر على المشى ولكنه سيعيد فى البيت ، يفرز الورق . وانت

بياعنا بالخارج . وانا سأظل اجمع الورق . ونحن الثلاثة سنكون شركة عمل .

لم تتحرك شفتا لى ماو ولكنه تناول كعكة سمسم وبدأ يلتهمها وكأنه قد عاد لتوه من عالم الجوعى وليس لديه وقت للكلام .

وسأل شيانغ قاو بلا داع :

— رجلان وامرأة يكونون شركة ؟ وانت تقدمين الرأسمال ؟

— وماذا فى الامر ؟ ألا توافق ؟

— طبعا . طبعا . ليس عندى اعتراض .

لم يقدر شيانغ قاو ان يقول ما يفكر فيه .

— وماذا يمكننى ان اعمل ؟ ما الفائدة المرجوة منى وانا جالس فى البيت طول اليوم ؟

قالها لى ماو مترددا نوعا ما . فقد فهم ما يقصده شيانغ قاو .

— والآن خذ الامر ببساطة . لقد دبرت كل شيء .

ومصمص شيانغ قاو شفتيه قلقا . وواصل لى ماو المضغ ولكن عينيه تثبتتا على تشونتاو . وانتظر ليسمع ما ارادت ان تقول .

قد يكون جمع نفايات الورق حرفة تلعب فيها النساء دورا قياديا . وقد استنبطت تشونتاو فكرة . لى ماو يقيم فى البيت ويجمع طوابع البريد المستعملة وبطاقات الصور فى علب السجائر الفارغة . وهذا العمل لا يتطلب سوى عينيه ويديه ، ويمكنه ان يؤدى ذلك . حسبت انه اذا وجد مئة وزيادة من صور علب السجائر ، فهذا سيغطى طعامه . ولو وجد ، فى كل يوم ، طابعين او ثلاثة ، من النوع الجيد النادر نسبيا لكان ذلك افضل . ويباع فى بكين ، يوميا ، ما يقرب من

عشرة آلاف علبة سجائر (عاب السجائر الاجنبية هى التى تحتوى على بطاقات مصورة كهدايا) . وجال ببال تشونتاو انها قد تجمع ، لنقل ، واحدا بالمئة بدون عناء كثير . وقد يركز شيانغ قاو على فحص رسائل مشاهير الناس والمواد القيمة الاخرى نسبيا . وعى عن القول ، انه اصبح خبيرا ولا يحتاج الى مزيد من الارشادات ، وستتحمل تشونتاو العبء الثقيل من العمل . وما لم تهب عاصفة مطرية هائجة ، فستخرج فى كل يوم بصرف النظر عن الرياح او الشمس الحارقة . وفى الحق ، ستؤدى العمل خاصة فى الطقس الردىء لأن بعض منافسيها يفضلون البقاء فى بيوتهم فى مثل هذه الايام .

وتطلعت الى الشمس من النافذة فقدرت انها لم تصل الساعة الثانية بعد . وخرجت الى الفناء ، ووضعت على رأسها قبعتها القشية البالية ، ثم نادت من خلال الباب على شيانغ قاو :

ــ وجب ان استفسر ما اذا القى شىء خرج القصر . عليك ان تهتم به . سأعود الليلة ويمكن ان نتحدث اكثر .

عرف شيانغ قاو انه لا فائدة من محاولة منعها . فتركها لحال سبيلها .

ومرت عدة ايام والهدوء مخيم ولكن ان ينام رجلان وامرأة على سرير واحد لأمر محرج جدا . وان عادة تعدد الازواج ليس لها نصراء كثيرون فى العالم ، واحد الاسباب ان الرجل العادى لا يقدر ان يخلص نفسه من المفاهيم الاولية فيما يختص بحقوقه كزوج واب . ومن هذه المفاهيم ، تنشأ عاداتنا ومبادئنا الاخلاقية . وبالفعل ، لا يرعى ما يسمى عادات فى مجتمعنا الا الطفيليون والمستغلون ، اما

الذين يعيشون على عرقهم ، فينظرون اليها بقليل من الاحترام :

وخذ تشونتاو على سبيل المثال : فهى ليست زوجة موسرة ولا آنسة شابة وسيمة . وهى غير مرغوب فيها ان تذهب الى قاعة رقص متلألئة ، ولا ان تتاح لها فرصة اداء دور المضيفة فى حفلة اجتماعية . ولا احد انتقد مسلكها او استفسر عنه . ولو حصل فلن يغيرها ذلك قيد انملة . ولم يعد يهتم بغدوها ورواحها سوى الشرطى المحلى ، وهذا امر سهل علاجه .

الرجلان ؟ شيانغ قاو ، وقد امضى سنوات معدودات فى المدرسة ، يحوز فكرة غامضة عن مبادئ الفلاسفة الاقطاعيين القدامى . ولكنه من نمط تشونتاو تماما لو لا اهتمام طفيف بالمظاهر المتحفظة . وقد اعتمد عليها كلية منذ ان جاء واقام معها . وكانت كلمتها ، بالنسبة اليه ، قانونا . اطاعها لأن من مصلحته ان يفعل ذلك . وقد طلبت منه تشونتاو ان لا يكون غيورا ، لذا نحى جانبا حتى بذرة الغيرة .

واما بخصوص لى ماو فقد كانت مطالبه بسيطة . اذا سمح له شيانغ قاو وتشونتاو ان يعيش معهما يوما واحدا فسيبقى ليوم واحد ، وان عاملاه كقريب فذلك يرضيه تماما . فالجندى اذا ما ارتحل كثيرا فانه يفقد ، دائما ، زوجة او اثنتين . وكانت مشكاة لى ماو مشكلة ماء الوجه ايضا .

ومع ذلك ، ورغم ان شيانغ قاو لم يبد غيرة ، ظلت جملة من الاشياء المزعجة تحدث بين الرجلين .

كانت ايام الصيف مازالت على اشد لهيبها ، غير ان تشونتاو

وشيانغ قاو ليسا من نوعية الناس الذين يذهبون لقضاء اجازة استثنائية في المنتجعات . اذ عليهما ان يواصلا اعمالهما . وفي البيت ، شرع لي ماو يتعلم اصول المهنة . «قدر على التمييز بين الورق الذى ينبغى ارساله الى صانعى ورق الحمام والورق الذى يتوجب حفظه ليقيمه شيانغ قاو في الاخير .

وعادت تشونتاو في يوم الى البيت فوجدت شيانغ قاو ينتظرها كالمعتاد . كان الوقت متأخرا ، وما ان عتبت البيت حتى شمت رائحة بخور يحترق .

ونادت على شيانغ قاو الذى كان جالسا تحت التعريشة :

– منذ متى نحرق بخورا طاردا للناموس ؟ من المحتم انك ستحرق البيت ان لم تحرص .

لم يجب شيانغ قاو ، ولكن لى ماو قال :

– لا نحاول ان نطرد الناموس . اننا نعمل على تنقية الجو . وقد طلبت من الاخ شيانغ قاو ان يشعل البخور لى . واننى ارتب على ان انام الليلة بالخارج . ان ينام ثلاثة معا فهذا عين عدم الراحة .

فقالت تشونتاو وقد فهمتها وهى عابرة :

– لمن هذه البطاقة الحمراء على المنضدة ؟

فرد لى ماو من فراش الآجر :

– تحدثنا بخصوص الامر اليوم . اذهبى الى شيانغ قاو . ذاك عقد البيع .

– اوه ! اذن ، حللتما كل شيء بينكما ! حسنا . اقول انه ليس من شأنكما تقرير مصيرى !

ثم تقدمت نحو لى ماو ومعها البطاقة الحمراء ، وقالت :

— أ هذه فكرتك ام فكرته ؟

— هذا ما يريده كلانا . لست سعيدا ولا هو ايضا بأسلوب حياتنا .

— انت تتكلم وتتكلم ، وما تزال المسألة هى نفسها ، لماذا تظلان تفكران فى مسألة زوج وزوجة ؟

ثم مزقت البطاقة ، فى غضب ، اربا ، وقالت :

— بكم بعتنى ؟

— وضعنا رقما من اجل الشكليات ، ولا رجل حقيقى يتنازل عن زوجته للا شىء .

— ولكنه اذا باعها ، فهذا يسهل الامور ، أ ليس كذلك ؟

ثم خرجت الى شيانغ قاو ، وقالت :

— عندك الآن فلوس . يمكنك ان تشترى زوجة ، لماذا لا تنفق اكثر و . . .

فتوسل اليها شيانغ قاو :

— لا تقولى كلاما كهذا . لا تقولى كلاما كهذا : انت لا تفهمين يا تشونتاو . كانت الناس فى العمل تهزأ منى ، فى الايام القليلة الماضية . . . .

— تهزأ ؟

— نعم . ؟ ؟

وارتجف صوت شيانغ قاو : والحق ، انه لم يراوده احساس قوى بالمسألة . فهو ينفذ تسعة اعشار ما تطلبه منه تشونتاو . ولا

يعرف سببا لسلطتها عليه . وكان يفكر ، احيانا ، فى اداء شيء معين بهذه الطريقة او تلك ، ولكنه حين يقف امامها وجها لوجه ، تكون اشبه بملكة ينبغى ان يطاع لها امر .

ــ انت لا تنسى ، اذن ، انك عالم ــ لمجرد انك قرأت عدة كتب . وانك لترتعد موتا اذا ما لامك احد او استهزأ بك .

مورست السيطرة الحقيقية ، منذ قديم الزمان ، ليس من خلال تعاليم الحكماء بل بواسطة لعنات الألسن وضربات السياط . فاللعنات والسياط هى التى ساعدت على استمرار عاداتنا . ولكن الامر فيما يتعلق بتشونتاو انها كانت مستعدة ان ترد " اللعنة باللعنة والضربة بالضربة . " وفى حين لا تضايق احدا ، ليس عن ضعف ، فانها لا تقبل اهانة من احد كذلك . وما لنا الا ان نفهم ذلك من خلال تعليماتها لشيانغ قاو :

ــ ان استهزأ بك احد ، فلماذا لا تهوى عليه ؟ مم تخاف ؟ ان ما نفعل ليس من شأن احد .

التزم شيانغ قاو بالصمت .

ــ دعنا لا نتكلم فى هذا الامر ثانية . لماذا لا نستطيع ان نعيش نحن الثلاثة كما نحن ؟

ما زال السكون مخيما على الغرفة . وجلس شيانغ قاو وتشونتاو تحت التعريشة كالمعتاد بعد وجبة العشاء ، وكان كلاهما فى هدوء على غير العادة ، حتى لم يتطرقا الى عمل اليوم .

وطلب لى ماو من تشونتاو ان تأتيه فى الغرفة . وحثها على ان تصبح زوجة شيانغ قاو رسميا . وقال لها انها لا تفهم نفسية الرجل . ولا احد

يرغب ان يكون ديوثا ، كما لا احد راغب ان يعرف انه سارق زوجه :
وتناول بطاقة كانت حمراء تحولت الى اللون الاسمر وناولها لتشونتاو .

— هذه هي وثيقة زواجنا . اخذتها من المقام ليلة هروبنا ووضعتها فى قميصى . وها انى اعيدها اليك ، فنصبح كأننا لم نعد زوجين .

تناولت منه تشونتاو الوثيقة دون ان تحرك شفتيها ، وعيناها مثبتتان على الحصيرة البالية فوق فراش الآجر . وجلست بجانب زوجها المقعد .

— خذها يا حبيبى ماو . لا اريدها . انا لا زلت زوجتك : " ليلة زواج مئة يوم من البركات" — لا يمكنني ان اسيء اليك . اى انسانة سأكون لو رميتك لمجرد انك لا تستطيع المشى او العمل ؟

ووضعت البطاقة الحمراء على فراش الآجر .

وما اشد ما كان تأثر لى ماو . وقال فى صوت خفيض :

— ارى انك تحبينه كثيرا . فالأفضل ان تعيشى معه . وعندما نحصل على فائض قليل من المال ، يمكنك ان تعيدينى الى القرية او الى دار للجنود المعوقين .

وردت تشونتاو فى رقة :

— فى الحق ، عشنا معا فى هذه السنوات الماضية ، وعلاقتنا على خير ما يكون . ولو ذهب فذلك يؤلمنى . اسمح لى ان ادعوه ونستمع الى رأيه .

ونادت عليه من النافذة : " شيانغ قاو . شيانغ قاو . " ولا مجيب . فخرجت ، ولم يكن شيانغ قاو هنالك . هذه هى اول مرة خرج فيها ليلا بمفرده . فارتبكت تشونتاو . ونادت حول البيت ،

وقالت :

ـ سأبحث عنه .

كانت على يقين ان شيانغ قاو قد ذهب الى ناصية الزقاق . وعندما استفسرت من العجوز وو انبأها انه رآه يتجه نحو الشارع الرئيسى . وذهبت الى كل الاماكن التى اعتاد التردد عليها ، ولكن لم يظهر له اثر . فى غاية السهولة ان تفقد شخصا . فحين يبتعدون عن النظر يختفون لا يتركون اثرا .

كانت الساعة تقارب الواحدة صباحا عندما عادت تشونتاو الى البيت منقبضة الصدر .

وكان سراج الزيت فى الغرفة قد انطفأ .

وسألت تشونتاو : " هل انت نائم ؟ هل عاد شيانغ قاو ؟ " ثم اشعلت عود كبريت واضاءت المصباح ، وحدقت فى فراش الآجر . وسرت فى عروقها قشعريرة من رعب . فقد شنق لى ماو نفسه بحزامه من قمة النافذة الشبكية . تمكنت من كبح نفسها ، وصعدت وانزلته على الفراش . ومن حسن الحظ ، كان الوقت قصيرا ولم يكن من داع لتطلب عونا . واخذت تدلك صدره ، فاستعاد وعيه تدريجيا .

ان يضحى انسان بحياته فى سبيل آخر انما عمل فارس مطوف . ولو لم يفقد لى ماو ساقيه فلن يلجأ الى مثل هذا الاجراء ، ولكنه كان يفكر ، فى الايام القليلة الماضية ، ان املا ضئيلا لديه ، والافضل ان يودى بحياته ويدع تشونتاو فى سلام .

لقد تملك تشونتاو احساس شديد بالواجب نحوه ، مع انها لا تكن له حبا . فهدأته وطمأنته واخذت تتحدث اليه حتى مدت حبال

النور فى السماء : ولما راح فى النوم اخيرا نهضت تشونتاو من الفراش . ولمحت على الارض بقايا مفتتة من البطاقة الحمراء — وثيقة الزواج وحملقت فيها متحجره وقتا طويلا .

لم تخرج طوال اليوم من باب البيت . وفى المساء ، جلست بجانب لى ماو على سرير الآجر . وسألته لما رأت الدموع تنسكب على وجنتيه :

— لماذا تبكى ؟

— لقد اخطأت بحقك . لماذا اتيت الى هنا ؟

— لا لوم عليك .

— ها هو قد ذهب ، وانا بدون ساقين . . .

— لا تفكر فى هذا . سيعود .

— آمل ذلك .

ومر اليوم الثانى . وعندما نهضت تشونتاو فى صباح اليوم التالى ، قطفت خيارتين من التعريشة وقشرتهما وقطعتهما شرائح . وفى لامبالاة ، مزجت شرائح الخيار بقليل من التوابل ، وصنعت كعكة كبيرة ، ووضعتها مع الخيار على منضدة صغيرة على سرير الآجر . واكلت مع لى ماو .

ثم اعتمرت قبعتها القشية البالية وربطت سلتها الى ظهرها .

وقال لها لى ماو من النافذة :

— معنوياتك هابطة اليوم . لا تخرجى .

— لو بقيت فى البيت ساء حالى .

سارت متباطئة عبر البوابة . فالعمل جزء من وجودها . ومازالت

لديها الرغبة فى العمل مع انهما يغشيها الاكتئاب والحزن : ويبدو ان العمل هو الشيء الوحيد الذى تفهمه الصينيات . ويبدو انهن لا يفهمن الحب . وجل همهن مركز على مشاكل الحياة الرتيبة . الحب اعمى ، يختنق مهتاجا فى قلوبهن .

وبالفعل ، ليس الحب الا مجرد عاطفة ، فى حين ان الحياة واقعية وحقيقية . وفن الحديث على طريقة المثقفين عن الحب فى حين يستلقى المرء وراء ستارة حريرية او يجلس فى غابة منعزلة ، لشيء مستورد تجلبه الناقلات عابرات المحيط — " الامبراطورة " هذه ، و" الرئيس " تلك . لم يحدث ان سافرت الى الخارج ولا درست فى مدرسة يديرها الاجانب اصحاب العيون الزرق . كما لا تفهم الحب الحديث . وكل ما عرفته آلام قاتمة لا تعد ولا تحصى .

وهامت من زقاق الى آخر . وغمرت المرأة الكئيبة فى ما لا نهاية له من الغبار وما لا حصر له من الشوارع . وكانت تنادى من وقت لآخر : "كبريت مقابل نفايات الورق ! " وكانت تمر فى بعض الاحيان بكومة من ورق ملقى دون ان تعبأ بالنظر اليه . وفى مرة او مرتين ، دفعت تشونتاو ثمن خمس علب كبريت ، والمفروض ان تدفع ثمن علبتين . وعادت ، بعد ان تعكر مزاجها طوال اليوم ، ومعها اغربة سحماء لا تصلح لغير النعيق الاجش وسرقة الطعام : ولما وصلت البوابة رأت بطاقة تعريف لساكنين جدد الصقتها الشرطة ، تقول ان شيانغ قاو وهى ، زوجته ، هما صاحبا السكن . وازداد ثقل وطأة الضغط عليها .

وما ان دخلت الفناء حتى خرج شيانغ قاو مسرعا من البيت :

واتسعت عينا تشونتاو . وصاحت : " قد عدت ! : . . " ثم لم تستطع ان تحرك ساكنا بسبب الدموع المختنقة .

ـ لا استطيع ان اتركك . كل ما املك انما هو بفضلك : واعرف انك تريدينني ان اساعدك فى عملك . ولا يمكن ان اكون فاسى الفؤاد . . .

قد هام على وجهه بلا هدف ليومين . وبدت قدماه كأنهما تجران اصفادا حديدية ثقيلة ، مربوطتين بطرف من رسغ تشونتاو . وتزداد الامور سوءا ، فأينما ذهب رأى اعلان السجائر مع الفتاة التى هى صورة من تشونتاو . كان بائسا يشعر بغصة شديدة ، حتى لم يعرف ما اذا هاجمه الجوع .

وقال لى ماو :

ـ لقد تحدثت واخى شيانغ قاو ؛ هو صاحب السكن هنا ؛ وانا مستأجر .

وعاونها شيانغ قاو على انزال السلة كما كان يحدث فى الايام الماضية ، وفى نفس الوقت مسح الدموع عن وجهها . وقال :

ـ لو عدنا جميعا الى القرية لكان لى ماو هو صاحب السكن وانا المستأجر . وانت زوجتنا .

لم يتحرك لسانها ودخلت الى الغرفة وعلقت قبعتها ، واخذت حمامها اليومى .

وعادت تشونتاو وشيانغ قاو يتحدثان عن عمل يومهما تحت تعريشة الخيار . واتفقا بعد ان باعا تلك الاوراق من القصر الامبراطورى ، ان يستخدما جزءا من المبلغ لاقامة كشك لشيانغ قاو فى السوق

العام او من المحتمل ان يجدا ايضا مسكنا اوسع .

وجاءت فراشة من التعريشة الى الغرفة واطفأت اللهب الواهن لسراج الزيت . وراح لى ماو فى سبات سريع لأن اليمجرة كانت منخفضة فى السماء .

وقالت المرأة :

— ينبغى ان ننام ايضا .

— اذهبى الى الفراش اولا . سآتى وادلكك فى خلال دقيقة .

— ليس ضروريا ذلك . لم اذهب بعيدا اليوم . وعلينا ان نستيقظ مبكرا . ولا تنس ان تولى اهتماما بالعمل . فلم نجن اية مكاسب لأيام .

— قد سهوت ان اقدمها لك فى طريق عودتى الى البيت اليوم ، قمت بزيارة خاصة الى سوق الادوات المستعملة واشتريت لك قبعة جديدة الى حد كبير . فما رأيك ؟

ومد شيانغ قاو يده فعثر على القبعة وناولها لها .

— كيف أرى فى الظلام ؟ على كل حال ، سأضعها على رأسى غدا .

وتجلل الفناء بالسكون . وانبعثت رائحة مسك الروم متهادية فى نسيم الليل العليل . وانطلقت فى الغرفة اصوات يمكن سماعها بصعوبة .

" زوجتى . . . . "

" لا احب سماعها . لست زوجتك . . . . "



ملاحظة الفلسفة الدينية والايديولوجية الجبرية فى كتاباته المبكرة مثل مجموعة قصص « العنكبوت المنهمك فى العمل » والمجموعة النثرية « النور يرذ على الجبال المنعزلة » .

نشرت قصة « الاخت ليو الكبرى » اول ما نشرت فى سنة ١٩٣٤ ، وهى تصور العواطف العميقة التى يبديها الكادحون المعانون تجاه بعض خصالهم الرائعة الاخرى ، تصويرا حيا ، وذلك بتقديم امرأة عاملة طيبة القلب مستقيمة ذات ارادة قوية .

يوى دا فو

ليالى الربيع المسكرة



١

قضيت ستة شهور عاطلا عن العمل فى شانغهاى ، وبسبب ذلك غيرت مسكنى ثلاث مرات . فى المرة الاولى ، سكنت فى برج حمام على شارع جينغآنسى ، وهو اشبه بسجن بلا حراس حيث لا يرى نور الشمس ابدا . وكان نزلاء السجن بلا حراسة من المثقفين المغمورين يرثى لحالهم ، باستثناء قلة من الخياطين الذين يشبهون قطاع الطرق المروعين . ولهذا السبب اطلقت على المكان اسم الشارع الحقير الاصفر . وما هو الا شهر او يزيد فى هذا الشارع الحقير حتى ارتفعت الأجرة فجأة ، فاضطررت ان انتقل ومعى كتبى البالية الى فندق صغير ، عرفته فى مكان ما قرب مضمار السباق . وهنا صادفت انماطا معينة من الضغط فأكرهت على الانتقال مرة اخرى . وفى هذه المرة عثرت على غرفة صغيرة فى حى الفقراء قبالة ريشيلى فى شارع دنغتوه بالطرف الشمالى من جسر الحديقة ، فانتقلت الى هناك .

ولم تزد المساكن على جانب شارع دنغتوه على عشرين قدما ارتفاعا . وكان الطابق الذى سكنته شديد الضيق والانخفاض . ولو احببت ، وانا واقف ، ان اتمطى واتثاءب ، لطالت يداى السقف الرمادى المغبر .

واذا ما وصل انسان من الزقاق عبر الباب الامامى فانه يدخل

اول ما يدخل الى غرفة صاحب المسكن . وهنا يأخذ طريقه عبر اكوام الاسمال الرثة والعلب والقوارير القديمة وادوات بالية اخرى ويصل الى سلم متداع يستند الى الجدار . كانت تلك هى الطريق الوحيدة يمر من خلالها المرء ليصل الى فتحة الظلام – قدمين مربعين – التى تؤدى الى الطابق الثانى . كان هذا الطابق ضيقا ، معتما ، فى حقيقة الامر ، ولكنه من غرفتين فى غاية الصغر . وكانت غرفتى حيث الباب المسحور ، وكانت الاخرى مؤجرة لامرأة تعمل فى " شركة ن للسجائر" . ولما كان عليها ان تمر من " غرفتى" الى غرفتها ، كان ما ادفعه من اجرة شهرية اقل بعشرة فنات .

صاحب المسكن مسن بعض الشىء ، فى خمسينات عمره ، محنى الظهر . وعلى وجهه الشاحب ومضة زيتية قاتمة . وكانت عيناه غير متساويتين حجما ، وعظام وجنتيه واضحة ناتئة . وكانت التجاعيد على جبهته ووجهه مليئة بغبار الفحم الذى بدا متعذرا ازالته رغم الغسيل صباح كل يوم . وكان ينهض ما بين الثامنة والتاسعة يوميا ، ويغادر الغرفة ، بعد قليل من السعال ، حاملا عمودا به سلتين خيزرانيتين . واعتاد ان يعود فى الثالثة او الرابعة بعد الظهر بنفس السلتين فارغتين . وكان يعود ، احيانا ، محملا بنفس المادة التى تملأ غرفته : اسمال بالية وقوارير مكسورة ومواد اخرى . وفى هذه الايام ، كان يشترى لنفسه ، عادة ، قليلا من الخمر ويشرب وحده ، جالسا على طرف السرير ، وينهال باللعنات على ما حوله بلغة لا يدرك كنهها .

قابلت جارتى فى يوم وصولى بعد الظهر . واشعلت شمعة فى حوالى الساعة الخامسة ، حين القى غسق الربيع المبكر ستائره على

الكون ، وبدأت فى ترتيب الكتب التى احضرتها معى من الفندق ، فى مجموعتين ، كبيرة وصغيرة . ووضعت اطارين من مقاس ٢٤ انشا على الكومة الكبيرة . وكنت قد بعت كل ما بحيلتى من اثاث ، ولذا فان الغرض من ترتيب كتبى واطارى الصور ان يكون لى مكتب فى النهار وفراش بالليل . ثم جلست على كومة الكتب الصغيرة واشعلت سيجارة . وبينما انا احدق فى الشمعة وادخن السيجارة سمعت ضجة بسيطة تحت الباب المسحور ، ورائى . وتلفت فلم ار سوى ظل رأسى . ولكن اذنى قالتا لى فى وضوح ان شخصا آت . ودققت النظر منتبها فى الظلمة فلمحت امام عينى وجها بيضويا شاحبا والجزء الاعلى من جسم امرأة نحيل . وعرفت ، على التو ، انها جارتى فى السكن بالجانب الآخر . عندما اتيت ، لاول مرة ، لأحصل على غرفة ، اخبرنى صاحب المسكن ان امرأة عاملة ، عداه ، تسكن فى هذا البيت ، وتشغل غرفة . وقد قبلت الغرفة بدون ادنى تردد ، لأننى احببت بادئ ذى بدء ، الايجار الرخيص ، وثانيا ليس فى البيت ربة بيت ولا اطفال . ولما وصلت جارتى الى غرفتى نهضت على قدمى وانحنيت فى ادب ، وقلت :

— مساء الخير . انا جئت اليوم . املى ان نكون على ما يرام .

لم تتفوه بكلمة ولكن عينيها السوداوين الكبيرتين افترستانى بنظرة ثاقبة ثم توجهت الى باب غرفتها وفتحته ودخلت . ذلك كل ما رأيته فى اول مقابلة معها ، ولكننى شعرت ، لسبب ما ، انها صغيرة بلا حماية . وبدا من ملامحها الشاحبة وجسمها النحيل الضئيل انها انسانة بائسة كئيبة . وعلى كل حال ، كان عندى فى ذلك الوقت ما يكفينى

من الهموم لأستغنى عن كثير من الشفقة لانسان ما ليس خاليا من العمل على الاقل ، واستدرت لأجلس بلا حراك على كومة الكتب الصغيرة محدقا الى ضوء الشمعة .

وفات اسبوع وانا فى حى الفقراء . وعندما كانت تخرج جارتى الى العمل – كانت تخرج قبل السابعة صباحا وتعود بعد السادسة مساء – وجدتنى جالسا متلبدا على كومة الكتب اراقب لهيب الشمعة او السراج . وربما اثار فضولها بقائى فى حالة كئيبة . واخيرا ، صعدت السلم فى يوم ، فوقفت كالمعتاد لأدعها تمر ، فتوقفت ورمقتنى بنظرة مباشرة .

– ماذا تقرأ بجدية كل يوم ؟

كان سؤالها فى صوت متلعثم رقيق . كانت تتكلم بلهجة سوتشو الصافية الرقيقة ولكن الاحساس بهذا اللسان العذب الذى داخلنى محال وصفه ، ولذا سأكتفى بترجمة كلماتها الى كلام عادى .

ان ما قالته جعلنى اتصبب خجلا . والحقيقة ، رغم اننى وضعت عددا من الكتب الاجنبية امامى وانا جالس متخشبا كل يوم ، كنت مشوش الفكر بالكامل ، ولم اكن اقرأ ولو كلمة واحدة . وكنت فى بعض الاحيان ، اطلق العنان لخيالى يملأ الفراغ بين السطور بأشكال وانماط غريبة ، وكنت فى احيان اخرى انظر الى الصور فقط ، وكانت اوهامى تتلاقى من غير ابطاء بالصورة الخيالية المنبعثة منها . وكنت ، فى ذلك الوقت ، اعانى فعليا من الارق وسوء التغذية ، ولم اكن فى حالة طبيعية على الاطلاق . وعلاوة على ذلك ، لما كان الشىء الوحيد بحوزتى فى هذا العالم ، الجلابية المبطنة ، رثة لا تفيها الكلمات ،





لم اقدر على الخروج نهارا ، واضطورت ان استخدم شمعة او سراجا طوال الوقت فى غرفتى الضيقة المعتمة التى لم تسمح للنور ان يتسالل اليها ، وبالتالى وهنت عيناى وساقاى من عدم الحركة .

وقلت مضطربا :

— حقيقة ، لم اكن اقرأ . ولكن كما تعلمين ، اذا جلست متخشبا دون ان اعمل شيئا كان الامر سخيفا . ولهذا هذه الكتب مفتوحة امامى .

ورمتنى بنظرة غريبة وعادت الى غرفتها وهى فى حيرة من امرى .

وليس من الصواب القول اننى نبذت كليا فكرة الوظيفة او اننى لم افعل شيئا . كانت هناك لحظات احسست فيها بنوع من الوضوح فى فكرى ، فترجمت مجموعة قليلة من الاشعار الانكليزية والفرنسية ، وعددا من القصص القصيرة الالمانية من حوالى ٤٠٠٠ كلمة لكل ، منذ وصلت الى هنا . وقد ارسلت ثمرة جهودى الى بعض دور النشر الجديدة . ودائما ما ارسل البريد فى سواد الليل حيث لا نشاط لأحد . وشعرت ان لا امل فى الحصول على وظيفة حقيقية . ان كل ما اقدر عليه ان احاول واستفيد من مخى الذى نضب معينه . ولو حالفنى الحظ وحظيت ترجماتى بموافقة الناشرين وطبعت لجنيت من وراء ذلك قليلا من اليوانات .

٢

يصعب على المرء ان يلحظ ، وهو يعيش فى اى مكان بمنطقة

الامتيازات الاجنبية الموحشة فى شانغهاى ، كر الايام ، او تبدل الفصول . وما لحظته فى حى الفقراء بشارع دنغتوه ليس الا ان جلبابى الرث اصبح اثقل فأثقل يوما فيوما ، وتأكدت فى يوم لا بد وان الربيع قد شاخ ، على رأى المثل .

ولم يكن فى وسعى ومحفظتى خاوية ان ارتاد اى مكان . وكل ما استطعته ان اجلس ثابتا قرب المصباح فى غرفتى المعتمة طوال الوقت . وفى يوم من الايام — اظن فى وقت متأخر من بعد الظهر — كنت جالسا هناك كعادتى عندما عادت جارتى حاملة طردين صغيرين . ولما وقفت لأتيح لها ان تمر وضعت احدهما على المكتب ، وقالت :

— قطعة من خبز الزبيب لك . كلها فى غد . وقد اشتريت موزا ايضا . أو يمكنك ان تأتى الى غرفتى وتتناوله معى ؟

وحملت لها الطرد الصغير بينما هى تفتح الباب ودخلت وراءها . مضى علينا جارين ما يقرب من اسبوعين ، وبدا انها اخذت تثق بى على انى انسان محترم امين . ولم يعد اثر للمخاوف ولا للشكوك التى ظهرت على محياها عندما تكلمت معها فى اول مرة . وعرفت حين دخلت غرفتها ان الظلام لم ينشر خيامه بعد بالخارج . وتسللت شعاعات مائلة عبر النافذة المواجهة للجنوب ، ورأيت هناك سريرا من لوحين خشبيين ومنضدة لكية سوداء صغيرة قبالة الجدار ، وصندوقا خشبيا وكرسيا مستديرا . ولم يكن عندها ناموسية ، ولكننى لمحت لحافين من قطن نظيفين على السرير . وهناك علبة من صفيح صغيرة على المنضدة من المحتمل فيها ادوات التجميل ، كانت ملوثة ببقع شحمية . وتناولت قطعا من قماش اجنبى كانت على الكرسى ، ووضعتها

على السرير ودعتني للجلوس . واحسست بالخجل قليلا يتسرب الى داخلي مما ابدته من اهتمام دافئ كريم . وقلت لها :

ــ نحن جاران ! ارجوك ان لا تتكلفي الرسميات معي .

ــ انا لا اتكلف رسميات . ولكنك تقف دائما عندما ادخل لتسمح لي بالمرور . اشعر انني مدينة بالكثير اليك .

فتحت الطرد وهي تتكلم وقدمت الي موزة وقشرت واحدة لنفسها . وبينما نحن نلتهم الموز ، جلست على السرير وبدأت تتكلم :

ــ لماذا تجلس في البيت طول الوقت بدلا من الخروج للحصول على العمل ؟

ــ اريد ان اعمل . وقد عجزت في ايجاد وظيفة مع انني بحثت في كل مكان .

ــ أليس لك اصدقاء ؟

ــ لي اصدقاء ، ولكنهم عازفون عن رؤيتي في وقت كهذا .

ــ هل تحوز على مؤهل دراسي ؟

ــ نعم . امضيت عدة سنوات في مدرسة اجنبية .

ــ اين اسرتك ؟ ولماذا لا تعود الى بيتك ؟

جعلتني استفساراتها الفجائية ادرك ما كان يحدث لي فعليا . ففي الاشهر الستة الاخيرة ، تعرضت للذبول يوما فيوما ونسيت ، عمليا ، اشياء مثل : " من انا ؟ ماذا افعل ؟ " او " هل انا سعيد او حزين ؟ " لقد زخر عقلي بمشكلات عسيرة تعرضت لها في تلك الاشهر ، وما كان بوسعي الا ان احدق النظر فيها ، عاجزا عن نطق كلمة . ولا بد ان تعابير وجهي جعلتها تفكر انني انسان ضال بلا بيت . وانعكس

على وجهها مسحة من حزن وشعور بالوحدة .

– اذن انت مثلى !

قالتها متنهدة ، وغرقت مثلى فى صمت . ورأيت ان عينيها على وشك البلل فحاولت ان اغير الموضوع :

– ماذا تعملين فى المصنع ؟

– لف سجائر .

– كم ساعة تعملين ؟

– نبدأ فى السابعة وننتهى فى السادسة ، مع ساعة استراحة نتناول فيها الطعام – عشر ساعات يوميا . اذا عملنا اقل بساعة فسيحسم من اجرتنا .

– كم الاجرة ، اذن ؟

– تسعة يوانات فى الشهر . ثلاثة يوانات لكل عشرة ايام . اى : ثلاثة فنات فى الساعة .

– كم تدفعين للطعام ؟

– اربعة يوانات شهريا .

– ان لم تضيعى وقتا فى الشهر ، يتبقى لديك خمسة يوانات تعودين بها ، أليس كذلك ؟ وهل فى هذا ما يكفى لأجرة الغرفة وشراء الملابس ؟

– لا يكفى طبعا ! وكبير العمال هناك . . . . اكره هذا المصنع . هل تدخن سجائر ؟

– نعم .

– اتمنى لو كنت لا تدخن ! وان كان لا بد ان تدخن فأرجو

ألا تدخن سجائر المصنع الذى اعمل به . اننى امقته بل كل ما يتعلق به .

ادركت كم هى فيه من مقت ، ولم اعرف ماذا اقول . انتهيت من الموزة وتلفت حولى . وكان الظلام يدنو هنا ايضا . ونهضت وشكرتها وعدت الى غرفتى .

اعتادت ان تذهب الى الفراش بعد عودتها بسبب ما ينالها من انهاك من العمل ، ولكننى سمعتها فى تلك الليلة تتحرك فى الغرفة وقتا طويلا . ولم تذهب للنوم الا بعد منتصف الليل : وظلت منذ ذلك المساء تقول لى بضع كلمات لدى عودتها ، وعرفت كل شيء عنها .

هذه الفتاة اسمها تشن ار مى ، واسرتها من سوتشو ، وهى نفسها شبت فى قرية من قرى شانغهاى . وقد عمل ابوها ايضا فى مصنع سجائر ، ولكنه توفى فى الخريف الفائت . وقد شاركها نفس الغرفة الضيقة حين كان على قيد الحياة ، وذهبا للعمل معا فى كل يوم . وها هى الآن وحدها . واعتادت ان تبكى فى طريقها الى المصنع وفى طريق عودتها فى المساء ولم تتوقف الدموع من الانسكاب على وجنتيها فى الشهر الاول بعد ان فارقها ابوها الى العالم الآخر . كانت فى السابعة عشرة من عمرها وليس لها اخوات ولا اخوة ولا حتى قريب . وقد تكفل صاحب المسكن العجوز بتشييع الجنازة والدفن فى مقابل خمسة عشر يوانا دفعها الاب قبل مماته .

وقالت لى :

— انه عجوز طيب . ولم يظهر اية نوايا سيئة تجاهى ، وقدرت

على مواصلة العمل كما كنت وابى على قيد الحياة . ولكن واحدا من كبار العمال بالمصنع ويدعى لى ، وغد شرير . فقد عرف بموت ابى ، وظل يلاحقنى بمغازلاته .

٣

اخذ الجو يتغير . واصبحت الغرفة الصغيرة القاتمة الفاسدة الهواء والتى كانت عالمى الوحيد حبيسة الهواء وحارة كمثل فرن بخارى خانق فى الايام القليلة الماضية . وقد كانت ثقيلة الوطأة فجعلتنى اشعر بالدوار والغثيان . وفى اوقات معينة من السنة ، وخصوصا فى اواخر الربيع ، تجعلنى اعصابى المنهارة اشبه بالمجنون . وقد شرعت الآن فى الخروج مسافات طويلة بالليل وحدى ، حين يظلل الهدوء الشوارع . وبينما انا اتمشى وحيدا تحت الجزء الضيق من القبة الزرقاء المعتمة ، ارنو الى النجوم واترك افكارى تسبح فى الخيال . كان هذا مفيدا لصحتى . وغالبا ما ظللت اهيم فى مثل هذه الليالى الربيعية المسكرة ، ساعة شعورى اننى لا استطيع تمالك نفسى ، الى قرب الفجر قبل ان اعود الى الفراش . ووجدتنى بعد هذا التجوال المرهق انام حتى ظهر اليوم التالى ، والى وقت متأخر فى بعض الاحيان ، وفى الحقيقة الى قرب عودة ارمى من العمل . وبدأت بعد هذه الساعات من النوم الجيد كل يوم ، اشعر اننى اشبه بانسان جديد ، فى العادة لم اكن اقدر على تناول اكثر من نصف رطل من الخبز ، ولكننى وجدتنى التهم ما يقرب من الضعف . ومع ان هذا ضربة قاصمة

لميزانيتى ، فقد استطاع مخى الذى انتعش بالطعام المتزايد ان يركز على نحو افضل بكثير . فبعد التطواف الليلى وقبيل ان اذهب الى الفراش ، تمكنت من كتابة عدة قصص قصيرة بأساوب ادغارالن بو . وظننت بعد قراءتها مرارا وتكرارا انها ليست بسيئة . وارسلتها بعد عدد من التصحيحات واعادة نسخها . ولم اقدر ان اقاوم املا ضئيلا بخصوصها ، رغم اننى قلت لنفسى انه لا انباء وردت مهما ارسلت من ترجمات . ونسيت ما يتعلق بها بعد عدة ايام .

واما بخصوص جارتى ، ار مى ، فلم ارها الا لدى عودتها فى المساء فى هذه الايام ، لأننى كنت غارقا فى نوم عميق حين خروجها من غرفتها فى الصباح . ولسبب ما ، عاد مسلكها حيالى الى عادته القديمة من الخوف والشك . وكانت ترمينى بنظرة ثاقبة احيانا ، وبدت عيناها السوداوان الشفافتان نصف لائمتين ونصف ناصحتين .

وانقضى ما يقرب من ثلاثة اسابيع على وجودى فى حى الفقراء . وفى مساء يوم ، وكنت قد اشعلت الشمعة واقرأ فى رواية اشتريتها من مكتبة تبيع الكتب المستعملة ، جاءت ار مى مندفعة على السلم ووقفت امامى :

ــ ساعى بريد يريدك ! انه يحمل رسالة مسجلة اليك .

وكان واضحا على وجهها امارة الخوف والشك اكثر مما مضى . وبدا انها تقول : آه ، قد كشف ما فعلت . ازعجنى ساوكها كثيرا ، وقلت محتدا :

ــ رسالة ؟ من يكتب لى ؟ لا يمكن ان تكون لى .

بدا ان ردى الغاضب جعلها تشعر بالانتصار ، وقالت فى برود :

ـ اذهب وانظر بنفسك . انت وحدك تعرف ما فعلت .

وبينما هي تتكلم سمعت صوت ساعي البريد في الدور الارضي ينادي وقد نفد صبره : " رسالة مسجلة ! "

وما ان استلمت الرسالة حتى بدأ يخفق قلبي . فقد قبلت احدى المجلات ترجمة لي لقصة قصيرة المانية ، وتلقيت خمسة يوانات في مقابلها . كانت محفظتي على وشك ان تكون خاوية فعلا ، وينبغي ان ادفع اجرة الغرفة المستحقة بآخر الشهر ، وبعد ذلك ستبقى فلوس تكفيني عدة ايام . وحاجتي الى هذه اليوانات الخمسة اكبر مما يخطر على بال بشر .

وذهبت الى مكتب البريد بعد ظهر اليوم التالي وصرفت المبلغ . وامضيت قليل وقت في الشوارع تحت اشعة الشمس الساطعة ، وتفصدت عرقا . وتطلعت الى الناس حولي ثم نظرت الى نفسي واحسست بعودة الوعي . وهطلت قطرات العرق من رأسي ورقبتي . وعندما كنت اهيم ليلا ، لم تكن هناك شمس ، فكان الجلباب الرث الذي يستر بدني متلائما وهواء ليالي الربيع الباردة وانا اتمشى في الازقة المهجورة في تلك الساعات . ولكننا الآن في وقت العصر ، في يوم ربيعي مشمس دافئ ، سرت في الشارع وانا في نفس الملبس ولم يخالجني احساس بادراك ذلك وكأنني مخبول . ومن الطبيعي ان اشعر بالخجل حين اقارن نفسي بالآخرين في الشارع ، الذين تكيفوا مع تبدل المواسم . وفي تلك اللحظة ، نسيت كل شيء عن دفع اجرة الغرفة في غضون ايام ومحفظتي التي ستنظف سريعا ، وتحولت بطيئا نحو محل الملابس المستخدمة في شارع تشا .

والآن ، انا الذى لم ير نور النهار بالخارج لوقت طويل نسبيا ، احسست للحظة انني دخلت فردوسا حين رأيت المرور المزدحم والركشات تجوب الشوارع حاملة شبابا وشابات فى ملابس زاهية ، والنوافذ الفخمة المزغللة للعيون لمحلات الحرائر والمجوهرات ، وسمعت طنين اصوات البشر ووقع اقدامهم والاجراس والابواق . ونسيت وجودى وشعرت انني اشدو وأثب مرحا كأمثالى من الناس . وبدأت ، على غير قصد ، ادندن باحن نسيته زمنا طويلا من اوبرا بكين ، وسرعان ما تبددت هذه السعادة الوقتية على صوت حاد لجرس حين حاولت عبور الشارع والتحول الى شارع تشا ؛ تطلعت فرأيت تراما مندفعا تجاهى ، وكان السائق البدين ، مائلا تحدق فى غاضبا : " انت ايها الخنزير : أ ليس لك عينان ؟ التزم يمينك والا انتهت حياتك . وعلى اى حال ، حياتك ليست بأفضل من حياة كلب اصفر . "

انتزعت نفسى واثار الترام وراءه سحابة من غبار . فجأة وجدت نفسى اتفجر فى جلجلة من الضحك الساخر لا اعرف لذلك سببا . ولكن ما لبثت ان ادركت ان المارة كان يحدقون فى مندهشين ، ورحت لحال سبيلى يغشيني الخجل .

ومررت بعدد من القماشين ، وسألت عن اسعار جلابيات مبطنة ، وقدمت السعر الذى استطعت . لا يهم اى دكان دخلت ، فكل العاملين تصرفوا كأنهم تعلموا على يد معلم واحد . فقد نظروا جميعا الى عابسين وقالوا متهكمين : " لست صغيرا . أليس كذلك ؟ ان لم يكن بمقدورك الشراء لماذا تقلقنا ؟ "

وانتقلت من دكان الى آخر حتى وصلت الى محل صغير فى

آخر الشارع . وادركت انه محال الحصول على جلباب مبطن بما
معي من نقود ، فاشتريت جلبابا قطنيا ازرق بسيطا واخذت ألبسه
منذ ذاك ومشيت فى صمت عائدا الى البيت ، حاملا جلبابى القديم
الملفوف فى طرد .

وقلت لنفسي : " مهما حدث فلن يكفينى ما معى من مال لأى
شيء ، فلأنفقه كمن يسرف فى نشاط ما . " تذكرت الخبز والموز الذى
شاطرته ار مى ، فذهبت الى الحلوانى واشتريت بما قيمته يوان واحد
شيكولاته وكعكا ومأكولات اخرى . وبينما انا منتظر عند النضد
للف ما اشتريت تذكرت اننى لم اعرف الاستحمام لما يزيد على
الشهر ، فعزمت ان استحم .

ومع انتهائى من الحمام وعودتى الى شارع دنغتوه حاملا طردين ،
طردا فيه الطعام والآخر فيه جلابيتى القديمة ، كانت الانوار تتلألأ
على نوافذ الحوانيت ، وكان الناس بالشارع قليلين . وهب نسيم من
الخليج ، فأصابتنى رعشة فى جلبابى الرقيق . وعدت الى غرفتى
واشعلت الشمعة وتطلعت الى باب ار مى لأرى ما اذا كانت قد عادت .
وشعرت بالجوع يغرس انيابه فى امعائى ولكننى عازف عن فتح
الطرد على المنضدة ، اذ رغبت ان اشاطرها الطعام الشهى . وتناولت
كتابا كيفما اتفق وحاولت ان اقرأ ، ولكننى وجدت صعوبة فى كبح
الجوع طوال الوقت . وشعرت اننى انتظرت سنين ولكن لا حس ولا
خبر من ار مى . وفى النهاية ، قهرنى الاجهاد وغلبنى النعاس على
الكتب .

٤

ايقظنى صوت اقدام ار مى على السلم . ولاحظت ان الشمعة قد احترق منها مقدار انشين . ولما سألتها عن الوقت اجابت :

— قد دقت الساعة العاشرة .

— لماذا تأخرت اليوم ؟

— امرونا ان نعمل ليلا لأن المبيعات قد ارتفعت . وقد نال منى التعب رغم الحصول على اجرة زائدة .

— ألا يمكنك ان ترفض العمل الاضافى ؟

— كلا . ما دام لا يكفى العمال فلا استطيع الرفض .

وفجأة ، هطلت دمعة على وجنتها . فظننت انها تبكى من الارهاق ، ولم يراودنى اشفاق عليها فحسب ، بل ارتعاشة من الفرح لأكتشف انها ما زالت طفلة . وفتحت الطرد . وقدمت لها ما عندى من مأكولات شهية . ولما جلست قلت مواسيا :

— انت لم تتعودى العمل بالليل ، ولهذا تحسين بالتعب . وحين تتعودين على ذلك ، فلن يكون ذا بال فعلا .

جلست خرساء عن الكلام على الكرسى المؤقت وقضمت قطعة شيكولاته ، ولكن عينيها تحولتا نحوى عدة مرات كأنما أرادت ان تتكلم . وقلت :

— ثمة شىء فى ذهنك . أ ليس كذلك ؟ هيا واخرجى ما فيه .

وتريثت قليلا ، ثم بدأت تتكلم متلعثمة :

— كنت . . . ار . . . اريد ان اسألك شيئا منذ زمن طويل .

صرت تخرج فى كل ليلة فى الآونة الاخيرة . هل تختلط ببعض الاشرار ؟

فاجأنى ما فى ذهنها من افكار . كانت تشك اننى اختلط باللصوص وقطاع الطرق منذ ان صرت اخرج فى الليل . ولما رأت ان كلماتها قد اربكتنى ظننت ان شكوكها فى محلها وقد اكتشفتنى على حقيقتى . وواصلت كلامها بصوت ودود فيه رجاء :

ــ أ يلزم ان تتناول هذا الطعام المترف وترتدى هذا الملبس الجديد ؟ ألا تدرى ان ما تفعل فيه خطورة شديدة ؟ ماذا لو قبضوا عليك ؟ كيف ستواجه الخلق ؟ دعنا لا نكترث بما قد حدث . ارجو ان تصلح حالك من الآن . . . .

لم استطع ان انطق كلمة ، ونظرت اليها فاغرا فمى . كانت افكارها غريبة ولا تخطر على البال فلم اعرف كيف اوضح الامر . وصمتت لثوان قليلة ، ثم اضافت تقول :

ــ ولنأخذ تدخينك السجائر على سبيل المثال ، فلو امتنعت عنها وفرت فئات قليلة . لقد سبق وان قلت لك ينبغى ألا تدخن السجائر ، خصوصا سجائر المصنع الذى اعمل به . ولكنك لا ترخى آذانا .

ومرة اخرى ، امطرت عيناها لآلئ على وجنتيها . عرفت ان دموعها بسبب كراهيتها للمصنع ، ولكن قلبى لم يسمح لى بهذا المفهوم . فضلت ان افكر انها لى . وبقيت هادئا دقيقة ، مفكرا ، فى حين هدأت هى بالتدريج . ثم اوضحت لها مصدر الفلوس ، ومصدر رسالة امس المسجلة ، وحكيت عن خروجى لصرف المبلغ وما اشتريته من اشياء ، وعن ما يحدث لى من ارق ، ولماذا ينبغى ان اخرج اتمشى ليلا . وتقبلت ما حكيت بدون شكوك . وما ان انتهيت من

كلامى حتى كانت وجنتاها بلون القرنفل . وقالت بصوت مهموس وعيناها على المقعد :

— آه ! قد اخطأت فى لومك . ارجو ألا تعبأ بما قلت . اذ لا اقصد ان أوذيك . بيد ان مسلكك كان غريبا ، فاتجهت افكارى الى اسوأ ما يكون . ولو سعيت للحصول على العمل لكان هذا افضل . ذلك الشيء الذى ذكرت — مهما كان وبعته فى مقابل خمسة يوانات — ألا يمكنك ان تكتب مثيلا له فى كل يوم ؟

لمست بساطتها شغاف قلبى ، وفى نفس الوقت تسللت الى نفسى فكرة غامضة لا تصدق . تمنيت ان امد ذراعى واطوقها ولكن العقل شكمنى بشدة قائلا : " هذه خطيئة . ألا تعرف قدرك ؟ هل تريد ان تسمم هذه الفتاة البسيطة النقية ؟ شيطان . شيطان . ليس لك حق فى الحب الآن . "

واغمضت عينى ثوانى قليلة وصارت عواطفى تصارع عقلى ، وفاز العقل . ولما فتحتهما ، بدا المكان اكثر سطوعا . وابتسمت لها ابتسامة رقيقة وقلت :

— الوقت متأخر . أ ليس من الافضل ان تذهبى للنوم ؟ ينبغى ان تذهبى للعمل صباحا . اننى اعدك ، وابتداء من اليوم ان اقلع عن التدخين .

ووقفت ممتثلة لكلامى ، وعادت الى غرفتها وعلى ثغرها ابتسامة .

ولما خرجت اشعلت شمعة اخرى وجلست افكر فى هدوء حول ما جرى من امور .

" ثمار عملى حققت لى هذه اليوانات الخمسة لاول مرة . وقد

انفقت منها ثلاثة . واذا اضفت ما تبقى من اليوان السابق ، فلن يتبقى فى جيبى سوى عشرين او ثلاثين فنا بعد دفع الاجرة . فما العمل ؟ "

" يمكننى ان ارهن جلبابى القديم . ولكننى اظن ان لا يقبله اى مرهن . "

" انها فتاة صغيرة بائسة ، ولكن ماذا بخصوصى ؟ اننى فى وضع اسوأ حالا . وهى لا ترغب فى العمل ، ولكن عليها ان تؤدى عملا اضافيا . وانا اريد ان ابحث عن عمل ولكننى لا اجد . . "

" ربما اعثر على عمل يدوى . اوه ، اوه . ولكن عضلاتى الواهنة لا تساعدنى على جر الركشة . "

" اظن اننى سأنهى حياتى — كان يمكن ان افعل ذلك منذ امد بعيد لو واتتنى الجرأة . وعلى كل حال ، تبين هذه الكلمة التى نفذت الى رأسى فى هذا المنعطف انى لم افقد كل جرأة لفعل ذلك . "

" هاها ! بماذا لامنى سائق الترام فى هذا اليوم ؟ "

"كلب اصفر ! هذا تعبير ظريف . "

" . . . . "

ومر بخاطرى ما لا يحصى من الافكار المفككة المتناثرة ، ولم اقدر ان افكر فى وسيلة جيدة فعلا للخروج من المسغبة الراهنة . ودوى بوق من مصنع قريب ، لا بد انها منتصف الليل : نهضت ولبست جلبابى القديم الرث واطفأت الشمعة وخرجت اتمشى .

كان السكون يغطى الكون . وكان سكان الحى الفقير الآخرون جميعا فى سبات . وظهر قبالتى عدد من النوافذ فى عمارات ريشينلى الحديثة ، لا زالت تلمع بأنوار زاهية . وزحفت اوتار البالالايكة

الجيتارية ومقطوعات من اغنية حزينة رقيقة عبر الليل البارد ، قد تكون من فتاة شابة مهاجرة من روسيا البيضاء ، تغنى من اجل حياتها . وكانت السماء فوق رأسى تحجبها سحب بيضاء رمادية تتكوم مثقلة مثل الجثث العفنة . وكانت فجوات ، هنا وهناك ، بين الغيوم ، ونجمة تومض من وقت لآخر ، ولكن حتى القطع الحالكة من السماء حولها بدت حزينة كئيبة .

١٥ يوليو ١٩٢٣

كلمة عن المؤلف

يوى دا فو (١٨٩٦ – ١٩٤٥) : من مواليد محافظة فويانغ بمقاطعة تشجيانغ . ذهب الى اليابان فى سنيه الاولى حيث درس الادب فى الجامعة الامبراطورية فى طوكيو . وفى سنة ١٩٢١ انشأ جمعية الابداع مع الشاعر كو مو جو وتشنغ فانغ وو الناقد الادبى ، الذى كان يدرس حينذاك فى اليابان . وحرر يوى دا فو الكتب والمجلات التى نشرتها الجمعية .

لعبت جمعية الابداع دورا هاما فى تطور الادب الصينى الجديد . وتبنت الرومانسية المتقدة حماسا والجسورة القائمة على اساس الحياة الواقعية . وفى سنة ١٩٢٥ ، رفع كو مو جو رسميا ، شعار الادب الثورى . وكتب فى « الفيضان » وهى صحيفة نصف شهرية كانت تصدرها الجمعية ، ان مطالب الكتاب الثوريين هى " اظهار مثل البروليتاريا وعرض معاناتها " . وكان لهذا الشعار ابلغ الاثر فى الحركة الادبية الجديدة فى ذلك الوقت . وفى سنة

١٩٢٦ ، كتب يوى دا فو ، فى العدد الاول من مجلة « الابداع » الشهرية ، باسم الجمعية واعضائها ان الغرض من هذه المجلة ان يهبوا بصوتهم الضعيف للمساعدة فى اصلاح الاحوال الاجتماعية المحيطة غير المنطقية . وفى اثناء الحرب الثورية الاولى (١٩٢٥ - ١٩٢٧) ، شارك معظم الكتاب المنتسبين الى جمعية الابداع فى الحركة الثورية .

وفى اثناء الحرب الصينية - اليابانية ، وعندما احتل اليابانيون سواحل الصين ، ذهب يوى دا فو الى سنغافورا حيث شارك فى النشاطات ضد اليابان ، وانغمس فى العمل الصحفى بين المغتربين الصينيين . وبعد اندلاع حرب المحيط الهادى ، ذهب الى سومطرا حيث قتله الامبرياليون اليابانيون فى سنة ١٩٤٥ ، بعد استسلام اليابان .

ومن رواياته : « الاغنام الضائعة » و« السراب » . ونشرت قصصه القصيرة تحت عناوين : « اطراف الدجاج » و« الرماد البارد » و« الماضى » و« الاعشاب البرية » . كما كتب قصصا روائية منها « المذكرات التسع » .

ايديولوجية يوى دا فو كما تعكسها كتاباته هى نوع من الرومانسية الثورية اساسا ، ولكن بها مسحة ثقيلة بالاوهام ، ولذا طلق فى الثلاثينات الواقعية . ولم يسترد نفسه الا بعد الحرب ضد اليابان .

قصة « ليالى الربيع المسكرة » من اوائل ما كتب ، وتصور حياة عمال الصناعة فى الصين . ويعرض المؤلف حياة البؤس التى تقاسمها مثقف وعاملة فى مصنع سجائر ، كانا يعيشان متجاورين فى منزل حقير . ونفهم من القصه ما تتحلى به العاملة من طيبة قلب وروح كفاحية فى مثابرتها واصرارها تحت الوطأة .

ونشرت « مختارات يوى دا فو» بعد التحرير مباشرة .

ماو دون

متجر أسرة لين



١

كان الاستياء باديا على وجه الآنسة لين عندما عادت من المدرسة فى ذلك اليوم . فقد القت حقيبة كتبها جانبا وتمددت على السرير بدلا من ان تسرح شعرها امام المرآة وتضع على وجهها شيئا من المساحيق كعادتها . ثم راحت تحدق الى ظلة السرير تائهة فى التفكير . ووثب قطها الصغير الى جانبها ، ثم دنا من خصرها وماء مرتين . فربتت على رأسه بطريقة آلية ، ثم انقلبت ودست وجهها فى الوسادة . ونادت :
" ماما ! "

ولم تسمع جوابا . كانت الام ، وغرفتها بمحاذاة غرفة الابنة ، متعلقة بابنتها الوحيدة تعلقا شديدا . فعندما تحس بعودتها تخف اليها مترنحة لتسألها ان كانت جائعة . وتكون عادة محتفظة لها بشىء جيد . او قد ترسل الخادمة لتشترى طاسا من الحساء مع زلابية اللحم من البائع فى الشارع . . . ولكن الامر عجيب هذا اليوم . لقد بدا واضحا ان هناك اناسا يتحدثون فى غرفة الام — وقد استطاعت الآنسة لين ان تسمع امها تفوق ايضا — وبعد ذلك فهى حتى لا تجيب .

وانقلبت الآنسة لين على السرير ثانية ، ورفعت رأسها . ثم رغبت فى ان تسترق السمع الى هذه المحادثة . من يمكن ان يكون اولئك الذين تتحدث الام اليهم فاضطروا ان يخفضوا اصواتهم الى هذا

الحد ؟

ولم تستطع ان تستبين شيئا مما كانوا يتحدثون فيه ، ما عدا فواقات الام المستمرة التى كانت تصل الى اذنيها على نحو متقطع . وفجأة ارتفع صوت الام فى غضب ، وخرجت منها هذه الكلمات فى وضوح تام :

— هذه بضائع يابانية ، تلك بضائع يابانية ! ؟؟؟

فجفلت الآنسة لين . واحست بالوخز فى كل نواحى جسمها ، كما لو ان شعرها قد حلق وسقطت منه قصاصات صغيرة على رقبتها . لقد عادت الى البيت منزعجة لا لشىء الا لأن زملاءها ضحكوا عليها وسخروا منها بسبب البضائع اليابانية . وابعدت عنها جانبا ذلك القط الصغير الذى سكن اليها ، ثم قفزت وخلعت عنها ثوبها الحريرى اللازوردى الجديد المحشو بوبر الجمل . ونفضته مرتين وتنهدت . لقد سمعت ان هذا الرداء الفاتن قد صنع من مادة يابانية . ثم قذفته جانبا وسحبت من تحت السرير حقيبة الثياب الجميلة المصنوعة من جلد البقر . ورفعت الغطاء شبه مغيظة ، وقلبت الحقيبة رأسا على عقب ، مفرغة محتوياتها على السرير . فتبعثرت منها مجموعة من الثياب الملونة الزاهية والحلى الصغيرة . وقفز القط الصغير الى الارض ، ثم حام ووثب على الكرسى حيث قرفص وراح ينظر الى سيدته فى رضى واطمئنان .

وبحثت الآنسة لين فى كومة الملابس هذه ، ثم وقفت بجانب السرير ذاهلة . فكلما تفحصتها ازداد تعلقها بها — وازداد ظهورها كذلك بمظهر بضائع يابانية ! ألا يمكنها ان تلبس ايا منها ؟ لقد

كرهت الانفصال عن هذه الثياب ـ هذا بالاضافة الى ان والدها لن يكون راغبا بالضرورة فى تفصيل ثياب جديدة لها : واوشكت الدموع ان تطفر من عينيها . انها تحب هذه الاشياء اليابانية ، على حين انها تكره المعتدين اليابانيين الذين غزوا المقاطعات الثلاث الواقعة شمال شرقى الصين . ولو لا ذلك لكان بوسعها ان تلبس سلعا يابانية ولا احد يعلق على ذلك بكلمة .

وجاء صوت الفواق من خلال الباب متبوعا بجسم السيدة لين المترنح النحيل . وكان مشهد كومة الثياب على السرير ، ومشهد الابنة الذاهلة وهى تقف بثوبها الداخلى الصوفى القصير ، اكثر من صدمة صغيرة بالنسبة للسيدة لين . ومع ازدياد انفعالها ازدادت نسبة للسرعة فى فواقها . وظلت لحظة غير قادرة على التكلم . فهرعت اليها الآنسة لين ، وقد علت وجهها مسحة من الاسى ، وقالت :

ـ ماما ! انها جميعا بضائع يابانية . ماذا سألبس غدا ؟

فهزت السيدة لين رأسها وهى تفوق . واتكأت باحدى يديها على كتف ابنتها ودلكت بالاخرى صدرها . وبعد فترة حاولت ان تكره نفسها على التلفظ بهذه الجمل القليلة من خلال فواقاتها المتلاحقة :

ـ يا ابنتى .. لماذا خلعت كل ملابسك ؟ الطقس بارد ؛ ان فواقى المتعب هذا .. قد بدأ سنة ولادتك .. وفى السنوات الاخيرة ازداد سوءا !

ـ ماما ، اخبرينى ، ماذا سألبس غدا ؟ سأختبىء فى البيت ولا اخرج ! انهم يضحكون منى ويشتمونني !

ولم تجبها السيدة لين ، بل مشت الى السرير مواصلة فواقها ،

وتناولت الثوب اللازوردى الجديد من كومة الثياب ووضعته على ابنتها ؛ ثم مهدت السرير داعية الآنسة لين الى الجلوس . وعاد القط الصغير ليقف بجانب ساقى الفتاة . ثم مال برأسه ونظر بعينين ضيقتين الى السيدة لين اولا ، وبعد ذلك الى ابنتها . وانقلب على ظهره فى تكاسل وراح يفرك بطنه بنعل حذاء الفتاة . فركلته الآنسة لين مبعدة اياه ، واستلقت على السرير مخفية رأسها وراء ظهر امها .

واحجمت كلتاهما عن الكلام بعض الوقت . فالسيدة لين شغلت بفواقها ، وابنتها شغلت بالتفكير فى "كيفية خروجها غدا" . ان مشكلة البضائع اليابانية لم تكن قائمة فى كل ما لبسته الآنسة لين فحسب ، بل فى كل ما استخدمته ايضا . فحتى علبة المساحيق التى اعجبت بها زميلاتها اعجابا شديدا وقلم الرصاص الاوتوماتيكى ربما يكونان من صنع اليابان . وهى متعلقة بهذه الادوات الصغيرة الى حد الجنون !

— يا ابنتى ، أجائعة انت ؟

بعد ان جلست السيدة لين صامتة بعض الوقت ، سيطرت على فواقها تدريجيا واخذت تدلل ابنتها بطريقتها المكرورة .

فقالت البنت بأسلوب دل ، وهى ما تزال مستلقية على السرير ووجهها مدفون خلف ظهر امها :

— لا ، لماذا تسأليننى دائما عما اذا كنت جائعة ؟ ان اهم شئ هو اننى لا املك ثيابا . كيف سأستطيع الذهاب الى المدرسة غدا ؟

ولم تفهم السيدة لين من البداية لماذا ظلت ابنتها تتذمر قائلة

انها لا تملك ثيابا تلبسها . لقد كانت هذه هى المرة الثالثة ، فلم يعد بامكانها بعد الآن تجاهل هذه الملاحظة ، ولكن فواقاتها اللعينة ثارت ثانية . وعندها دخل السيد لين . كانت فى يده صحيفة من الورق ، وكان شاحب الوجه . ورأى زوجته تقاوم فواقاتها الهائجة المستمرة وابنته مستلقية على السرير وقد تناثرت فوقه الثياب ، فاستطاع ان يحزر ما فى الامر تماما . فقال مقطبا جبينه :

ـ هل فى مدرستكم منظمة معادية للغزو اليابانى يا شيو ؟ لقد وصلت هذه الرسالة . انها تقول انك اذا لبست ثانية ثيابا مصنوعة من مادة يابانية ، فانهم سيحرقونها ! ـ كلام غير قانونى !

ثم اردف يقول :

ـ يا لها من سخافة ! كل واحد يلبس شيئا من صناعة اليابان . ولكن لا بد انهم يريدون خلق المتاعب لاسرتنا . ليس هناك متجر يتاجر ببضائع اجنبية الا ومملوء بالسلع اليابانية . الا انهم يريدون ان يجعلوا متجرنا هو المتهم . انهم يصرون على اقفال متجرنا !

وقالت السيدة لين وهى تفوق :

ـ ايتها الالهة قوانشيين ، احمينا واحفظينا !

وقالت الآنسة لين وهى تستقيم فى جلوسها على السرير :

ـ بابا ، لقد حصلت على سترة محشوة بالقطن من طراز قديم . وربما لا تكون مصنوعة من مادة يابانية . ولكن اذا لبستها فسيضحكون جميعا منى ، لأنها ليست حديثة .

لقد كانت تفكر فى الذهاب خطوة ابعد من ذلك ، فتطلب من السيد لين ان يشترى لها ثوبا ليس من قماش يابانى ، ولكن

تعابير وجهه جعلتها تكبت مثل هذه الخطوة المتهورة . ثم راحت تتخيل الملاحظات الساخرة التى ستثيرها جاكيتها المحشوة القديمة ، فلم تستطع كبح دموعها .

فقالت السيدة لين وهى تفوق :

— يا ابنتى ! لا تبكى ، لا احد سيضحك منك يا ابنتى . . .

وقال السيد لين غاضبا :

— يا شيو ، عليك الا تذهبى الى المدرسة غدا ! قريبا لن يبقى لدينا اى شىء نأكله ، فكيف سننفق نقودا على المدرسة !

ثم مزق الرسالة وخرج من الغرفة متنهدا . ولم يمض على خروجه وقت طويل حتى عاد مسرعا يسأل زوجته :

— اين مفتاح الخزانة ؟ اعطينى اياه !

فحدقت اليه السيدة لين وقد شحب لونها وهدأت موقتا فواقاتها الدائمة .

— لا مفر من ذلك . لا بد ان نقدم شيئا لهذه الشياطين الضالة . . .

ثم توقف لحظة ليتنهد ، وتابع يقول :

— سيكلفنى هذا اربعمائة يوان على الاكثر . واذا رأى فرع الكومينتانغ المحلى ان هذا المبلغ ليس كافيا ، فسأترك العمل فى التجارة . وليقفلوا لى مخزنى ! فالمتجر المقابل فيه من البضائع اليابانية اكثر مما لدى . انهم يستثمرون اكثر من عشرة آلاف يوان ، ولم يدفعوا الا خمسمائة ، وها هم اولاء يتابعون عماهم من دون اية متاعب . خمسمائة يوان ! اعتبريها فقط مجرد قرضين سيئين ! المفتاح !

فذلك العقد الذهبى لا بد ان يساوى ثلاثمائة يوان ...

فأخرجت السيدة لين المفتاح بيد مرتجفة ، وقالت وهى تفوق :

— حقا ، كعصابة من قطاع الطرق !

وتحدرت الدموع على وجهها . ولكن الآنسة لين لم تبك ، بل استمرت تنظر الى الفراغ بعينين غائمتين ، متذكرة عضو لجنة الكومينتانغ الذى القى خطابا فى مدرستها ، ذلك الشخص الكريه المجدور ، ذا البشرة الداكنة ، الذى كان يحدق اليها مثل كلب جائع . واستطاعت ان تتخيله وهو يقبض على العقد الذهبى ويثب من شدة الفرح ، فاغرا فمه فى ضحكة عالية . ومن ثم تخيلت هذا اللص الكريه يشاجر والدها ويضربه ...

وفجأة صرخت صرخة ذعر شديدة ، والقت نفسها على صدر امها . فأصيبت السيدة لين بجفلة شديدة حتى انها لم تجد وقتا لمواصلة فواقها ، وقالت باذلة كل ما لديها من جهد :

— يا ابنتى ، لا تبكى ، فبعد عيد رأس السنة سيكون لدى والدك نقود . وسنفصل لك ثوبا جديدا . يا لهم من محتالين شريرين ! انهم يصرون جميعا على ان لدينا نقودا . اننا نزداد خسارة كل سنة ؛ لقد خسر ابوك فى الاتجار فى السماد الكيماوى ايضا . واصبح كل ما يستثمر فى المتجر الآن عائدا الى اناس آخرين . يا ابنتى ، ان مرضى هذا يجعل الحياة جحيما . بعد سنتين ، عندما تصبحين فى التاسعة عشرة ، سنجد لك زوجا طيبا . وعندها يمكننى ان اموت مطمئنة ! انقذينا من محنتنا ايتها الالهة قوانشيين !

٢

وفى اليوم التالى خضع متجر السيد لين لتغير كبير : فجميع البضائع اليابانية التى لم يكن ليجرؤ على عرضها فى الاسبوع الماضى قد عرضت الآن على نحو بارز . ومحاكاة لمخازن شانغهاى الكبيرة كتب السيد لين على كثير من قصاصات الورق الملون الكلمات التالية : " تخفيض كبير بنسبة ١٠٪ " والصقها على واجهة متجره . وكان الوقت قبل عيد رأس السنة القمرية بسبعة ايام فقط ، وذلك هو " موسم الازدحام " فى بيع البضائع المستوردة فى البلدات والقرى . ولم يكن هناك امل فى استعادة ما انفقه السيد لين ، الاربعمائة يوان ، فحسب ، بل ان ثوب الآنسة لين الجديد يتوقف كذلك على مقدار البيع خلال الايام القليلة القادمة .

وبعد العاشرة صباحا بقليل بدأت مجموعات من الفلاحين الذين نزلوا الى البلدة لبيع منتجاتهم فى السوق تتنقل على طول الشارع . وراحوا خلال مشيهم يتحدثون بصوت مرتفع وقوى ، حاملين سلالهم فى اذرعهم وسائقين امامهم اطفالهم . وتوقفوا لينظروا الى الاعلانات الحمراء والخضراء الملصقة على واجهة السيد لين وجلبوا اليها الانتباه . فالنساء يهتفن بأزواجهن والاطفال يصيحون بوالديهم ، لاوين ألسنتهم اعجابا بهذه البضائع المعروضة فى واجهة المتجر . سيحل عيد رأس السنة قريبا . والاطفال يرغبون فى شراء جوارب جديدة . وتذكرت كل من النساء ان طست الغسل قد انكسر لدى اسرتها منذ وقت ، وان

المنشفة الوحيدة التي تستخدمها الأسرة بكاملها قد اشتريت منذ نصف سنة ، وقد اصبحت الآن خرقة بالية ، وان الصابون قد نفد لديهم منذ اكثر من شهر ، فعليهم ان يستفيدوا من هذه "التنزيلات" ويشتروا بعض الاشياء .

كان السيد لين يجلس في حجيرة امانة الصندوق — منظما كل طاقاته ، وقد علت وجهه ابتسامة عريضة . وراح يراقب الفلاحين والبائعين الاثنين والصبيين المتمرنين في متجره . ورجا من اعماق قلبه ان يرى بضاعته وقد بدأت تباع والپوانات الفضية وقد بدأت تدفع اليه .

ولكن بعد ان وقف هؤلاء الفلاحون فترة ينظرون ، ويومئون باعجاب شديد ، مشوا الى متجر في الناحية الاخرى من الشارع ليقفوا ويزيدوا من مشاهدتهم . فحدق السيد لين الى ظهورهم مادا عنقه ، والشرر يتطاير من عينيه . كان بوده لو يذهب اليهم ويجرهم الى متجره ثانية !

كان خلف حجيرة امانة الصندوق باب بمصراعين متحركين يفصل المتجر نفسه عن "الحجرة الداخلية" . وبجانب هذا الباب جلست السيدة لين تطاق فواقاتها التي كانت قد حبستها بجهد منذ وقت طويل . وكانت الآنسة لين جالسة الى جانبها ، تراقب الشارع في صمت وقلبها يخفق . فنصف ثوبها الجديد على الاقل قد ابتعد عنها الآن .

وخطا السيد لين بسرعة ليقف امام طاولة العرض . وحدق الى المتجر المقابل بعيرة . كان بائعوه الخمسة يقفون خلف طاولة العرض مترقبين . ولكن لم يدخل المتجر اى من الفلاحين . فقد نظروا الى

البضائع فترة ثم واصلوا سيرهم ، وعندها شعر السيد لين بالارتياح ، ولم يستطع اخفاء ابتسامته عن البائعين فى ذلك المتجر . ووقفت امام متجر السيد لين مجموعة اخرى تتكون من سبعة فلاحين او ثمانية . وبالفعل خطا من بينهم شاب خطوة الى الامام ، ثم مد رأسه جانبا واخذ يتفحص المظلات المستوردة . فحام السيد لين حوله وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة سارة . لقد ذهب ليخدم بنفسه هذا الزبون المأمول .

— هل تريد مظلة اجنبية يا اخى ؟ انها رخيصة . فستدفع فقط ٩٠ فنا بدلا من يوان واحد . تعال وانظر .

وانزل له احد البائعين مظلتين او ثلاث مظلات مستوردة . ثم فتح احداها بسرعة ودفعها الى يد الفلاح الشاب فى تحمس . واثار ثرثرة عالية حادة ، باذلا فى ذلك كل حماسته :

— انظر الى هذه ايها السيد الشاب ! انه ساتان اجنبى انها متينة وجميلة تصلح لايام المطر والصحو . تسعون فنا لكل واحدة . لا يمكن ان تكون ارخص من ذلك . فى المتجر الآخر يوان واحد لكل واحدة ، ولكنها ليست جيدة كهذه . يمكنك ان تقارن بينها وترى الفارق .

امسك الفلاح الشاب المظلة ووقف فاغر الفم مترددا . والتفت الى رجل فى الخمسينات من عمره ، ثم هز المظلة فى يده كأنه يسأله : " هل اشتريها ؟ " فاضطرب ذلك الكهل وبدأ يصيح به :

— انك مجنون ! تشترى مظلة ! اننا لم نحصل الا على ثلاثة يوانات مقابل قارب واحد من الاخشاب ، وامك تنتظرنا فى البيت لنعود اليها ببعض الارز فكيف يمكنك ان تنفق نقودا على مظلة !

وتنهد الفلاحون الواقفون حوله يراقبون ، وقالوا :

— انها رخيصة ، ولكننا لا نستطيع تحمل ثمنها .

وغادروا المتجر ببطء . وهز الفلاح الشاب رأسه ، واحمر وجهه خجلا . ثم وضع المظلة من يده وهم بالانصراف . وكان السيد لين فى اوج انفعاله ، فتراجع بسرعة وقال :

— كم ستدفع بها يا اخى ؟ انظر اليها ثانية . انها سلعة جيدة !

فأجاب الفلاح الكهل ساحبا ابنه ومنطلقا واياه بسرعة :

— انها رخيصة . ولكن ليس لدينا نقود كافية .

وعاد السيد لين الى حجيرة امانة الصندوق شاعرا بالمرارة والضعف العام وادرك ان المسألة ليست فى انه رجل اعمال غير ملائم ، بل ان الفلاحين كانوا فقراء جدا . انهم لا يستطيعون حتى ان ينفقوا تسعين فنا على مظلة . واختلس نظرة الى المتجر المقابل . كان هناك اناس ينظرون ، ولكن لم يدخل اى منهم . وامام حانوت البقالة ودكان الكعك المحلى المجاورين لم يكن هناك حتى ولو شخص ينظر . وظلت جماعة اثر جماعة من الريفيين يمرون حاملين سلالهم . ولكن جميع هذه السلال كانت فارغة . وبالمصادفة ظهر شخص ما يحمل كيسا قماشيا بيتى الصنع ذا لون ازرق زهرى ، ويبدو بمجرد النظر اليه انه مملوء بالارز . فالمحصول الاخير من الارز ، والذى حصدوه منذ اكثر من شهر ، قد انتزع منهم اجرة لملاك الاراضى وفوائد للمرابين . وها هم اولاء يجبرون الآن ، من اجل ان يأكلوا ، على شراء كيل او كيلين من الارز فى كل مرة وبأسعار باهظة .

وهذا كله قد ادركه السيد لين . لقد شعر ان قسما من تجارته ، على الاقل ، يلتهمه على نحو غير مباشر ملاك الاراضى والمرابون .

واقترب الوقت من الظهر تدريجيا . هناك قلة من القرويين فى الشارع الآن . لقد باع متجر السيد لين ما قيمته اكثر من يوان بقليل . اى ما يكفى لتغطية تكاليف اوراق الاعلان الحمراء والخضراء . ودخل السيد لين " الحجرة الداخلية " مكتئبا ، لا يكاد يجرؤ على مواجهة زوجته وابنته . كانت عينا الآنسة لين قد اخضلتا بالدموع . وقد جلست فى الزاوية مخفوضة الرأس . وكانت السيدة لين وسط سلسلة من فواقاتها ، فقالت لزوجها وهى تناضل للسيطرة على هذا الفواق :

— لقد انفقنا اربعمائة يوان . . وامضينا الليل كله نرتب البضائع فى المتجر ! وقد حصلنا على اذن ببيع البضائع اليابانية ، ولكن السوق كاسد . . يا اسلافى المقدسين ! . . . ان الخادمة تريد اجرتها . .

فقال السيد لين مكرها نفسه على التلفظ بهذه العبارة المواسية :

— لقد انقضى نصف يوم فقط ، فلا تقلقى !

ولكنه شعر كأن سكينا تحز فى قلبه . واخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا وهو فى حالة كئيبة . لقد فكر فى جميع الطرق التى يعرفها ، والتى من شأنها تعزيز تجارته ، ولكن ايا منها لم تبد له صالحة . لقد اصبحت التجارة سيئة . ولقد مضى على استمرارها بهذا السوء بعض الوقت ، فمتجره ليس المتجر الوحيد الذى يعانى صعوبة . الناس فقراء ، وليس هناك ما يمكن فعله لتجاوز هذه المشكلة . ولكنه ما يزال يأمل فى ان تتحسن الاحوال بعد الظهر . فأهالى البلدة عادة يقومون بشرائهم بعد الظهر . ألن يشتروا شيئا للاحتفال بعيد رأس السنة ؟ واذا اراد هؤلاء ان يشتروا فان متجره سيزدحم بالبيع بكل تأكيد ، ذلك لأن سلعه ارخص مما هى فى المتاجر الاخرى !

وكان هذا هو الامل الذى مكنه من رفع معنوياته الهابطة خلال جلوسه فى حجيرة امانة الصندوق ، منتظرا الزبائن الذين تخيل قدومهم بعد الظهر .

واثبتت فترة بعد الظهر انها تختلف حقا عن فترة الصباح . لم يكن فى الشارع كثير من الناس ، ولكن السيد لين قد عرف كل واحد منهم تقريبا . لقد عرف اسماءهم او اسماء آبائهم او اسماء اجدادهم . هؤلاء هم اهالى البلدة المحليون ، لذلك كانت عينا السيد لين تتألقان بمودة غير طبيعية وهو يرحب بهم خلال مرورهم بمتجره يتحادثون ، كما كان يتبعهم بنظراته ايضا . وكان من حين لآخر يحيى زبونا قديما بابتسامة عريضة ويقول :

ـ آه يا اخى ، أذاهب الى المقهى ؟ ان متجرنا الصغير قد خفض اسعاره كثيرا . فساعدنا بشروة صغيرة .

واحيانا كان الرجل يتوقف فعلا ويدخل الى المتجر . وعندها يصاب السيد ومساعداه بنوبة من الحيوية والنشاط ، ويراقبون بحساسية مرهفة عينى هذا الزبون الذى لا يمكن التنبؤ به . ففى اللحظة التى تستقر فيها عيناه على سلعة ما يسارع البائعان الى اخراج اخرى مماثلة لها تماما ، ثم يدعوانه الى تفحصها . وتراقب الآنسة لين هذا الزبون من محاذاة الباب ذى المصراعين المتحركين ، فيطلب منها والدها غالبا ان تحييه احتراما بكلمة " عم " . كما يقدم له الصبى المتمرن كأسا من الشاى وسيجارة جيدة .

وفى مسألة السعر كان السيد لين مرنا الى حد غير متوقع . فعندما يتمسك زبون بانقاص بعض الفئات المتبقية من سعر مشترياته ،

يأخذ السيد لين المحسب المحلى من يد البائع ويحسب بنفسه . ومن ثم يحسم على مضض هذه الفئات المتبقية من الفاتورة الاجمالية ثم يقول فى ابتسامة حذرة :

— سنخسر فى هذا البيع ، ولكنك زبون قديم . وعلينا ان نرضيك . تعال واشتر مزيدا من الاشياء حالا !

وتقضت فترة بعد الظهر كلها على هذا النحو . وتم فيها البيع نقدا ودينا ، كبيرا وصغيرا . وكان مجمل ما باعه المتجر اكثر من عشر بيعات . وتبالل السيد لين بالعرق . وعلى الرغم من انه انهاك ، الا انه كان فى غاية السعادة . وظل يختلس النظرات الى المتجر المقابل . انهم تقريبا لا يبدون مشغولين جدا . وارتسمت تعابير السرور على وجه الآنسة لين التى كانت تديم النظر من جوار الباب . حتى ان السيدة لين لم تخرج من فواقاتها الا القليل .

وقبل حلول الظلام بقليل انهى السيد لين جمع حساباته لذلك اليوم . فكان حاصل حساب الفترة الصباحية صفرا ، اما بعد الظهر فقد باعوا من السلع ما قيمته ستة عشر يوانا وخمسة وثمانون فنا ، ثمانية يوانات منها ديون . فابتسم السيد لين قليلا ثم عاد فعبس . لقد باع كل ما باعه من سلع بسعر الكلفة الاصلى . انه لم يغط حتى نفقاته لذلك اليوم ، ناهيك عن احرازه اى ربح . واضطرب ذهنه لحظة . ثم اخرج دفاتر الحساب ومضى يحسبها وقتا طويلا . فبخصوص " الديون " هناك اكثر من الف وثلاثمائة يوان من الديون التى له — اكثر من ستمائة منها فى البلدة واكثر من سبعمائة فى الريف . ولكن حساب الديون المطلوبة منه قد اظهر رقما يبلغ ثمانمائة يوان لمخزن

البيع بالجملة فى شانغهاى وحده . انه مدين بمبلغ ليس اقل من الفى يوان !

وتنهد السيد لين بهدوء . اذا استمرت تجارته على هذا السوء ، فستواجهه بعض الصعوبات فى اجتيار عيد رأس السنة . ونظر الى الاوراق الحمراء والخضراء فى الواجهة ، والتى تعان عن " تخفيض كبير بنسبة ١٠٪ " ، ثم قال فى نفسه : اذا بقينا نحسم من الاسعار حقا كما فعلنا اليوم ، فان تجارتنا لابد ان تنشط . اننا لا نجنى اى ربح ، ولكن اذا لم اقم بأى عمل فسيبقى على دفع النفقات على اية حال . ان الشيء الرئيسى هو ان اجعل الزبائن يرتادون متجرى ، وبعدها يمكننى ان ارفع اسعارى بالتدريج .... واذا استطعنا ان نبيع فى الريف بالجملة ، فذلك سيكون افضل !

وفجأة قطع شخص ما على السيد لين حلمه الجميل . فقد دخلت المتجر عجوز فى الخمسين من عمرها مترنحة تحمل صرة صغيرة ملفوفة بقماش ازرق . ورفع السيد لين رأسه ليجدها قبالته . واراد ان يفر منها ولكن لم يكن هناك متسع لذلك . ولم يستطع الا ان يتقدم ويحييها قائلا :

ــ آه ، يا سيدة تشو ، أخارجة لشراء بعض الاشياء من اجل عيد رأس السنة ؟ تفضلى بالدخول الى الغرفة الخلفية واجلسى هناك ــ يا شيو اعطى السيدة تشو ذراعك .

ولكن الآنسة لين لم تسمع ، اذ انها غادرت الباب ذا المصراعين المتحركين منذ وقت مضى . ولوحت السيدة تشو بيدها رافضة فكرة الشراء ، ثم جلست على كرسى فى المتجر وفتحت صرة القماش

الازرق بهدوء واخرجت منها دفتر حسابات صغير . وبيدين مرتجفتين قدمت الدفتر الى السيد لين . ثم لوت شفتيها الذاويتين واوشكت ان تتكلم ، ولكن السيد لين كان قد اخذ الدفتر واسرع يقول :

— فهمت ، سأرسل النقود الى بيتك غدا .

— الشهر العاشر والشهر الحادى عشر والشهر الثانى عشر تساوى معا ثلاثة اشهر . وثلاثة مضروبة بثلاثة تصبح تسعة ، تلك اذن تسعة يوانات ، أليس كذلك ؟ سترسل النقود غدا ؟ ليس من الضرورة ان ترسلها الى ، انا سآخذها معى ! ها !

وبدا ان الكلمات تخرج بصعوبة من فم السيدة تشو الذاوى : ان لها على متجر السيد لين قرض بثلاثمائة يوان ، وقد جعلت فائدته ثلاثة يوانات شهريا . وكان السيد لين قد اخر الدفع ثلاثة اشهر ، واعدا بدفع فائدة الاشهر الثلاثة كلها فى نهاية السنة . وقد احتاجت الآن بعض النقود لشراء هدايا تقدمها غدا فى عيد اله المطبخ ، ولذلك جاءت تبحث عن السيد لين . ومن القوة التى استخدمتها فى تغضين فمها استطاع السيد ان يستشف تصميمها على عدم المغادرة من دون النقود .

وحك السيد لين رأسه فى صمت . انه لم يكن قد رفض دفع الفائدة متعمدا ، بل كان ذلك بسبب كساد تجارته خلال الاشهر الثلاثة الماضية . فمبيعاته اليومية لم تكن تغطى مصاريف الطعام والضرائب الا بصعوبة . لذلك اخر الدفع على نحو غير مقصود . ولكن اذا لم يدفع لها اليوم ، فربما تثير شجارا فى المتجر . وهذا شيء معيب وسيؤثر فى مستقبل المتجر تأثيرا سيئا جدا .

واخيرا قال السيد لين ساخطا ، وكأن فى حلقه غصة :

— حسنا ، حسنا ، خذيها معك !

ثم اندفع الى حجيرة امانة الصندوق ولملم كل النقود التى حصل عليها فى ذلك اليوم ، واضاف اليها عشرين فنا من جيبه ، ثم قدم للسيدة العجوز ثمانية يوانات فضية وعشرة جياوات فضية واربعين قطعة نحاسية ، فعدتها بحرص مرة تلو اخرى ثم لفت عليها القماش الازرق بيدين مرتجفتين . ولم يستطع السيد لين كبح تنهيدة خرجت منه . ان لديه رغبة عنيفة فى اختطاف جزء من هذه النقود .

وقال فى ضحكة مفتعلة :

— ذلك المنديل مهترئ جدا يا سيدة تشو ، لم لا تشترين منديلا كتانيا ابيض جيدا ؟ لدينا ايضا مناشف وصابون من افضل نوعية . خذى شيئا من ذلك للاستخدام فى عيد رأس السنة . والاسعار معقولة !

فلوحت يدها رافضة وقالت :

— لا ، لا اريد شيئا . ان عجوزا مثلى لا تحتاج الى شيء .

ووضعت دفتر حسابها فى جيبها ، ثم غادرت ممسكة صرة القماش الازرق باحكام .

ودلف السيد لين الى " الحجرة الداخلية " متجهم الوجه . ان زيارة تشو قد ذكرته بأن هناك دائنين آخرين . فالعجوز تشن قد اقرضه مائتى يوان . والارملة تشانغ قد اقرضته مائة وخمسين يوانا . وعليه ان يدفع اليهما معا ما قيمته عشرة يوانات فائدة . ولا يمكنه ان يؤخر نقودهما ، بل عليه فى الحقيقة ان يدفع لهما فى وقت مبكر .

وعد على اصابعه — الرابع والعشرون ، الخامس والعشرون ، السادس والعشرون . فى اليوم السادس والعشرين عليه ان يكون قادرا على جمع كل الديون غير المدفوعة من الريف . لقد انطلق مساعده شو شنغ فى رحلة لجمع الديون اول امس . اما فواتير البلدة غير المدفوعة فلا يمكن ان تجمع قبل الثامن والعشرين او التاسع والعشرين . ولكن جامع الديون الذى يرساه مخزن البيع بالجملة فى شانغهاى ، والذى له ديون على السيد لين ، ربما يصل غدا او بعد غد . وكان الخيار الوحيد امام لين هو ان يقترض المزيد من المصرف المحلى . وكيف ستكون تجارته غدا ؟ . . .

واخذ السيد لين يذرع المكان جيئة وذهابا ، خافض الرأس يفكر . ووصل صوت ابنته الى اذنه يقول :

— بابا ، ما رأيك فى هذه القطعة من الحرير ؟ اربعة يوانات وعشرون فنا مقابل سبعة اقدام . انها ليست غالية ، أليس كذلك ؟

فوثب قلب السيد لين . وجمد فى مكانه يحدق فى صمت ورفعت الآنسة لين قطعة الحرير بيدها وقهقهت . اربعة يوانات وعشرون فنا ! ليس ذلك مبلغا كبيرا ، ولكن المتجر لم يبع طيلة اليوم الا بستة عشر يوانا ، وبسعر الكلفة حقا ! وسأل السيد لين فى ضعف :

— من اين حصلت على النقود ؟

— لقد سجلت ثمنها فى دفتر الديون .

دين آخر . وقطب السيد لين . ولكن هو نفسه الذى افسد ابنته بالتدليل ، والسيدة لين ستقف الى جانبها مهما كانت المسألة . وافتر فمه عن ابتسامة مرة فاترة . ومن ثم تنهد قائلا فى شيء من التوبيخ :

— انت دائما متعجلة ، لماذا لم تنتظرى الى ما بعد عيد رأس السنة !

٣

ومر يومان آخران . وخلالهما نشطت التجارة حقا فى متجر السيد لين بسبب " التخفيض الكبير " . فكانوا يبيعون كل يوم بأكثر من ثلاثين يوانا . وقلت فواقات السيدة لين قلة ملحوظة . فكانت تفوق بمعدل مرة واحدة كل خمس دقائق . وكانت الآنسة لين تخطر بين المتجر و" الحجرة الداخلية " متألقة الوجه باسمة . وكانت احيانا تساعد فى البيع ولا تعود الى الغرفة الا بعد ان تناديها امها عدة مرات . ولقد احتجت بانفعال ماسحة العرق عن جبينها :

— ماما ! لماذا تطلبين منى ان اعود ؟ انه ليس عملا صعبا : ماما ، ان بابا متعب جدا وقد بلله العرق ، وبح صوته ! زبون اشترى وحده بخمسة يوانات ! لا تقلقى ! بابا طاب منى ان استريح قليلا ، ومن ثم اعود الى العمل .

واكتفت السيدة لين بأن هزت رأسها وفاقت ، متبعة ذلك بتمتمتها التالية : " الالهة بوذا رحيمة وكريمة " . كانت هناك صورة من الخزف الصينى للالهة قوانشيين محفوظة فى " الحجرة الداخلية " مع عود من البخور يحترق امامها ، وانحنت السيدة لين امام هذا المقام وسجدت . ثم شكرت الالهة على حمايتها وصلت طالبة منها انزال البركة فى عدد من الامور — ان تظل تجارة السيد لين جيدة ، وان

تصبح الآنسة لين اجمل ، وتحظى فى السنة القادمة بزوج صالح :

ولكن مع ان السيد لين كان واقفا نفسه على العمل ، ومع ان الابتسامة لم تبرح وجهه ، الا انه كان يشعر بأن قلبه مشدود بخيوط . كان يشعر بغصة مع كل يوان يأخذه ، وهو يرى الزبون الراضى يخرج متأبطا بضاعته . اذ كان صوت المحسب المحلى يطقطق فى ذهنه معلنا خسارة خمسة فى المائة من سعر الكلفة الذى جناه بعرقه ودمه . وحاول عدة مرات ان يقدر الخسارة بثلاثة فى المائة ، ولكن كيفما قدرها فستظل خسارته خمسة فنات فى كل يوان . ومع ان عمله كان جيدا ، الا انه كان يزداد سوءا كلما ازداد عمله . وخلال قيامه بخدمة الزبائن كان الصراع يحتدم فى داخله فيجعله احيانا يكاد يصاب بالاغماء . وكان اذا ما اختلس النظرات الى المتجر المقابل احس بأن صاحبه والبائعين فيه يسخرون منه من خلف طاولات العرض . وبدا له كأنهم يقولون : " انظروا الى ذلك الاحمق لين ! انه يبيع حقا بأقل من الكلفة ! انتظروا وشاهدوا ! كلما كثر بيعه كثرت خسارته واقترب من التوقف عن هذا العمل ! "

وعض السيد لين شفتيه . واقسم بأنه سيرفع الاسعار فى اليوم التالى ، سيتقاضى اسعار الدرجة الاولى عن بضائع الدرجة الثانية .

ومر به رئيس نقابة التجار . لقد كان هو الذى توسط له لدى رؤساء الكومينتانغ من اجل بيع البضائع اليابانية . وها هو ذا الآن يهنئه مبتسما ويربت على كتفه ، ويقول له بهدوء :

— كيف تجرى الامور ؟ لقد كان انفاق الاربعمائة يوان جيدا . ولكن يحسن بك ان تقدم ايضا هدية صغيرة الى مدير المصلحة

بو ، والا فربما ينزعج ويحاول الضغط عليك . عندما يكون العمل جيدا ، كثير من الناس يغارون حتى لو ان المدير بو لا يملك اية فكرة عن ذلك ، فانهم سيحركونه !

شكره السيد لين على هذا الاهتمام . ولكنه احس داخليا بالذعر . وفقد تقريبا متعة قيامه بالعمل .

والذى زاد فى اضطرابه هو ان مساعده شو شنغ الذى خرج فى رحلة لجمع الديون لم يعد حتى الآن . انه فى حاجة الى النقود ليسدد حسابه لدى مخزن شانغهاى الكبير للبيع بالجملة . ولقد وصل جامع الديون من شانغهاى قبل يومين ، وضغط على السيد لين بشدة . فاذا لم يعد شو شنغ سريعا ، فانه سيضطر الى الاقتراض من المصرف المحلى . وهذا يعنى اضافة عبء جديد من الفائدة يقدر بخمسين او ستين يوانا . وذلك اقسى على السيد لين من ان يسلخ حيا .

وحوالى الساعة الرابعة بعد الظهر سمع السيد لين فجأة ضجة تتعالى فى الشارع . وبدا الناس مذعورين كأن كارثة قد حلت بهم . وتأكد للسيد لين الذى لم يستطع التفكير الا فى مدى احتمال عودة شو شنغ سالما أن القارب النهرى الذى سيعود على متنه قد هاجمه القراصنة . فلوح لأحد المارة وسأله وقلبه يخفق :

— ماذا حدث ؟ هل اختطف القراصنة القارب القادم من ليشى ؟

فأجابه المار ، وكان متسكعا شهيرا يدعى لو ، قائلا فى ثرثرة :

— اوه ! انهم القراصنة اذن ؟ ان السفر خطير حقا ! السرقة لا شىء . فحتى الناس يتم اختطافهم من القارب مباشرة .

ثم حدق الى البضائع الملونة الزاهية داخل المتجر .

ولم يستطع السيد لين ان يفهم منه شيئا على الاطلاق . فتركه وقد ازداد قلقه ، ثم خاطب وانغ الشخص الثانى الذى مر به :

— أصحيح ان القارب القادم من ليشى قد سرق ؟

فأجابه وانغ من دون ان يخفف من خطوه :

— لا بد ان تكون عصابة آ شو هى التى فعلت ذلك . لقد قتل آ شو ، الا ان عصابته ما تزال قوية !

وبلل العرق البارد جبهة السيد لين . لقد اصبح كالمجنون . انه على يقين من ان شو شنغ سيعود اليوم من ليشى . فذلك كان المكان الاخير فى دفتر الديون . انها الساعة الرابعة الآن ، ولكن ليس هناك اثر لشو شنغ . بعد هذا الذى قاله وانغ ، كيف يبقى لديه ادنى شك ؟ لقد نسى انه هو نفسه الذى اخترع قصة سرقة القارب . وغطت حبات العرق وجهه . ثم اندفع الى " الحجرة الداخلية " . ولما مر عبر الباب ذى المصراعين المتحركين تعثر بالعتبة وكاد يسقط .

وصاحت الآنسة لين جارية نحوه :

— بابا ، انهم يتقاتلون فى شانغهاى ! لقد قذف اليابانيون حى تشابى بالقنابل !

فتوقف السيد لين فجأة . ما كل هذا الذى يتعلق بالقتال فى شانغهاى ؟ وكان اول ما تبادر الى ذهنه هو انه لا علاقة له بهذا القتال . ولكن ما دام الامر يشمل كلمة " يابانيين " فأولى به ان يزيد من استفساره قليلا . لذلك قال ناظرا الى وجه ابنته المنفعل :

— اليابانيون قذفوها بالقنابل ؟ من اخبرك بذلك ؟

— كل شخص فى الشارع يتحدث عن ذلك . لقد استخدم الجنود اليابانيون المدفعية الثقيلة ، كما دكت طائراتهم تشابى !

— اوه ، حسنا ، هل قال احد ما ان القارب القادم من ليشى قد سرق ؟

فهزت الآنسة لين رأسها بالنفى ، ثم طارت من الغرفة كأنها فراشة . وتردد السيد لين بجانب الباب حاكا رأسه . وعندها كانت السيدة لين تفوق وتتمتم بأدعيتها قائلة :

— احمينا ايتها الالهة بوذا ! لا تتركى اية قنبلة تسقط فوق رؤوسنا !

واستدار السيد لين وخرج الى المتجر ، فرأى ابنته مشغولة بمحادثة انفعالية مع البائعين . ورأى صاحب المتجر المقابل قد خرج من خلف طاولة العرض وراح يتكلم ويومئ بعنف . هناك قتال فى شانغهاى ؛ لقد قذفت الطائرات اليابانية تشابى بالقنابل واحرقتها ؛ وقد توقف التجار فى شانغهاى عن العمل — كل هذا صحيح . ماذا عن القراصنة الذين سرقوا القارب ؟ لا احد سمع شيئا عن ذلك ! وذلك القارب القادم من ليشى ؟ لقد عاد سالما . لقد رأى صاحب المتجر العاملين فى القارب يمرون من امامه بكيسين كبيرين . ولذلك شعر السيد لين بالارتياح . فشو شنغ لم يعد اليوم ، ولكنه لم يسرق على يد القراصنة ايضا !

ان البلدة كلها الآن تتحدث عن كارثة شانغهاى : فالبائعون الشباب اخذوا يلعنون المعتدين اليابانيين . حتى ان الاهالى راحوا يهتفون : "كل من يشترى بضائع يابانية فهو ابن عاهرة !" وقد

صبغت هذه الكلمات وجنتى الآنسة لين بحمرة قرمزية ، ولكن السيد لين لم يبد على ملامحه اى تغيير . جميع المتاجر تبيع سلعا يابانية . واكثر من ذلك ان التجار قد استلموا ترخيصات خاصة من رؤساء الكومينتانغ بعد ان قدموا لهم بعض مئات من اليوانات ، وهذه الترخيصات تقول : " هذه البضائع يمكن ان تباع بعد ازالة العلامة اليابانية . " وبذلك تحولت كل السلع داخل متجر السيد لين الى " بضائع وطنية " . وزبائنه ايضا يسمونها " بضائع وطنية " ، ومن ثم يشترونها وينصرفون .

وبسبب الحرب فى شانغهاى فقدت البلدة بكاملها كل اهتمام بالعمل التجارى ، غير ان السيد لين ظل مشغولا بالتفكير فى اموره الخاصة . انه لم يرغب فى الاقتراض من المصرف المحلى بفائدة باهظة ولذلك بحث عن جامع الديون ليلتمس منه تأجيل الدفع يوما آخر او يومين . ولقد قال له ان شو شنغ سيعود غدا قبل حلول الظلام على ابعد تقدير . وعندها سيدفع له كامل المبلغ .

— عزيزى السيد لين ، انك رجل ذكى . كيف تتكلم هكذا ؟ انهم يتقاتاون فى شانغهاى . والسفر بالقطار يمكن ان يتوقف غدا او بعد غد . ان رغبتى الوحيدة هى ان اتمكن من العودة الليلة ! فكيف يمكنني ان انتظر يوما او يومين ؟ ارجوك ان تصفى حسابك اليوم بحيث استطيع السفر غدا صباحا . انا لست رئيس نفسى ، فأرجوك ان تقدر وضعى قليلا !

كان جامع الديون عنيدا صلبا فى رفضه . ورأى السيد لين انه لا امل فى اقناعه ، فلم يبق امامه من خيار الا تحمل الألم وطلب قرض من صاحب المصرف المحلى . واضطرب خشية ان يكون

" العجوز البخيل " قد علم بحاجته الملحة فيستغل هذا الظرف لزيادة معدل الفائدة . ومن اللحظة التى بدأ فيها السيد لين التحدث مع مدير المصرف احس بأن الجو غير ملائم اطلاقا . فهذا العجوز المساول لم يقل شيئا عندما انتهى السيد لين من طلبه ، بل استمر ينفخ فى نارجيلته القديمة . وعندما انهى كتلة التنباك كلها قال ببطء :

– لا استطيع ان اعطيك . لقد بدأ اليابانيون القتال ، العمل التجارى فى شانغهاى فى توقف تام ، والمصارف كلها قد توقفت عن العمل ايضا – فمن يدرى متى تستقر الامور ! ان مصرفى بانقطاعه عن شانغهاى مثل سرطان بغير ارجل . ومع توقف تبادل الحوالات لا استطيع التعامل حتى مع زبون افضل منك . اننى آسف . بودى ان اساعدك ولكن ليس باليد حيلة !

وتريث السيد لين مكانه . لقد ظن بأن هذا المدير المسلول يتظاهر بذلك استعدادا لطلب فائدة اعلى . وعندما أوشك على بدء مناورته بتجديد طلبه ، فوجىء بسماعه المدير يدفعه خطوة ابعد حين قال :

– ان صاحب العمل قد اصدر الينا تعليماته . لقد سمع بأن من المحتمل ان يزداد الوضع سوءا ، فيريد منا ان نكون متشددين . ان متجرك مدين لنا بالاصل بخمسمائة ، وفى الثانى والعشرين من هذا الشهر اقترضت مائة اخرى – فيصبح المبلغ كله ستمائة مستحقة التسديد قبل عيد رأس السنة . اننا نتعامل سويا منذ وقت طويل ، ولذا فأنا احيطك علما بهذه المعلومات السرية . اننا نريد ان نتجنب قدرا كبيرا من الكلام والارتباك فى اللحظة الاخيرة .

فقال السيد لين مشدوها :

— اوه . . ولكن متجرنا الصغير يمر فى ظرف عصيب . على ان افكر فى كيفية جمع ديوننا .

— اوه ! لماذا انت متواضع جدا ! لم يكن عملك فى هذه الايام الاخيرة كالآخرين ! فما الصعوبة فى دفع ستمائة يوان فقط ؟ اننى اليوم اخبرك بذلك يا اخى . اننى انتظر تسديد ديونك لأبرئ ذمتى مع صاحب العمل .

لقد تحدث المدير المساول فى برود ، ثم ما لبث ان نهض . ورأى السيد لين الذى جمد الدم فى عروقه ان الوضع لا يمكن تداركه . كل ما استطاع فعله هو انه تماسك وانصرف خارجا من المصرف . لقد ادرك اخيرا ان القتال فى شانغهاى البعيدة سيؤثر فى متجره الصغير ايضا . من المؤكد انه ستكون هناك صعوبة فى اجتياز عيد رأس السنة : فجامع الديون القادم من شانغهاى يضغط عليه لاخذ النقود ؛ والمصرف لن ينتظر الى ما بعد عيد رأس السنة ؛ وشو شنغ لم يعد بعد وليس هناك من خبر عن كيفية تدبره الامر . ونظرا الى ان حسابات السيد لين البارزة فى البلدة ما تزال مضطربة حتى الآن ، فانه لم يستطع ان يجمع منها فى السنة الماضية الا ثمانين فى المائة . وبمجرد النظر الى الامور تجد انه ليس هناك ضمان حتى لجمع هذا القدر . وبدا ان طريقا واحدا فقط مفتوح امام السيد لين : " ايقاف العمل موقتا — موازنة دفاتر الحسابات ! " وهذا مساو للافلاس . فليس هناك اى من نقوده قد استثمر فى متجره منذ وقت طويل . وفى اليوم الذى توازن فيه دفاتر الحسابات وترد الديون الى الدائنين ، ربما لا يكون

المبلغ المتبقى له كافيا للحيلولة دون تعرض اسرته للعرى !

وكلما امعن السيد لين فى التفكير ازدادت حالته سوءا . وخلال عبوره الجسر نظر الى الماء الكدر فى الاسفل . لقد اوشك ان يغرى بالقفز وينهى كل شىء . وعندها لوح له رجل من خلفه يقول :

— يا سيد لين ، أصحيح ان هناك حربا دائرة فى شانغهاى ؟ لقد سمعت ان مجموعة من الجنود قد اقامت خارج البوابة الشرقية للبلدة وطلبت من نقابة التجار قرضا . انهم يريدون عشرين الفا فى الحال . ونقابة التجار تعقد اجتماعا حول ذلك الآن !

استدار السيد لين بسرعة . فاذا المتحدث هو العجوز تشن الذى له على المتجر قرض بمائتى يوان — دائن آخر من دائنى السيد لين . فرد عليه مرتعشا :

— اوه . . .

ثم عبر الجسر بسرعة وجرى نحو البيت .

٤

وعلى وجبة العشاء فى ذلك المساء وضعت السيدة لين الى جانب طبق لحم الخنزير المعتاد وطبقى الخضروات طبقا آخر مفضلا لدى السيد لين — لحم الخنزير المحمر . ووضعت بالاضافة الى ذلك زجاجة من النبيذ الاصفر . ولم تغادر الابتسامة وجه الآنسة لين ، ذلك لأن البيع فى المتجر كان جيدا ، وثوبها الحريرى الجديد قد تم تفصيله ، ولأنهم كانوا يقاومون اليابانيين فى شانغهاى . وتقلصت

كذلك فواقات السيدة لين فأصبحت بمعدل واحدة كل عشر دقائق .

ولكن السيد لين وحده هو الذى كان غارقا فى الكآبة . فراح ينظر الى ابنته وزوجته ويحتسى خمرته بكآبة . وفكر عدة مرات فى ان يبلغهما هذا الخبر الاسود الذى سيكون سقوطه عليهم شبيها بسقوط قنبلة ، ولكنه لم يكن يملك هذا النوع من الشجاعة فيفصح عن ذلك . وهو فوق ذلك ما يزال متمسكا بالامل ، انه لا يزال راغبا فى النضال اليائس ، لقد اراد على الاقل ان يخفى اخفاقه فى الموازنة بين نفقاته ودخله .

وهكذا عندما ارسلت له نقابة التجار قرارها بدفع خمسة آلاف يوان للجنود وطلبت منه ان يسهم بعشرين يوانا ، وافق من دون ادنى تردد . وقرر الا يخبر زوجته وابنته بحقيقة الامر وان يخفى عنهما ذلك حتى آخر لحظة ممكنة . ثم اجرى حسابه على النحو التالى : سيجمع ٨٠٪ من الديون التى له ويدفع ٨٠٪ من الديون التى عليه . وهو على اية حال معذور بسبب القتال فى شانغهاى ، فالحوالات لا يمكن ان ترسل . وكانت الصعوبة تكمن فى ان هناك فرقا يقدر بستمائة يوان بين الديون التى له والديون التى عليه . لا بد ان يتخذ اجراءات مشددة لتخفيض الاسعار تخفيضا كبيرا . وكانت الفكرة من ذلك هى ان يجمع بعض النقود لمواجهة المشكلة الحالية ، وبعدها ينظر فى الامر . من يمكنه ان يفكر فى المستقبل فى ظروف كهذه ؟ اذا استطاع ان يجتاز الظرف الحالى ، فهذا يكفى .

وعلى هذا النحو وضع خططه . وبفعل قوة النبيذ الاصفر الاضافية نام ، وظل غاطا فى النوم طوال الليل ، من دون ادنى اثر حتى لحلم

مزعج .

وفى السادسة والنصف صباحا استيقظ السيد لين . كانت السماء معتمة ، وكان يشعر بشىء من الدوار . فتجرع طاسين من حساء الارز ، وهرع الى المتجر . وكان اول من رأت عيناه جامع الديون القادم من شانغهاى يجلس منجهم الوجه ، منتظرا " جوابه " . ولكن الشىء الذى صدمه هو المتجر المقابل ، فقد الصقت فى جميع واجهاته ايضا قصاصات من الورق الاخضر والاحمر تحمل كذلك عبارة " تخفيض كبير بنسبة ١٠٪ ! " وهكذا احبطت خطته التامة التى وضعها فى الليلة السابقة احباطا كاملا على يد تلك القصاصات الخضراء والحمراء لدى منافسه .

وقال جامع الديون بفراغ صبر ، ضاربا الطاولة بقبضته :

— ما نوع هذا المزاح يا سيد لين ؟ انك لم تعطنى جوابا فى الليلة الماضية . القارب ينطلق من هنا فى الساعة الثامنة ، وعلى ان اجرى اتصالا بالقطار . وعلى حقا ان ادرك قارب الساعة الثامنة ! ارجوك ، اسرع . . .

فاعتذر منه السيد لين ورجاه الصفح . حقا ان ذلك كله بسبب القتال فى شانغهاى وعدم تمكنه من ارسال الحوالات . وانهم فوق ذلك كله ، يعملون فى التجارة منذ سنوات كثيرة . وهكذا رجاه السيد لين ان ينظر اليه بشىء من الاعتبار الخاص .

— اذن سأعود صفر اليدين ؟

فأجابه السيد لين بصوت مرتجف :

— لماذا ! لماذا ! لا بكل تأكيد . عندما يعود شو شنغ ،

سأعطيك من النقود بقدر ما يجلب . ولن اكون رجلا اذا انا اخفيت شيئا منها !

وبجهد بالغ حبس الدموع التى نفرت الى عينيه .

ولم يعد هناك ما يمكن قوله ، فتوقف جامع الديون عن تذمره ولكنه ظل جالسا بلا حراك ، وكان السيد لين قد فقد صوابه تقريبا من شدة القلق ، وراح قلبه يضرب بشدة . فمع انه قد مر بظرف عصيب فى السنوات القايلة الماضية الا انه ظل قادرا على حفظ ماء وجهه . اما الآن فهناك جامع ديون يجلس فى متجره على ملأ من الناس جميعا . اذا تسربت كلمة من هذا ، فان سمعته ستدمر . ان لديه كثيرا من الدائنين . افترض انهم جميعا قرروا ملاحقته ، فما الذى يحدث ؟ لا مفر حينذاك من ان يغلق متجره فورا . ودعا هذا السيد الشانغهانى عدة مرات فى يأس الى الانتظار فى الغرفة الخلفية حيث يكون الوضع اكثر اراحة ، ولكن الاخير رفض .

وشرع المطر الجليدى بالتساقط . فأصبح الشارع باردا مهجورا ، لم يسبق له ان ظهر كئيبا هكذا فى موسم رأس السنة . واخذت اللوحات تصر وتقرقع مع هبوب الريح الشمالية . وبدا المطر الجليدى كأنه يتحول الى ثلج . وفى المتاجر المتراصفة على امتداد الشارع اتكأ الباعة على طاولات العرض وراحوا ينظرون بانشداه .

ومن حين لآخر كان السيد لين وجامع الديون يتبادلان بعض الكلمات العابرة وفجأة دخلت الآنسة لين ، ووقفت عند الواجهة الامامية تراقب المطر البارد وتستمع الى هسيسه . ومن الغرفة الخلفية كان صوت فواقات السيدة لين ينبعث قويا منتظما . وفيما كان السيد

لين يحاول ان يكون لطيفا مع ضيفه نظر الى ابنته واستمع الى فواقات زوجته ، وقد هبت فى داخله موجة من اليأس . لقد فكر كيف انه لم يعرف الرفاه طيلة حياته وكيف انه لم يستطع كذلك ان يتخيل المسؤول عن تعرضه لمثل هذه المحن الاليمة .

وبدا ان جامع الديون قد هدأ بعض الشيء ، فقال فجأة وبلهجة ودية :

— يا سيد لين ، انك رجل طيب ، وليست لديك ميول سيئة ، كما انك لطيف ونزيه فى عملك . منذ عشرين سنة كان بامكانك ان تصبح غنيا . ولكن الامور مختلفة اليوم . فالضرائب باهظة والنفقات كبيرة والتجارة كاسدة — وانها لمأثرة ان تستمر .

فتنهد السيد لين وابتسم فى مرارة تعبيرا عن تواضعه .

وبعد لحظة صمت استأنف جامع الديون يقول :

— وفى هذه السنة كان السوق فى البلدة اسوأ بقليل مما كان عليه فى السنة الماضية ، أليس كذلك ؟ فالمحلات الداخلية كهذا المحل اعتمدت فى بيعها على اهالى الريف ، ولكن الفلاحين فقراء جدا . ليس هناك فى الحقيقة حل . . . اوه ، انها الساعة التاسعة ! لماذا لم يعد مساعدك بعد ؟ هل هو موثوق ؟

فوثب قلب السيد لين . وظل لحظة عاجزا عن الاجابة . فمع ان شو شنغ يعمل عنده بائعا منذ ثمانى سنوات ، ولم تحدث منه اية زلة ، ولكن ليست هناك ضمانة تامة ! وهو الى جانب ذلك متأخر عن موعده . فضحك جامع الديون لدى رؤيته تعابير الشك على وجه السيد لين ، ولكن ضحكته كان لها ايقاع غريب .

وعند الواجهة استدارت الآنسة لين وصاحت على عجل :

ـ بابا ، شو شنغ قد عاد ! انه مغطى بالوحل !

وكان لصوتها ايقاع خاص ايضا . ووثب السيد لين مذعورا ومسرورا فى آن واحد . لقد اراد ان يركض نحو الطاولة لينظر اليه ، ولكن ساقيه ضعفتا من شدة انفعاله . وعندها دخل شو شنغ مغطى بالوحل حقا . ثم جلس يلهث ، فلا يستطيع التفوه بكلمة . لقد بدا الوضع سيئا . ووقف السيد لين صامتا ايضا ، وقد ذهب الخوف بصوابه . وعبس جامع الديون . وبعد فترة قال شو شنغ لاهثا :

ـ الوضع خطير جدا ! لقد كادوا يدركوننى !

فتماسك السيد لين المنفعل وقال من غير تفكير :

ـ القارب قد سرق اذن ؟

ـ لم تكن هناك اية سرقة . كانوا يجمعون حمالين للجيش . ولم استطع الوصول الى القارب امس بعد الظهر ، فركبت زورقا بمجذاف هذا الصباح . وبعد ان انطلق بنا سمعنا انهم ينتظروننا عند هذا الطرف لالقاء القبض علينا ، لذلك اتجهنا الى مكان ابعد . وعندما رسا بنا الزورق ، وقبل ان نجتاز نصف لى اصطدمنا بكتيبة للجيش . فألقى القبض على البائع الذى يعمل فى متجر القماش ، اما انا فركضت بأقصى سرعة وعدت من طريق مختصرة . عليهم اللعنة ! لقد نجوت بأعجوبة !

ورفع شو شنغ جاكيته خلال تكلمه ، وسحب من حزام نقوده رزمة ملفوفة بقماش ثم سلمها الى السيد لين قائلا :

ـ النقود كلها هنا . ان متجر هوانغ فى ليشى فاسد جدا .

علينا ان نكون حذرين من زبائن كهؤلاء فى السنة القادمة . . . سأعود بعد ان اغسل وجهى وابدل ملابسى .

واشرق وجه السيد لين وهو يقبض على الرزمة . ثم حملها الى حجيرة امانة الصندوق وفك عنها لفافة القماش . وفى البداية جمع النقود المستحقة الدفع فى قائمة المدينين ، ومن ثم عد ما قد جمع . فوجد ان هنالك احد عشر يوانا فضيا ومائتى جياو فضى واربعمائة وعشرين يوانا من الورق النقدى وحوالتين مصرفيتين — تساوى الاولى خمسين ليانغا من الفضة وتساوى الثانية خمسة وستين ليانغا ، وذلك حسب المعدل الرسمى . فاذا حول الكمية كلها لجامع الديون القادم من شانغهاى ، فسيبقى لديه عجز يقدر بأكثر من مائة يوان حتى يوفى ديونه لدى مخزن البيع بالجملة .

واستغرق السيد لين فى التفكير . ثم نظر من طرف عينه عدة مرات الى جامع الديون الشانغهانى الذى كان يدخن سيجارته فى صمت . واخيرا تنهد ، ثم كمن يقتطع قطعة من لحمه وضع الحوالتين والاربعمائة يوان امام هذا الرجل الشانغهانى . ومن ثم تكلم طويلا حتى استطاع ان ينتزع منه اخيرا هزة رأس بالموافقة وكلمة " حسنا " .

ولكن بعد ان نظر جامع الديون الى الحوالتين مرتين قال مبتسما :

— آسف لازعاجك يا سيد لين ، ارجوك ان تقبضهما لى اولا .

فأجابه السيد لين على الفور :

— بالتأكيد ، بالتأكيد .

وبسرعة وضع خاتم متجره على ظاهر الحوالتين . وارسل احد مستخدميه ليقبضهما من المصرف المحلى ، ولكن بعد فترة قصيرة

عاد البائع صفر اليدين ، فالمصرف قد قبل الحوالتين الا انه رفض دفعهما قائلا بأنهما ستحسمان من ديون السيد لين . وعلى الرغم من سقوط الثلج بغزارة هرع السيد لين الى المصرف من دون مظلة ليتوسل اليه شخصيا . ولكن جهوده ذهبت عبثا .

وفور عودة السيد لين الى المتجر مكتئب الوجه ، سأله جامع الديون الشانغهاني بنفاد صبر :

ـ حسنا ، ماذا حدث ؟

واوشك السيد لين على البكاء . ليس هناك ما يمكنه قوله الا التنهد والتوسل الى جامع الديون من اجل مزيد من التساهل ، فما الشيء الآخر الذى يمكنه فعله ؟ وخرج شو شنغ واضاف توسلاته الى توسلات السيد لين . واقسم بأنهم سيرسلون المائتين الباقيتين الى شانغهاى فى اليوم العاشر من السنة الجديدة . وقال ايضا ان السيد لين زبون قديم كان يدفع ديونه دائما على الفور من دون اية كلمة . وما حدث اليوم امر استثنائى حقا . ولكن هكذا كان الوضع ، ولم يكن امامهم من مخرج . انهم لم يؤجلوا الدفع من قبيل الخداع .

ولكن جامع الديون الشانغهانى كان عنيدا ، فأحضر السيد لين ، والالم يعتصره ، اليوانات الخمسين التى حصل عليها خلال الايام القليلة الماضية وسلمها له ليوفى بذلك دفع اربعمائة وخمسين يوانا . وعندها فقط انصرف جامع الديون الشانغهانى ، هذا الشخص الذى سبب له صداعا .

كان الوقت حينذاك الحادية عشرة صباحا . وكانت رقاقات الثلج ما تزال تتساقط . ولم يكن باديا للعيان ولو نصف زبون . ففكر

السيد لين قليلا ثم ناقش شو شنغ فى كيفية جمع فواتير البلدة غير المدفوعة . وقطب كلاهما ، فلا احد منهما كانت لديه الثقة بأنه يمكن جمع اكثر من ستمائة يوان من ديون زبائن البلدة المستحقة الدفع . وعندها انحنى شو شنغ قريبا من السيد لين وهمس فى اذنه :

— سمعت ان المتجر الكبير عند البوابة الجنوبية والآخر عند البوابة الغربية على وشك الافلاس . وكلاهما مدينان لنا بحوالى ثلاثمائة يوان معا . فمن الافضل ان نتخذ الحيطة ازاء هذين الحسابين . فاذا افاسا قبل ان نتمكن من استرداد الديون ، فان يكون ذلك بالامر السهل !

فشحب وجه السيد لين ، وارتجفت شفتاه قليلا . وعندها زاد شو شنغ من تخفيض صوته ، وتمتم ببعض الاخبار التى كان لها وقع اشد :

— هناك اشاعة اخرى سيئة حولنا . من المؤكد انهم سمعوها فى المصرف . وذلك هو سبب ضغطهم علينا بهذه الشدة . وربما كان جامع الديون الشانغهانى قد علم بها ايضا . من يمكن ان يقوم بمحاولة ازعاجنا ؟ المتجر المقابل ؟

واشار شو شنغ بشفتيه المزمومتين نحو المشتبه به ، ووثبت عينا السيد لين تتعقبان الاشارة . ووقف مكتئبا صامتا بعض الوقت لا يقوى على التكلم ، وقلبه يخفق على غير انتظام . لقد تملكه شعور بالالم واحس هذه المرة انه قد انتهى بلا ريب ! اذا لم يدمر فسيكون ذلك معجزة : رؤساء الكومينتانغ يعتصرونه ، والمصرف يضغط عايه ، وزملاؤه اصحاب المتاجر يطعنون به من خلفه ،

واثنان من اكبر مدينيه يتخلفان عن دفع الديون . لا احد يمكنه الصمود فى وجه صدمة عنيفة كهذه . ولكن لماذا كتب عليه ان يمنى بكل هذا السوء ؟ انه منذ ورث هذا المتجر الصغير عن ابيه لم يجرؤ ابدا على ان يكون مبدرا . لقد ظل لطيفا جدا ، فلم يؤذ انسانا ابدا ، ولم يخطط اطلاقا ضد اى شخص . وابوه وجده كانا كذلك ايضا ، وبعد هذا يكون كل ما جناه هو المرارة !

وعلى الرغم من ان شو شنغ لم يكن بوسعه الا ان يتنهد ، غير انه حاول مواساة السيد لين قائلا :

ـ لا بأس ، دعهم ينشروا اشاعاتهم . عليك الا تقلق ، هناك دوما اشاعات فى السنوات العجاف . انهم يقولون ان تسعة متاجر من كل عشرة لن تتمكن من دفع ديونها قبل انتهاء السنة . الظروف سيئة ، والسوق كاسدة . والمتاجر المزدهرة عادة فى عوز شديد هذه السنة . ليس متجرنا المتجر الوحيد الذى يواجه صعوبة . عندما تنهار السماء ننسحق كلنا جميعا ، فلا بد ان تفكر نقابة التجار فى مخرج . المتاجر لا يمكن ان تنهار جميعا ، والا فان ذلك سيجعل السوق اكثر كسادا .

لقد اصبح تساقط الثلج اكثر غزارة . انه يلتصق بالارض الآن : ومن حين لآخر ينسل من امام المتجر كلب واضعا ذيله بين ساقيه . وربما يقف وينتفض بشدة ليزيل الثلج المتراكم على فرائه . ومن ثم يتابع طريقه مدليا ذيله ثانية . لم يسبق لهذا الشارع ان شهد فى تاريخه موسم سنة جديدة قارسا ومقفرا الى هذا الحد ! وفى هذا الوقت بالذات تقوم المدفعية اليابانية الثقيلة فى شانغهاى البعيدة بقذف تلك

المدينة التجارية الزاهرة على نحو مسعور .

٥

لقد كان عيد رأس سنة كئيبا ، ولكنه مر اخيرا . وقد افلس فى البلدة ثمانية وعشرون متجرا كبيرا وصغيرا ، من بينها متجر حرير " ذائع الصيت" . والمخزنان المدينان للسيد لين بثلاثمائة يوان قد توقفا عن العمل ايضا . وفى اليوم الاخير من السنة السابقة ذهب شو شنغ اليهما وازعجهما بمطالبته ساعات ، ولكن كل ما استطاع انتزاعه منهما كان عبارة عن عشرين يوانا ، وسمع بعد ذلك انه لم يستطع اى جامع ديون آخر ان يحصل منهما ولو فنا ، فقد اخفى صاحبا المتجرين نفسيهما وتعذر ايجادهما . اما بالنسبة للسيد لين فلم يكن من الضرورى اختباؤه ، وذلك بسبب تدخل رئيس نقابة التجار . ولكنه تعهد بدفع كامل ديونه ، اربعمائة يوان ، الى المصرف قبل الخامس عشر من الشهر الاول ، وكان عليه ان يقبل بشروط قاسية جدا : فالمصرف سيرسل ممثلا ليحرس كل ما يحصله من نقود بدءا من استئناف العمل فى اليوم الخامس ، وثمانون فى المائة من هذه النقود التى ستجمع يجب ان تحول الى المصرف لتسديد ديون السيد لين .

كان بيت السيد لين خلال عطلة عيد رأس السنة كعلبة من جليد . فقد استمر يطلق تنهيدة اثر اخرى . اما فواقات السيدة لين فكانت كسلسلة من المفرقعات النارية . وعلى الرغم من ان الآنسة لين لم

يصدر عنها فواق او تنهد ، الا انها جلست كئيبة مضطربة كشخص فى حالة دوار اثر معاناته من مرض اليرقان سنوات . فثوبها الحريرى قد ذهب الى المرهن الوحيد فى البلدة لجمع اجور الخادمة . لقد اخذه الصبى المتمرن فى السابعة صباحا الى المرهن ، وكان الوقت قد جاوز التاسعة عندما عاد يشق طريقه وسط الزحام وبيده يوانان . وبعد ذلك امتنع المرهن عن القيام بأى عمل فى ذلك اليوم . يوانان ! كان هذا اعلى سعر يدفعه المرهن مقابل اى رهن مهما كان سعره الاصلى ! وقد سمى ذلك "سقف اليوانين" . فعندما يصمم فلاح على الصمود فى وجه البرد ، يخلع جاكيته المحشوة بالقطن ويضعها على طاولة المرهن ، فيرزنها المستخدم ويهزها ، ثم يقذفها له قائلا فى غضب : "لا نريدها !"

ومع بداية عيد رأس السنة اصبح الطقس جميلا وصافيا . وغص فناء المعبد الكبير كالمعتاد بكشوك الباعة المتجولين وادوات البهلوانيين والمشعوذين . وراح الناس يتباطأون امام الكشوك ، ويضربون حزمهم الفارغة من النقود ، ثم يمضون فى طريقهم على مضض . وكان الاطفال المتعلقون بثياب امهاتهم يرفضون مغادرة الكشوك حيث تباع المفرقعات النارية ، فتضطر الام الى توجيه صفعة قوية الى صغيرها المزعج . وهؤلاء الباعة الذين جاءوا خصيصا للاستفادة من تجارة السوق المعتادة فى عيد رأس السنة لم يجمعوا حتى ما يكفى لشراء طعامهم . ولم يستطيعوا دفع اجور مبيتهم فى النزل المحلى ، فكانوا يتشاجرون مع صاحبه كل يوم .

والفرقة البهلوانية وحدها هى التى كسبت المبلغ الضخم وقدره

ثمانية يوانات . لقد استأجرها رؤساء الكومينتانغ لتضاف الى جو " السلم والازدهار" .

وفى مساء اليوم الرابع اقام السيد لين ، الذى استطاع بشىء من الصعوبة جمع ثلاثة يوانات ، المأدبة المعتادة لمستخدميه ، حيث ناقشوا فيها جميعا خطة استئناف العمل فى اليوم التالى . كانت التوقعات واضحة امام السيد لين : اذا استأنفوا العمل فمن المؤكد انهم سيتعرضون الى خسارة ، واذا لم يستأنفوه فسيصبح هو واسرته بلا مورد . والناس فوق ذلك ما يزالون مدينين له بخمسمائة يوان ، ذلك المبلغ الذى سيواجه جمعه مزيدا من الصعوبة اذا هو توقف عن العمل . وكان المخرج الوحيد هو الاقتصاد فى النفقات . ولكن لم يكن هناك مفر من الرسوم والضرائب التى تدفع للجنود ، حتى ان فرصة تجنبه " الابتزاز" كانت اضيق . أيسرح واحدا او اثنين من مستخدميه ؟ عنده ثلاثة فقط . شو شنغ ، ساعده الايمن . والاثنان الآخران شخصان بائسان ، الى جانب انه يحتاج اليهما حقا لخدمة الزبائن . وهكذا لم يستطع ان يخفض شيئا من نفقات البيت . واكتفوا بتسريح الخادمة . وشعر ان الشىء الوحيد امامه هو ان يستمر مكرها . وربما يتمكن ، عندما يكسب الفلاحون ببركة بوذا نقودا من بيع حريرهم الربيعى الخام ، من تعويض خسارته .

ولكن اكبر مشكلة واجهته فى استئناف العمل هى نقص السلع . ومن دون نقود يحولها الى شانغهاى لن يستطيع استكمال بضاعته . والحرب فى شانغهاى تزداد سوءا . ولم تكن هناك فائدة من ان يأمل فى الحصول على شىء بالاستدانة . أيبيع الاحتياط لديه ؟ لقد نفدت

بضاعته منذ وقت طويل . وصناديق الالبسة الداخلية على الرفوف فارغة ، وهى مستخدمة للعرض فقط . وكل ما بقى لديه عبارة عن اشياء كطسوت الغسل والمناشف . ولكن لديه الكثير منها .

وارتشف المدعوون خمرتهم باكتئاب . ولم يستطع اى منهم ، مع امعانهم جميعا فى التفكير ، ان يقدم حلا للمشكلة . وتكلموا فى العموميات بعض الوقت . وبعد ذلك قال آ شى ، احد البائعين ، فجأة:

ــ العالم ذاهب الى الجحيم . والناس يعيشون كأسوأ ما تعيش الكلاب ! انهم يقولون ان تشابى قد احرقت تماما ، وان مئات الآلاف من الاهالى قد اضطروا الى الهرب تاركين خلفهم كل امتعتهم . ولم يبق فى قطاع هونغكو اى حريق ، ولكن هرب كل شخص هناك . ان اليابانيين قساة جدا ، فهم لم يدعوهم يأخذون معهم اى شيء من امتعتهم . واجرة البيوت فى الاماكن الآمنة فى شانغهاى قد ازدادت عدة اضعاف . وجميع اللاجئين يفرون الى الريف . وقد جاءت مجموعة الى بلدتنا امس . انهم يبدون جميعا اناسا ميسورين ، وهم الآن مشردون !

فهز السيد لين رأسه وتنهد ، ولكن شو شنغ طرأت على ذهنه فكرة مشرقة لدى سماعه هذه الكلمات . فوضع عودى اكله . ورفع كأس الخمرة وتجرعه دفعة واحدة . ثم التفت الى السيد لين وقال مبتسما :

ــ أسمعت ما قاله آ شى الآن ؟ هذا يعنى ان طسوت الغسل والمناشف والصابون والجوارب ومسحوق الاسنان وفرش الاسنان ستباع بسرعة . وسيمكننا ان نتخلص من كل ما عندنا .

فحدق اليه السيد لين . انه لم يفهم ما قصده شو شنغ من كلامه .

واستطرد شو شنغ يقول :

ـ انظر ، هذه فرصة من السماء . لا بد ان يكون مع اللاجئين الشانغهانيين بعض النقود ، وسيحتاجون الى هذه الضرورات اليومية المعتادة ، أليس كذلك ؟ يجب ان نضع فى الحال خطة لمعالجة هذا الامر !

وصب لنفسه كأسا آخر من الخمرة وشربه ، فأشرق وجهه . وادرك البائعان الفكرة فشرعا يضحكان . اما السيد لين فهو وحده الذى لم يكن صافى المزاج تماما . ان محنته الحاضرة قد بلدت حسه الى حد ما . لذلك سأله فى تردد :

ـ هل انت متأكد ؟ ان المتاجر الاخرى فيها طسوت غسل ومناشف كذلك . . .

ـ ولكننا الوحيدون الذين نملك مخزونا كثيرا من هذا الصنف من المواد . فالمتجر المقابل ليس لديه حتى عشرة طسوت ، وكلها من الدرجة الثانية . لقد اصبح هذا الجزء من العمل فى قبضة يدنا مباشرة ! دعنا نكتب كمية من الاعلانات ونلصقها عند بوابات البلدة الاربع وفى اى مكان فى البلدة يقيم فيه اللاجئون ــ يا آ شى ، اين هم يسكنون ؟ سنذهب لالصاق اعلاناتنا هناك !

فقال آ شى وقد اشرق وجهه بالارتياح لهذه النتيجة الرائعة التى تسبب فيها عن غير تعمد :

ـ الذين لهم اقرباء هنا يسكنون مع اقربائهم ، والبقية استعاروا المبنى الفارغ لمصنع الحرير خارج البوابة الغربية .

واخيرا احاط السيد لين بالصورة كلها ، فأحس بالسرور وارتفعت

معنوياته ؛ ووضع على الفور صيغة الاعلانات ، مسجلا جميع الضرورات اليومية الموجودة فى متجره للبيع . كان هناك بضع عشرة سلعة . وتقليدا منه لمخازن شانغهاى الكبيرة اتخذ اسلوب " الرزمة بيوان " . ومقابل يوان يحصل الربون على طست غسل ومنشفة وفرشة اسنان وعلبة مسحوق للاسنان . وكتب على الاعلان بأحرف ضخمة " بيعة كبيرة بيوان " . واخرج شو شنغ طلاحى الورق الاحمر والاخضر المتبقية فى المتجر وقصها قصاصات كبيرة . ومن ثم امسك ريشته وبدأ يكتب . وجمع البائعان والصبيان المتمرنان طسوت الغسل والمناشف وفرش الاسنان وعلب مسحوق الاسنان ورتبوها فى مجموعات . ولم تكن هناك ايد كافية للقيام بكل هذا العمل ، فاستدعى السيد لين ابنته لتساعدهم فى كتابة الاعلانات وربط الرزم . ورتب هو الآخر انواعا اخرى من الرزم المتألفة ــ جميعها من الحاجات اليومية .

وظلوا حتى وقت متأخر من الليل مشغولين فى المتجر . وعند الفجر كانوا قد انتهوا من ترتيب الاشياء جيدا . وعندما اعلنت المفرقعات النارية بدء العمل فى الصباح ، ظهر متجر اسرة لين مرة ثانية بمظهر جديد . لقد الصقت اعلاناتهم فى كافة انحاء البلدة . وقد ذهب شو شنغ شخصيا الى مصنع الحرير خارج البوابة الغربية . فشد الاعلان الذى الصقه على جدران المصنع اعين اللاجئين ، وازدحموا حوله يقرأونه وكأنه نشرة اخبار .

وفى " الحجرة الداخلية " نهضت السيدة لين كذلك فى وقت مبكر جدا . فأشعلت عود البخور امام صورة الالهة وسجدت امامها وقتا طويلا ، ضاربة الارض برأسها فى صوت مسموع . ودعت

الالهة لتحقيق كل شيء . وكان الشيء الوحيد الذى اغفلته هو طلب قدوم مزيد من اللاجئين الى البلدة .

وجرى كل شيء على ما يرام ، تماما كما توقع شو شنغ . فكان متجر السيد لين هو المتجر الوحيد الذى نشطت تجارته فى اليوم الاول من استئناف العمل بعد عطلة رأس السنة . ومع الرابعة بعد الظهر كان قد باع من البضاعة بأكثر من مائة يوان — اعلى رقم فى المبيعات اليومية تم الوصول اليه فى هذه البلدة منذ عشر سنوات . وكانت اكبر سلعة رائجة لديه هى " رزمة اليوان " . وهذا ساعد على رواج مواد اخرى كالمظلات والاحذية المطاطية . واستمر العمل يجرى بسهولة ويسر . واعتاد اللاجئون الذين جاءوا من شانغهاى طرق المدينة الكبيرة ، ولم يكونوا ضيقى الافق كأهالى البلدة او الفلاحين القادمين من المناطق النائية . فعندما كانوا يشترون شيئا ، كانوا يقررون ذلك بسرعة . فيتناولون الشيء وينظرون اليه ، ثم يخرجون نقودهم . ولم يكن منهم من يتفحص جميع السلع او يطالب بخصم الكسر الطفيف .

وعندما اندفعت الآنسة لين الى الغرفة الخلفية متوردة مسرورة لتخبر امها بجودة العمل ، سجدت السيدة لين امام صورة الالهة مرة ثانية . وقالت فى نفسها : ألا يمكن ان يصبح شو شنغ صهرا جيدا لو لا انه يكبر الفتاة كثيرا ! وليس ببعيد ان يكون شو شنغ قد وضع نصف عينه على ابنة مستخدمه التى بلغت السابعة عشرة من العمر ، هذه الفتاة التى خبرها جيدا .

كان هناك شيء واحد قد نغص على السيد لين سعادته — فالمصرف

المحلى قد تجاهل كرامته تجاهلا تاما ، وارسل احد رجاله لجمع نسبة ثمانين فى المائة من دخل المبيعات . ولم يدر هو من الذى حث دائنى متجره الثلاثة فجاءوا بحجة انهم "بحاجة الى بعض النقود لشراء الارز" وطلبوا بالحاح سحب شىء من الفائدة مقدما . وليست الفائدة فحسب ، بل ارادوا كذلك استرجاع جزء من قروضهم ! ولكنه ايضا سمع بعض الاخبار الجيدة ــ هناك دفعة اخرى من اللاجئين قد وصلت البلدة .

وعلى العشاء فى ذلك المساء قدم السيد لين طبقين اضافيين من اللحم مكافأة لمستخدميه . وامتدح كل واحد منهم شو شنغ على دهائه . ومع ان السيد لين كان سعيدا الا انه لم يستطع تجنب التفكير فى موضوع مطالبة دائنيه الثلاثة باسترداد قروضهم . انه لمن سوء الطالع ان يحدث شىء كهذا فى بداية السنة الجديدة .

وقال شو شنغ فى غضب :

ــ ماذا هم يعرفون ؟ لا بد ان يكون شخص ما قد حرضهم على ذلك !

واومأ بشفتيه الى المتجر المقابل .

فهز السيد لين رأسه موافقا . ولكن سواء أعرف الدائنون الثلاثة شيئا ام لم يعرفوا ، فسيكون من الصعب تدبر امرهم . رجل عجوز وارملتان . لا يمكنك ان تكون لينا معهم ، وان تكون قاسيا فذلك لا يصح ايضا . وفكر السيد لين مليا ، ثم قرر ان افضل شىء يجب ان يفعله هو ان يطلب من رئيس نقابة التجار ان يتحدث مع دائنيه الثلاثة الكرام . وسأل شو شنغ عن رأيه ، فوافق بحرارة .

وعندما انتهى العشاء وجمع السيد لين فواتيره لذلك اليوم ، ذهب ليقدم احتراماته لرئيس النقابة . وعبر الاخير عن موافقته التامة على فكرته . واكثر من ذلك انه امتدح السيد لين على اساوبه الذكى الذى يدير به عمله . وقال بأن المتجر سيثبت بكل تأكيد ، وانه سيتحسن فعلا . ثم ابتسم ممسدا ذقنه وانحنى على السيد لين يقول :

ـــ هناك شيء كنت سأحدثك به منذ وقت طويل ، ولكن لم اجد الفرصة المناسبة . لا ادرى اين رأى المدير بو ابنتك ، ولكنه مهتم بها جدا . انه فى الاربعين من عمره وليس عنده اولاد . ومع ان لديه امرأتين فى البيت ، ولكن لم تتوفر لأى منهما القدرة على الانجاب . فاذا انضمت ابنتك الى اسرته واهدت له طفلا ، فمن المؤكد انه سيجعلها زوجته ، عقيلة المدير . آه ، اذا تم ذلك فحتى انا سأتمكن من المشاركة فى هذه المفخرة الكبيرة !

لم يسبق للسيد لين ان تخيل ، ولو فى اشد احلامه سوءا ، انه سيقع فى مشكلة كهذه . لقد ظل صامتا ، بينما واصل رئيس نقابة التجار حديثه بوقار :

ـــ اننا صديقان قديمان . وليس هناك ما لا نستطيع الافصاح به الى بعضنا بعضا . هذا الشيء وفقا للمعايير القديمة سيجعلك تفقد احترامك ، ولكن ليس الامر كذلك ابدا ، انه شيء اعتيادى تماما فى الوقت الحاضر . ويمكن ان يكون هذا زواجا ملائما فى تقدير ابنتك . وعلى اية حال ما دامت هذه هى فكرة المدير بو ، فربما يحدث بعض الازعاج اذا رفضته . واذا انت وافقت ، فسيكون لديك امل حقيقى بالمستقبل . وما كنت لأخبرك بهذا لو لم تكن مصالحك

موضع اهتمامى .

فاستجمع السيد لين قواه للتكلم ، وقال وقلبه يخفق بشدة :

— ان نواياك فى نصحى لأن اكون حريصا هى بالطبع من افضل النوايا ! ولكننى شخص غير ذى شأن ، وابنتى لا تعرف شيئا عن المجتمع الراقى . اننا لا نجرؤ على الارتقاء الى مستوى مدير !

— ها ، ها ! انها ليست مسألة ارتقائكم ، ولكن حقيقة الامر انه يجدها مناسبة . . . دعنا من مناقشة هذا الامر الآن . عد انت الى البيت وناقش زوجتك فى ذلك . وانا سأترك الامر جانبا . وعندما ارى المدير بو سأقول له اننى لم اجد الفرصة للتحدث معك حول هذا الموضوع ، أحسن ذلك ؟ ولكن عليك ان تسرع فى اعطائى جوابا !

واعقب ذلك فترة صمت . واخيرا اكره السيد لين نفسه على القول وقد شحب وجهه :

— سأفعل ذلك .

وعندما وصل الى البيت صرف ابنته من الغرفة وتحدث مع زوجته بالتفصيل . وقبل ان ينهى كلامه ارتفعت فواقات السيدة لين فى وابل قوى ، ربما كان مسموعا لدى جميع الجيران وبجهد بالغ كبحت تدفق فواقاتها ، وقالت لاهثة :

— كيف يمكننا ان نوافق ؟ . . حتى لو لم يكن يريدها حظية . . حتى لو كان يريدها زوجة ، فأنا لا يمكننى ان انفصل عنها !

— هذا ما اشعر به ، ولكن . . .

— اننا ندير عملنا على نحو مشروع وجيد ، فهل تعنى اننا اذا لم نوافق فانه يستطيع اخذها بالقوة ؟

فقال السيد لين هامسا ، وقد اوشك على البكاء :

— ولكن من المؤكد انه سيجد الذريعة للقيام بازعاج ما . هذا الصنف من الرجال اكثر قسوة من قاطع طريق !

فصاحت السيدة لين فى صوت مرتجف :

— لا يمكنه ان يأخذها الا من فوق جثتى ! احمينا ايتها الالهة !

ثم نهضت تترنح خارجة من الغرفة . فاعترضها السيد لين بسرعة وقال فيما يشبه الهذيان :

— الى اين ذاهبة ؟ الى اين ذاهبة ؟

وعندها تماما دخلت الآنسة لين . وبدا واضحا انها سمعت بعضا من الحديث ، ذلك ان بشرتها كانت باون الطبشور الابيض وعينيها كانتا تحدقان بثبات . فأحاطتها السيدة لين بذراعيها واخذت تبكى وتفوق وتناضل كى تقول لاهثة :

— يا بنيتى . . اى شخص يحاول ان يختطفك . . فلا بد ان يكون ذلك من فوق جثتى ! . . فى السنة التى وضعتك فيها اصبت بهذا . . المرض . . ولقد ربيتك بصعوبة حتى اصبحت الآن فى السابعة عشرة من عمرك . ميتتين او حيتين سنبقى معا ! . . كان علينا ان نخطبك لشو شنغ منذ وقت طويل ! ان بو هذا محتال قذر ! انه لا يخشى ان تصرعه الالهة !

وبكت البنت ايضا صارخة " ماما ! ماما ! " وفرك السيد لين يديه وتنهد . كانت المرأة تنتحب انتحابا مخيفا . فخشى زوجها ان يسمع عويلها عبر الجدران الرقيقة ويفزع الجيران . وهذا النوع

من الصياح هو ايضا اساوب سيىء الطالع فى استهلال سنة جديدة ؛ لذلك بذل اقصى جهده لتهدئة الزوجة والبنت ، كابحا كل انفعالاته .

ونام افراد اسرة لين الثلاثة ليلتهم منزعجين . ومع ان السيد لين مضطر الى النهوض باكرا ، غير انه ظل يتصارع طوال الليل مع افكاره التى تورث الكآبة . وفجأة سمع صوتا على السطح جعل قلبه يثب خوفا من ان يكون المدير بو قد حضر ليلفق ضده بعض الاتهامات . ثم ما لبث ان هدأ نفسه وراح يتأمل المسألة بعناية . ان اسرته اناس يديرون عملهم على نحو صحيح ولم يسبق لهم ان ارتكبوا اية جريمة . وما دام قد قام بعمل جيد ولم يستدن من الناس نقودا ، فمن المؤكد ان بو لن يستطيع ان يسبب له المتاعب من غيرما سبب . والآن بدأ عمل السيد لين يبدى بعض الحيوية . ولكن لمجرد ان لديه ابنة بهية الطلعة ، فقد جاب لنفسه الكارثة ! كان عليه ان يخطبها منذ سنوات ، وعندها كان من الممكن الا تظهر هذه المشكلة ابدا . . . أيكون رئيس نقابة التجار صادق الرغبة فى مساعدته ؟ وكان المخرج الوحيد هو طلب النجدة منه . ولكن السيدة لين عادت الى فواقها ثانية . آه ! انه مرضها المزمن !

ونهض السيد لين حالما بزغ الضوء . كانت عيناه محتقنتين بعض الشىء ومتورمتين ، ولقد شعر بدوار ، ولكن كان عليه ان يتحامل على نفسه ويخرج الى العمل . فهو لم يستطع ترك ترتيبات المتجر كلها لشو شنغ ، لأن هذا الفتى قد ارهق خلال الايام الاخيرة .

كان السيد لين لا يزال مضطربا عندما تحامل على نفسه وجلس فى حجيرة امانة الصندوق . وعلى الرغم من ان العمل كان جيدا ،


小丁 82



الا ان جسمه كان يرتجف من حين لآخر ارتجافات شديدة . وكلما دخل الى المتجر رجل كبير ، ولم يعرفه ، شك فى انه قد ارسل من جانب المدير بو لكى يتجسس ، لكى يثير شجارا ، فيخفق قلبه خفقانا مؤلما .

وبدا الامر غريبا . لقد كان العمل فى ذلك اليوم نشيطا اكثر من المتوقع ، اذ سرعان ما باعوا بما يقرب من ستين يوانا . وكان من بين الزبائن ايضا اشخاص من اهل البلدة المحليين . انهم لم يكونوا يشترون فحسب ، بل كانوا فى الواقع ينتزعون الحاجات انتزاعا . ولا يكون الامر كذلك الا عندما يبيع متجر مفلس مخزوناته فى المزاد العلنى بأسعار زهيدة . ولذلك احس السيد لين بشىء من الخوف الى جانب ما كان عليه من ارتياح ، اذ ان هذا النوع من العمل لم يبد له سليما . وخلال تناول الغداء اقترب منه شو شنغ وقال بصوت خافت :

– هناك اشاعة فى الخارج تقول انك قد خفضت الاسعار لتتخلص من الحاجات التى بقيت لديك . وانك بعد ان تجمع قليلا من النقود ستأخذها وتهرب !

فغضب السيد لين لما سمعه واحس بالخوف ايضا . ولم يستطع التكلم . وفجأة دخل رجلان فى بزة رسمية واقتحما الى الامام يسألان :

– من منكم السيد لين ، صاحب المتجر ؟

فنهض السيد لين فى سرعة واضطراب . وقبل ان يجد الفرصة للاجابة بدأ الرجلان يقودانه الى الخارج . واندفع اليهما شو شنغ ليستوقفهما ويسألهما ، فنبحا فى وجهه بعنف قائلين :

— من انت ؟ قف جانبا ! انه مطاوب للاستجواب فى مكتب الكومينتانغ !

٦

بعد ظهر ذلك اليوم لم يعد السيد لين . وكانوا مشغولين بالبيع فى المتجر فلم يستطع شو شنغ الخروج ليستفسر شخصيا ، فرتب الامر لاخفاء الحقيقة عن السيدة لين . ولكن احد الصبيين المتمرنين سرب الخبر فاهتاجت السيدة الى حد الاضطراب العقلى . ورفضت رفضا تاما السماح للآنسة لين بتخطى الباب :

— لقد اخذوا اباك ، وسيعودون من اجلك بعد ذلك !

واستدعت شو شنغ وسألته بدقة ، فرأى ان من غير المستحسن اخبارها بشيء كثير . ولذلك قال لها مهدئا :

— لا تقلقى يا سيدة لين . ليس فى الامر ادنى سوء! لقد ذهب الى مكتب الكومينتانغ لتسوية مسألة دائنينا . ان العمل جيد ، فما الذى نخشاه !

وخفية عن السيدة لين قال لابنتها فى هدوء :

— اننا حقا لم نعرف ما فى الامر بعد .

ثم حثها على الاعتناء بأمها ، وهو من جانبه سيعنى بالمتجر . ولم تكن الآنسة لين لتقوى على التفكير فيما يجب ان تفعله ، فوافقت على كل ما قاله شو شنغ .

وبين القيام بخدمة الزبائن والتفكير فى ايجاد اجوبة لأسئلة السيدة

لين الدائمة كان من المتعذر على شو شنغ ان يتحين الفرصة للاستفسار عن مصير السيد لين . واخيرا وصله خبر مع الشفق عن طريق رئيس النقابة يقول : ان السيد لين قد اوقفه رؤساء الكوميتانغ بسبب الاشاعة التي تقول انه يخطط للهرب بنقود المتجر . فبالاضافة الى ما هو مدين به للمصرف ولمخزن البيع بالجملة ، هناك ايضا ثلاثة دائنين فقراء يجب ان ينظر اليهم بعين الاعتبار . فالمبلغ الذى جمعوه وقدره ستمائة وخمسون يوانا قد اصبح غير مأمون . والكومينتانغ قاق على مصلحة هؤلاء الناس الفقراء ، ولذلك فقد احتجزه الى ان يسوى معهم الامور .

فامتقع وجه شو شنغ ، واصيب بدوار . واخيرا ، وبعد جهد ، قال :

ـ هل يمكننا ان نقدم كفالة لاطلاق سراحه اولا ؟ وكيف يمكننا جمع النقود من دون اطلاق سراحه ؟

ـ ها ! تطلق سراحه بكفالة ! لا يمكنك ان تصبح كفيله اذا ذهبت الى هناك صفر اليدين !

ـ ايها السيد ، رئيس النقابة ، فكر فى حل ما ، ارجوك . قم بعمل جيد . انت والسيد لين صديقان قديمان . ارجوك ان تساعده !

فشرع رئيس نقابة التجار يفكر فى الامر مقطبا جبينه . ثم تأمل وجه شو شنغ مدة دقيقة ، وقاده بعد ذلك الى زاوية الغرفة وقال بصوت منخفض :

ـ اننى لا استطيع الوقوف مكتوف الايدى والسيد لين فى مأزق . ولكن الوضع متوتر جدا الآن ! واصارحك القول بأننى قد توسلت الى المدير بو كى يتدخل . والمدير بو يريد من السيد لين ان يستجيب

لمطلب واحد فقط ، وسيعمل على مساعدته : ولقد رأيت السيد لين فى مكتب الكومينتانغ حيث شجعته على الموافقة ، فقبل ذلك . ألن يكون ذلك هو حل المسألة ؟ من كان يخطر فى ذهنه ان هذا الشخص المجدور العابس الوجه ، فى مكتب الكومينتانغ ، سيكون قذرا الى هذا الحد ؟ انه ما يزال مصرا . . .

— من المؤكد انه لن يعارض المدير بو ، أليس كذلك ؟

— هذا ما ظننته ! ولكن ذلك الشخص المجدور ظل يتمتم ويدمدم الى ان شعر المدير بو بالارتباك . ولقد شب بينهما شجار مخيف ! فانظر الآن ، ألم تصبح الامور محرجة ؟!

فتنهد شو شنغ ، اذ ليس لديه حل . وتبع ذلك فترة صمت ومن ثم تنهد ثانية وقال :

— ولكن السيد لين لم يرتكب اية جريمة .

— هؤلاء الناس لا يذكرون سببا ! وفى نظرهم ان الحق لصاحب القوة ! اطلب من السيدة لين الا تقلق ، فالسيد لين لم يعامل بعد معاملة سيئة . ولكن لكى تخرجه عليها ان تنفق بعض النقود !

ورفع رئيس نقابة التجار اصبعين ثم غادر مسرعا .

ولم ير شو شنغ ، على الرغم من انه قد اجهد ذهنه بالتفكير ، خيارا آخر . ولقد ازعجه البائعان بأسئلتهما ، الا انه تجاهلها . كان يتساءل عما اذا كان من واجبه ابلاغ السيدة لين بكلمات رئيس النقابة . انهم مضطرون الى انفاق النقود ثانية ! وفى الوقت الذى لم يكن يعرف فيه ما اذا كان للسيدة مصدر مالى خاص ، كان على معرفة تامة بالوضع المالى فى المتجر : فبعد ان حسم المصرف المحلى

نسبة الثمانين فى المائة من النقود التى كسبوها خلال اليومين الماضيين ، لم يبق فى المتجر الا حوالى خمسين يوانا . ولكن المطلوب مبلغ كبير ! فرئيس نقابة التجار اشار الى رشوة بمبلغ مائتى يوان على الاقل . فمن يدرى ان ذلك سيكفى ! لن تكون هناك اية فائدة مع بقاء الامور على هذا المنوال ، حتى لو تحسن العمل اكثر من ذلك . واحس شو شنغ بفتور فى عزيمته .

ومن الغرفة الخافية انبعث صوت يدعوه . فرأى ان يذهب ويقدر الوضع ، وبعد ذلك يقرر ما يجب ان يتم . فوجد السيدة لين مستندة الى ذراع ابنتها ثم ما لبثت ان قالت لاهثة :

ــ قبل قليل جاء رئيس نقابة التجار ، فماذا قال ؟

فكذب عليها شو شنغ قائلا :

ــ انه لم يكن هنا .

ــ لا يمكنك ان تخدعنى .. اننى .. اعرف كل شىء .. فوجهك ممتقع اللون ! لقد رأته شيو .. !

ــ هدئى من روعك يا سيدة لين . يقول ان الوضع لا بأس به . والمدير بو عازم على مساعدته ...

ــ ماذا ؟ .. ماذا ؟ المدير بو عازم على المساعدة ! .. ايتها الالهة الرحيمة .. اننى لا اريد مساعدته ! .. اعرف .. ان السيد لين .. قد انتهى ! .. اريد ان اموت انا الاخرى ! هناك شيو فقط .. التى اقلق عليها ! .. خذها معك ! .. اذهبا انتما الاثنان وتزوجا ! .. يا شو شنغ .. اعتن بشيو جيدا ، ولن اقلق على شىء ! .. اذهب ! انهم يريدون انتزاعها ! .. يا لهم من وحوش

مفترسة ! ايتها الالهة ، لماذا لا تظهرين قوتك السماوية !

فحدق شو شنغ ، لا يدرى ما يقول . وظن ان السيدة لين قد جنت ، ولكنها على الاقل لم تبد طبيعية . واخماس نظرة الى الآنسة لين وقلبه يخفق بشدة . فألفاها قد تورد وجهها خجلا ، وظلت مطرقة لم تبد اى تعليق .

وفجأة دخل صبى متمرن يعدو قائلا :

— يا اخى شو شنغ ، شخص ما يريد مقابلتك !

فاندفع شو شنغ خارجا ، وقد ظن انه ربما يكون رئيس نقابة التجار او شخصية اخرى كبيرة . ولكنه دهش عندما وجد السيد وو صاحب المتجر المقابل ينتظره . فتساءل فى نفسه : " ماذا يريد ؟ " وثبت عينيه على وجه السيد وو .

استفسر السيد وو عن السيد لين ، ومن ثم قال مبتسما بأنه على يقين من ان الامر " ليس خطيرا " . وشعر شو شنغ بأن فى ابتسامته ما يدعو الى الشك .

وقال السيد وو وقد اختفت الابتسامة من وجهه وتغيرت نبرة صوته :

— لقد جئت لاشترى قليلا من بضاعتكم .

واخرج من كمه طلحية من الورق . لقد كانت قائمة ببضع عشرة مادة — نفس الحاجات التى يعرضها السيد لين فى " رزمة اليوان الواحد " . ومن نظرة واحدة ادرك شو شنغ كل شىء . هذه هى اللعبة اذن ! واجابه على الفور :

— السيد لين ليس هنا ، وانا لا املك الحق فى ان اقرر .

ـ لم لا تكلم السيدة لين ؟ فذلك سيكون افضل !

وتردد شو شنغ بالاجابة . لقد بدأ يدرك شيئا فشيئا سبب ايقاف السيد لين . ففى البداية ظهرت اشاعة بأن السيد لين يخطط للهرب ، وبعد ذلك القى عليه القبض ، والآن ، يأتى صاحب المتجر المقابل ليبتز البضاعة ! هناك ارتباط واضح بين هذه الاحداث . فغضب الى حد ما واحس بشيء من الخوف . لقد ادرك انه اذا استجاب الى طلب السيد وو فان عمل السيد لين سينتهى ، وان دم قلبه الذى سفحه هو بدوره سيذهب هباء . ولكن اذا هو رفض ، فأية حيل اخرى ستدبر قريبا ؟ انه لم يجرؤ حتى على التفكير . واخيرا قال فى تردد :

ـ سأذهب اذن واكلم السيدة لين ، ولكنها لا تبيع الا على اساس الدفع نقدا .

ـ الدفع نقدا ؟ ها ، شو شنغ ، طبعا انت تمزح ؟

فقال شو شنغ فى ترو وبرود ، معيدا القائمة الى يد السيد وو :

ـ هذا هو مزاجها ، وانا لا استطيع ان اتصرف شيئا ازاء ذلك . خير لك ان تعود غدا ، فقبل لحظة اخبرنى رئيس نقابة التجار بأن المدير بو عازم على التدخل فى الامر . ومن المحتمل ان يعود السيد لين هذه الليلة .

فارتعش وجه السيد وو ، ودفع اليه القائمة ثانية وهو يقول :

ـ حسنا ، حسنا ، اذا كان لا بد من الدفع اولا ، فليكن ذلك . سآخذ البضاعة الليلة ، والدفع عند الاستلام .

فدلف شو شنغ الى الغرفة الخلفية عابس الوجه ، وابلغ السيدة لين برغبة المتجر المقابل فى ابتزاز البضاعة فقال :

ـــ عندما كان رئيس نقابة التجار هنا قال لى حقا ان السيد لين فى وضع حسن وانه لم يتعرض لأى تعذيب . ولكن علينا ان ننفق بعض النقود لاخراجه . ولا يوجد فى المتجر الا خمسون يوانا . وصاحب المتجر المقابل يريد الآن بضاعة . ومن النظر الى قائمته تبين لى انها تصل الى حوالى مائه وخمسين يوانا . فلماذا لا ندعه يشتريها ؟ ان المهم هو ان نخرج السيد لين بأسرع ما يمكن !

ولدى سماع السيدة لين بأنهم مضطرون لانفاق النقود ثانية تدفقت عيناها بالدموع ، وهزت فواقاتها بحدتها السماء . ولما كانت عاجزة عن الكلام ، لم تستطع اكثر من ان تلوح بيدها وتضرب الطاولة الخشبية برأسها ، فيصدر عن ذلك ضجيج مخيف . واحس شو شنغ بأن لا داعى لوجوده الآن فانسحب بهدوء . ولحقت به الآنسة لين الى خارج الباب . وقالت له هامسة بصوت مرتجف اجش ، وقد شحب لونها شحوبا شديدا :

ـــ ان ماما فى غضب شديد لا تستطيع معه ان تفكر جيدا . انها مستمرة فى قولها انهم قد قتلوا بابا ! فأسرع انت ووافق على ما يريده السيد وو . انقذ بابا بسرعة ! شو شنغ ، يا اخى ، انت . . .

وعندها احمر وجهها فجأة من شدة الخجل ، وطارت مسرعة الى الغرفة .

وفى حالة من الدوار حدق شو شنغ فى اثرها مدة نصف دقيقة ، ومن ثم استدار عائدا وقد صمم على تحمل المسؤولية فى بيع البضاعة الى منافسهم . فالآنسة لين على الاقل قد وافقته على ما يجب ان يتم .

ووضعت طاولة العشاء فى المتجر ، ولكن شو شنغ فقد شهيته

للطعام . حالما دفع السيد وو النقود ، حمل شو شنغ مائة يوان بيده واخفى ثمانين اخرى فى جيبه ، ثم خف يبحث عن رئيس نقابة التجار .

وبعد نصف ساعة عاد شو شنغ مع السيد لين . وعندما اندفعا داخاين الى " الحجرة الداخلية " اصيبت السيدة لين بجفلة وكادت تفقد صوابها . وعندما رأت انه السيد لين باحمه ودمه القت بنفسها امام صورة الالهة على نحو انفعالى ، وسجدت بعنف ضاربة الارض برأسها فى منتهى الشدة ، بحيث طغى ذلك على صوت فواقها . ووقفت الآنسة لين جانبا تحدق . لقد بدت كأنها تريد ان تضحك وتبكى فى وقت معا . واخرج شو شنغ رزمة ملفوفة بالورق ، ووضعها على الطاولة قائلا :

— هذه ثمانون يوانا لم نضطر الى استعمالها .

فتنهد السيد لين . واخيرا قال بصوت فاتر :

— كان عليكم ان تدعونى اموت وتتخلصوا منى . انفاق مزيد من النقود لاخراجى ! فالآن ليس لدينا نقود ، وكلنا سنموت على اية حال !

فوثبت السيدة لين عن الارض بانفعال وارادت ان تتكلم . ولكن سلسلة من الفواقات حبست الكلمات فى حلقها . وشرعت الآنسة لين تنتحب نحيبا مكتوما . ولم يبك السيد لين ، بل تنهد ثانية وقال فى صوت مخنوق :

— ان بضاعتنا قد استنفدت ! ولا نستطيع الآن ان نقوم بأى عمل ، والدائنون يضغطون علينا بشدة لاستعادة ديونهم . .

ـ يا سيد لين !

كان شو شنغ هو الذى صاح . لقد غمس اصبعه فى كوب الشاى ، وكتب على الطاولة هذه الكلمة " اذهب" .

فهز السيد لين رأسه ، وتدفقت الدموع من عينيه . ثم نظر الى زوجته ومن ثم الى ابنته ، وتنهد مرة اخرى .

ـ هذا هو المخرج الوحيد يا سيد لين ! ما يزال بامكاننا ان نقتصد معا مائة يوان اخرى من المتجر . ومخذها معك ، ستكفيك شهرا او شهرين . وانا سأهتم بما يجب ان نفعله هنا .

ومع ان شو شنغ قد تكلم بصوت منخفض ، الا ان السيدة لين سمعته . فكبحت فواقها واقحمت نفسها قائلة :

ـ وانت اذهب ايضا يا شو شنغ ! انت وشيو . اتركونى هنا وحيدة . سأقاتل حتى الموت ! . .

وفجأة بدت السيدة لين شابة ومعافاة على نحو ملحوظ ، ثم استدارت وهرعت تصعد السلم . فاندفعت الآنسة لين خلفها تنادى : " ماما ! " وحدق السيد لين الى السلم مرتبكا . لقد شعر بأن لديه شيئا هاما يود ان يقوله ، ولكنه كان من الذهول بحيث لم يستطع ان يتذكر ما ذلك .

وقال شو شنغ يحثه برفق :

ـ انت وشيو اذهبا معا ، فالسيدة لين ستكون قلقة اذا ظلت شيو هنا . انها تقول انهم يريدون اختطافها .

فهز السيد لين رأسه والدموع فى عينيه . انه لا يستطيع اتخاذ قرار .

ونفرت الدموع كذلك الى عينى شو شنغ . ثم تنهد واخذ يدور حول الطاولة .

وعندها تماما سمعا الآنسة لين تبكى ، فاندفعا يصعدان السلم مجفلين ، فألفيا السيدة لين تخرج من غرفتها وبيدها رزمة ورق . وعندما رأتهما عادت الى الغرفة وقالت :

ــ ارجوكما ان تدخلا كلاكما . استمعا الى ما قد قررت .

ثم اشارت الى الرزمة واردفت تقول :

ــ فى هذه الصرة اموالى الخاصة بى وتبلغ حوالى مائتى يوان ؛ سأعطيكما نصفها . يا شيو ، سأزوجك من شو شنغ ! .. غدا ستغادر شيو وابوها معا .. وانا لست ذاهبة ! سيبقى شو شنغ معى عدة ايام ، وبعد سنرى . من يدرى كم بقى لى من ايام حياتى .. ؛ لذلك اذا سجد كلاكما فى حضورى ، فسيكون بامكانى ان اطمئن ..

ثم امسكت ابنتها بيد وشو شنغ باليد الاخرى ، وامرتهما " بالسجود " . ففعل كلاهما ذلك ، وظلا خافضين رأسيهما خجلا وقد اشربت وجناتهما بالحمرة . واختلس شو شنغ نظرة الى الآنسة لين ، فرأى ابتسامة فاترة قد ارتسمت على وجهها المبلل بالدموع . فخفق قلبه بشدة وتحدرت من عينيه دمعتان .

وتنهد السيد لين قائلا :

ــ حسن جدا ، هكذا يجب ان يتم الامر . ولكن يا شو شنغ . عندما ستبقى هنا وتتعامل مع اولئك الناس كن فى منتهى الحذر !

٧

واضطر متجر اسرة لين اخيرا الى التوقف عن العمل : وعلى الفور انتشرت اخبار هروب السيد لين فى كل انحاء البلدة . ومن بين الدائنين كان المصرف المحلى اول من ارسل اناسا لوضع مخزونات المتجر تحت الحجز . وبحثوا كذلك عن دفاتر الحسابات ، ولكن لم يعثروا على اى منها . وسألوا عن شو شنغ فوجدوه طريح الفراش . واستجوبوا السيدة لين فكان جوابها سلسلة من الفواقات المتفجرة وسيلا من الدموع . ونظرا الى كونها تتمتع بمنزلة اجتماعية بوصفها "مدام لين" ، لم يستطيعوا ان يفعلوا معها شيئا .

وحوالى الحادية عشرة صباحا كان حشد الدائنين فى متجر لين يتشاجرون محدثين ضجيجا هائلا . فقد كان المصرف المحلى والدائنون الآخرون يتنازعون على كيفية اقتسام الممتلكات المتبقية . وعلى الرغم من ان المخزون قد نفد تقريبا ، الا ان المتبقى والاثاث والاشياء الثابتة كانت كافية لتسديد الدائنين حوالى سبعين فى المائة من ديونهم ، ولكن كلا منهم كان ينازع ليحصل لنفسه تسعين فى المائة او حتى مائة فى المائة . وظل رئيس نقابة التجار يتكلم معهم حتى حفى لسانه ولكن دون طائل .

ووصل اثنان من رجال الشرطة ووقفا خارج باب المتجر والعصى فى ايديهما ، ثم اخذا يصيحان بالحشد الذى تجمع لرؤية ما يجرى .

وقالت السيدة تشو تشاجر شرطيا وقد لوت شفتيها الذاويتين :

حفيد ! . . قد اغلق متجره ! ان اليوانات المائة والخمسين التى جمعتها بتعب يدى قد سقطت فى اليم ولم يسمع لها صوت ! آه ! حظ الفقراء عاثر والاغنياء قساة لا يرحمون . . .

ولما سمع الطفل امه تبكى بدأ هو الآخر ينتحب ، فضمته الى صدرها واوصلت بكاءها بمزيد من المرارة .

اما السيدة تشو فلم تبك ، بل ظلت تحدق بعينيها الغائرتين المحمرتين وتقول فى اهتياج :

— للفقراء حياة واحدة وللاغنياء حياة واحدة كذلك . اذا لم يعيدوا الى نقودى فسأقاتلهم حتى الموت !

وعندها تماما شق رجل طريقه خارجا من المتجر ، انه العجوز تشن . كان وجهه قد اصطبغ باون الارجوان ، وقد مضى يلعن ويشتم فيما هو يدفع بمنكبيه وسط الحشد :

— يا لكم من لصوص محتالين ! ستدفعون ثمن ما تفعلون ! ففى يوم ما سأراكم جميعا تحترقون فى نار جهنم ! اذا كان علينا ان نتعرض لخسارة ، فكل واحد يجب ان يتعرض لها معنا . حتى اذا حصلت على نصيب ضئيل مما ترك ، ففى ذلك انصاف على الاقل . . .

وفيما هو مستمر فى كيل الشتائم وقع بصره على الامرأتين فصاح بهما :

— يا سيدة تشانغ ويا سيدة تشو ، لماذا تجلسان هنا تبكيان ! لقد انتهوا من اقتسام الممتلكات . ان لسانى وحده لم يستطع اقناع اولئك العشرة . فتلك الذئاب لا تلتفت ، ولو بشىء تافه ، الى ما هو

— لماذا لا يمكنني الدخول ؟ لقد قدمت لهذا المتجر قرضا بثلاثمائة يوان ! انها مدخراتي !

ومضت تترنح شاقة طريقها نحو الحشد . وبرزت العروق الزرقاء في جبينها ثخينة كأنها الاصابع الصغيرة . واستمرت تدفع الى الامام . وفجأة رأت الارملة تشانغ تحمل بين ذراعيها طفلها البالغ من العمر خمس سنوات وتتوسل الى الشرطي الآخر كي يسمح لها بالدخول . فنظر اليها الشرطي من زاويتي عينيه ، ومن خلال تظاهره بمداعبة الطفل فرك صدرها بظاهر يده خلسة .

وصاحت السيدة تشو لاهثة :

— ايتها الاخت تشانغ . . .

وجلست على حافة السلم الحجري تحرك فمها المتغضن بعنف . فالتفتت الارملة تشانغ لترى من يناديها غير ان ذلك الشرطي قال لها بوقاحة :

لا تجزعي ! يمكنك الدخول بعد لحظة !

ضحك المتفرجون جميعا . فتظاهرت الارملة تشانغ بعدم فهم كلامه .

وتحركت الارملة تشانغ ، والدموع في عينيها ، خطوة على غير هدى جعلتها ترى السيدة تشو تلهث على حافة السلم الحجري . فمشت نحوها تتعثر وجلست بجانبها . ثم بدأت تبكي وتندب قائلة :

— آه يا زوجي ، لقد تركتني وحيدة ! انك لا تدري كم اقاسي ! الجنود الاشرار قتلوك . . كان ذلك منذ ثلاث سنوات في اليوم الموافق لاول امس . . . ذلك اللعين السيد لين . . ليته يموت بلا ولد ولا

معقول . انهم يصرون على ان لا تحسب نقودنا . . .

وزادت كلماته هذه من حدة بكاء الارملة تشانغ . وعندها تقدم الشرطى الهازل نحوها ولكزها فى كتفها بعصاه قائلا :

ـ هيه ، علام تبكين ؟ ان زوجك قد مات منذ زمن طويل ، فمن الذى تبكين عليه الآن ؟

فصاح العجوز تشن مزمجرا :

ـ يا ريح الكلب ! بينما يقوم اولئك الناس بسلب نقودنا ، يكون كل ما يمكن ان يقوم به تافه مثلك هو التحرش بالنساء !

ودفع الشرطى دفعة قوية . فاتسعت عينا الشرطى الشريرتان . ورفع عصاه ليضرب ، ولكن الحشد هاج وراح يشتمه . وتقدم الشرطى الآخر يعدو ، وسحب العجوز تشن جانبا وقال :

ـ لا داعى لاثارة هذه الجلبة ، فنحن لم نفعل شيئا ضدك . ان نقابة التجار قد امرتنا بحراسة الباب . واننا لمكرهان على ذلك ، ولكن لا يسعنا الا ان ننفذ من اجل العيش .

وفجأة صاح رجل من وسط الحشد عرف من صوته انه المتسكع الشهير لو :

ـ ايها العجوز تشن ، اذهب وقدم شكوى الى مكتب الكومينتانغ !

وصاح الآخرون :

ـ اذهب ، اذهب ! انظر ماذا يقولون !

وضحك الشرطى الذى توسط لتسوية الخلاف ضحكة فاترة ، ثم امسك بكتف العجوز تشن وقال :

ـ أنصحك ألا تذهب بحثا عن المتاعب . ان ذهابك الى هناك

لن يعود عليك بأى نفع ! انتظر حتى يعود السيد لين وسو معه الامور .
انه لا يستطيع انكار الديون .

فاستشاط العجوز تشن غضبا عجز معه عن اتخاذ قرار . وكان العاطلون من العمل ما يزالون يصيحون به : " اذهب" . فنظر الى السيدة تشو والارملة تشانغ وقال :

— ما رأيكما ؟ انهم دائما ما يتشدقون هناك عن مدى قيامهم بحماية الفقراء !

وصاح واحد من الحشد :

— هذا صحيح ، امس قبضوا على السيد لين لأنهم كما قالوا لا يريدونه ان يفر بأموال الفقراء !

وعلى نحو غير ارادى تقريبا انساق العجوز تشن والامرأتان مع الحشد على طول الشارع فى اتجاه مكتب الكومينتانغ . كانت الارملة تشانغ تسير ، وهى تبكى ، وتشتم الجنود الاشرار الذين قتلوا زوجها ، وتدعو ان يموت السيد لين بلا ولد ولا حفيد ، وتلعن ذلك الكلب القذر ، الشرطى !

ولدى اقترابهم من المكتب رأوا اربعة من رجال الشرطة يقفون خارج البوابة وفى ايديهم عصى . ومن بعيد صاح بهم رجال الشرطة هؤلاء :

— عودوا الى بيوتكم ! لا يمكن ان تقتربوا !

فصاح العجوز تشن الذى كان فى الصف الاول من الحشد :

— لقد جئنا لنتقدم بشكوى . ان متجر اسرة لين قد توقف عن العمل ، ولم يعد بامكاننا استرجاع النقود التى اقرضناها . . .

فقفز من خلف رجال الشرطة رجل مجدور داكن اللون ، وصرخ

بهم يأمرهم بالهجوم . ولكن رجال الشرطة ظلوا واقفين فى امكنتهم مكتفين بتوجيه تهديدات الى الحشد . وبدأ الحشد من خلف العجوز تشن يتذمر فى صخب .

فصرخ الرجل المجدور :

– انكم ايها المهجنون التافهون لا تعرفون صالحكم ! أتظنون انه ليس لدينا ما هو اهم من الانزعاج بأموركم الخاصة ؟ اذا لم تذهبوا من هنا فسنطلق النار !

ثم ضرب الارض بأخمص قدمه وصاح برجال الشرطة يطالبهم باستخدام عصيهم . وضرب العجوز تشن الذى كان يقف فى الصفوف الامامية عدة ضربات . وماج الحشد بالاضطراب . وكانت السيدة تشو مسنة وضعيفة . فسقطت على الارض . وفقدت الارملة تشانغ فى انطلاقها المذعور حذاءها . وباندفاع الحشد المضطرب سقطت هى الاخرى على الارض ، وتجنبت ، وهى تتدحرج وتزحف ، كثيرا من الاقدام الواثبة الواطئة . ثم تحاملت ناهضة عن الارض وركضت بأقصى ما تستطيع . وعندها فقط تبينت ان طفلها قد فقد . كانت هناك نقاط دم على الجزء العلوى من ثوبها .

– آه ، يا اغلى ما لدى ، يا فلذة كبدى ! قطاع الطرق يقتلون الناس ! يا اله امبراطور اليشب انقذنا !

وانطلقت تعدو بسرعة ، معولة منفوشة الشعر . ولدى مرورها بمتجر اسرة لين المغلق ، كانت قد فقدت عقلها تماما .

١٨ حزيران ٩٣٢

كلمة عن المؤلف

شن يان بينغ (١٨٩٦ - ١٩٨١) الذى كان يوقع بالاسم الادبى : ماو دون ، من ابرز عناصر الواقعية الثورية التى ظهرت بالصين منذ " الحركة الادبية الجديدة " فى سنة ١٩١٩ . ولد فى محافظة تونغشيانغ بمقاطعة تشجيانغ . وفى نوفمبر ١٩٢٠ ، اسس بالاشتراك مع تشنغ تشن دو ويه شنغ تاو وغيرهما من ادباء " جمعية الدراسات الادبية " ، وهى من اوائل المنظمات التى تأسست فى الصين تتبنى نظرة جديدة فى الادب . وفى سنة ١٩٢١ ، اصبح محررا فى مجلة « القصة » الشهرية عن المطبعة التجارية فى شانغهاى . وقد نظم هذه المجلة وشن عبرها هجوما ضاريا على التأثيرات الاقطاعية والكومبرادورية فى الادب الصينى الراهن .

ومن ١٩٢٦ - ١٩٢٧ .. حرر « مينقوه ريباو» الصحيفة اليومية الثورية فى هانكو . وعندما خان تشيانغ كاى شيك الثورة واصبح الكومينتانغ شديد العداء للشيوعيين ، ترك هانكو وعاد الى شانغهاى .

ومنذ ذاك الحين ، استخدم الاسم الادبى : ماو دون فى كتابته للروايات التى فضحت شرور نظام الكومينتانغ الرجعى ، وعكست نضال الشعب الثورى . كتب روايات « التآكل » وهى ثلاثية فى ١٩٢٧ ، و« قوس قزح » فى ١٩٣٠ ، و« الرفاق الثلاثة » فى ١٩٣١ ، و« منتصف الليل » فى ١٩٣٣ ، اضافة الى عدد من القصص القصيرة والمقالات .

وواصل ماو دون فى اثناء حرب المقاومة ضد اليابان (١٩٣٧ - ١٩٤٥) نشاطاته الادبية . فحرر مجلة « جبهة الادب » الدورية وكتب روايتى « الصدأ » (١٩٤١) و« الاوراق المتجمدة حمراء كالزهور فى الربيع »

(١٩٤٢) ، ومسرحية « قبل وبعد عيد الصفاء والنقاء » (١٩٤٤) الى جانب عدد من القصص القصيرة والمقالات .

عين ماو دون فى سنة ١٩٤٩ ، بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية ، وزيرا للثقافة ، وظل فى هذا المنصب الى سنة ١٩٦٤ . وفى سنة ١٩٥٤ ، انتخب نائبا بالمؤتمر الوطنى الاول لنواب الشعب ، وفيما بعد اعيد انتخابه بالمؤتمرات الوطنية المتتالية . ثم شغل فى نفس الوقت منصب نائب الرئيس لاتحاد الادب والفن لعموم الصين ، ومنصب رئيس اتحاد الكتاب الصينيين ونائب الرئيس للجنة الوطنية الخامسة للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى .

رواية « منتصف الليل » ذاعت فى الصين طولا وعرضا منذ ان نشرت فى سنة ١٩٣٣ . وقد لعبت دورا طليعيا حيويا – حسب رأى النقاد – فى تطوير الواقعية الثورية بالصين .

وقد صدرت هذه الرواية عن دار النشر باللغات الاجنبية ببكين باللغات العربية والانجليزية والفرنسية ، كما صدرت له مجموعة من القصص القصيرة « ديدان القز الربيعية » باللغات العربية والانجليزية والفرنسية والاسبانية والهندية .

« متجر اسرة لين » من عيون ما كتب . والقصة تصف كيف اضطر متجر فى بلدة صغيرة الى ان يغلق ابوابه فى ظل الاضطهاد المزدوج من رجعيى الكومينتانغ والامبريالية وتعكس ما عانته التجارة والصناعة فى ظل الحكم الذى ساد بالصين شبه الاقطاعية وشبه المستعمرة .



الفهرس

قصة آه كيو الحقيقية ١
مفترق الطرق ٧٥
السيد بان ينجو من العاصفة ٩٥
الفراق ١٣١
طفل على ضفة البحيرة ١٤٩
الاخت ليو الكبرى ١٦٥
ليالى الربيع المسكرة ٢٠٥
متجر اسرة لين ٢٢٧

مطبعة اللغات الاجنبية   بكين

توزيع

الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب

(كوزى شوديان)

ص . ب ٣٩٩ بكين – الصين

中国现代短篇杰作选

(1919—1949)

上 册

鲁迅等著 丁 聪插图

阿布·贺拉德等译

*

外文出版社出版

(中国北京百万庄路24号)

外文印刷厂印刷

中国国际图书贸易总公司

(中国国际书店)发行

北京399信箱

1987年(36开)第一版

编号：(阿)10050—1222 A

00545

10—A—1688 P A



هذه المختارات القصصية

تضم ٢٤ قصة قصيرة من عيون الادب الصينى بقلم ٢٤ اديبا بارزا فى السنوات الثلاثين من ثورة ١٩١٩ الادبية الى تأسيس جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩ .

تكشف هذه القصص عما عاناه الشعب الصينى فى سنوات ما قبل التحرير ، كما تظهر الدرب الثورى الذى سلكه فى بحثه عن حياة جديدة . علاوة على ذلك ، تبين المستوى الراقى من الكتابة الذي ظهر فى تلك الفترة .. تعتبر كل قصة منها مساهمة قيمة لكنز الأدب الصينى الحديث .

تصميم الغلاف : خه بى تشو